تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مجلة
فصلية علمية
دينية سياسية
تعنى بشؤون حوزتي
النجف الأشرف
وقم المقدسة

الحوزة

مجلة علمية فصلية

تصدر عن مركز الهدى للدراسات الحوزوية

العدد السادس والثلاثون/ السنة الثامنة / ١٤٤٤هـ

المشرف العام

السيد قاسم هاشم مولى

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

هيئة التحرير

حيدر النجار

إبراهيم الأسدي

التصميم والإشراف الفني

أحمد الهاشمي

info@markazalhuda.net

www.markazalhuda.net

دعوة للكتّاب

تود هيئة تحرير مجلة الحوزة ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الحوزة وفق المعايير التالية:

- ❖ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
- ❖ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
- ❖ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
- ❖ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
- ❖ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
- ❖ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

لا تمثل بالضرورة آراء الباحثين والكتاب رأي مجلة الحوزة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الامام الخامنئي (دام ظلّه) خلال لقائه المشاركين:
في إجتماع المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

الجمهورية الاسلامية استلهمت من أهل البيت ودحرت تنين الاستكبار ذي الرؤوس السبعة وتقدمت

❖ **كتاب ٢٥٠ سنة من عمر الانسانية للإمام الخامنئي**
أ. سميرة الموسوي ١٠

المحور الحسيني

❖ **إصلاح الشعائر الحسينية في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام**
د. الشيخ حيدر خمّاس الساعدي ٣٠

❖ **أثر الشعائر الحسينية في نشر فكر أهل البيت عليهم السلام في القارة الافريقية**
إعداد: د. حيدر عبد الجليل الحربية ٥١

❖ **العنايات الإلهية بالإمام الحسين عليه السلام**
د. الشيخ علي حمود العبادي ٨٥

❖ **مقتل أبي مخنف الأزدي الكوفي أشهر المقاتل الحسينية**
الشيخ عامر الجابري ١٠٩

من عبق الفكر والمعرفة

❖ **الغرب لله.. الشرق للشيطان في تصورات بعض المستشرقين**
محمد سعدون المطوري ١٤٦

❖ **إدارة الاختلاف في القرآن الكريم بين منهجي: الوصل والقطع**
حيدر حب الله ١٧٣

❖ **البناء النفسي للعقيدة**
أ. عباس ذهيبات ٢٠٨

❖ **القراءات المعاصرة للتراث وأزمة التنوير في العالم العربي**
د. حيرش بغداد محمّد ٢٢٥

الامام الخامنئي خلال لقائه المشاركين
في إجتماع المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام

الجمهورية الاسلامية استلهمت من أهل البيت ودحرت تنين الاستكبار ذي الرؤوس السبعة وتقدمت

شدد قائد الثورة الاسلامية المعظم سماحة آية الله العظمى السيد علي الخامنئي لدى استقباله أعضاء المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام والضيوف المشاركين في الاجتماع السابع للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، اليوم (السبت: ٣/٩/٢٠٢٢) على أن عظمة ومحبوبية أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام في العالم الاسلامي لا نظير لها، مؤكدا: إن الجمهورية الاسلامية وباعتبارها علماً يرفرف بإسم أهل البيت عليهم السلام في وجه نظام الهيمنة، تؤمن بأن أي حد فاصل مذهبي

وقومي وفئوي وعرقي في العالم الإسلامي ليس حقيقياً، وأن الحد الفاصل الوحيد والبارز والحقيقي، هو الحد الفاصل بين العالم الاسلامي وبين جبهة الكفر والاستكبار العالمي.

وأوصى سماحته المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام بصورة مؤكدة للاستلهام من عظمة ومحبوبية أهل البيت عليهم السلام في العالم الاسلامي، وأضاف: إن المجمع يجب ان يكون قاعدة ومكانا لاستلهام كافة المسلمين والارواح التواقة الى معارف اهل البيت عليهم السلام ويؤدي عمله بصورة يصبح فيها زيناً لهم.

واعتبر سماحة آية الله العظمى الخامنئي معارف اهل البيت عليهم السلام مجموعة كاملة تحوي جميع احتياجات آحاد البشر والمجتمعات البشرية، واضاف: إن المجتمعات الاسلامية هي اليوم بحاجة ماسة لكافة أبعاد معارف أهل البيت عليهم السلام، وعلى المجمع العالمي أن يقوم بالتخطيط الدقيق والصائب واستخدام الأساليب المعقولة والأدوات المؤثرة، من أجل أداء هذا الواجب العظيم.

وأشار قائد الثورة الاسلامية المعظم الى اللواء المرفوع لنظام الجمهورية الاسلامية أمام نظام الاستكبار، وأكد سماحته: إن أتباع أهل البيت عليهم السلام والشيعة في العالم هم فخورون بقيام النظام الاسلامي بالوقوف وجهاً لوجه أمام تنين نظام الهيمنة "ذي الرؤوس السبعة "، وإفشال مخططاته، كما يعترف المستكبرون بأنفسهم.

واعتبر سماحته أن سر صمود الجمهورية الاسلامية هو الاستلهام من معين أهل البيت عليهم السلام، وأضاف: ان هؤلاء الأنجم الزاهرة عليهم السلام علّمونا بمعارفهم النظرية وسيرتهم العملية كيف نسير في درب الاسلام العزيز بالتدبّر والعمل بالقرآن الكريم.

واعتبر سماحة آية الله العظمى الخامنئي لواء الجمهورية الاسلامية لواء العدالة والروحانية، واضاف: ان عالم الهيمنة الذي تستند كل عقيدته وأعماله على

الماديات والمال والقوة، من البديهي ومن الطبيعي ان يناهض هذا اللواء ويعاديه.

ووصف قائد الثورة الإسلامية المعظم، الولايات المتحدة بأنها رأس جبهة الاستكبار، وقال: ان الإمام الخميني إستلهم من منهل القرآن العظيم وقام بتعليم الجميع بنبذ الحدود الفاصلة غير الحقيقية بين المجتمعات الاسلامية والاعتقاد بخط فاصل وحيد وهو الحد بين العالم الاسلامي وبين الكفر والاستكبار.

ونوّه سماحته في هذا الإطار: بسبب هذا الايمان العميق، تم ادراج دعم القضية الفلسطينية على جدول اعمال الثورة الاسلامية منذ الايام الاولى ووقف الإمام الراحل مع القضية الفلسطينية بكل وجوده، وان الجمهورية الاسلامية تعمل وفق هذه الهندسة السياسية التي رسمها الإمام الراحل العظيم وستبقى وفيّة لها في المستقبل ايضا.

واعتبر سماحة آية الله العظمى الخامنئي أن سبب التعاطف المنقطع النظير بين الشعوب الاسلامية كافة وبين الشعب الايراني، هو التزام الشعب الايراني بالاستراتيجية التي رسمها الامام الراحل، أي نبذ خطوط الفصل المذهبية والطائفية والعرقية في العالم الاسلامي، واضاف: من اجل هذا نادينا باستمرار جميع الدول الاسلامية الى عدم الاكتراث لقضايا مثل "الشيعة والسنة" و"العرب والعجم" وباقي خطوط الفصل، ودعونا الى العمل بالمبادئ والاصول.

واعتبر سماحته قيام ايران بتشجيع الشعوب الاخرى على الصمود أمام الغطرسة، بأنه من أسباب غيظ نظام الهيمنة وعداوته لايران، مؤكداً: ان إفشال المخططات الاميركية المجرمة في مختلف البلدان، والذي كان داعش نموذجا منها، هو سبب بث الدعايات الهائلة للتخويف من ايران والتخويف من الشيعة واتهام ايران بالتدخل في الدول الاخرى.

وأكد قائد الثورة الاسلامية المعظم على عدم تدخل ايران في شؤون الدول

الاخرى، معتبرا ان سبب التهم التي يكيلها المتغطرسون، هو ضعفهم وعجزهم عن ايقاف التطور اللافت للنظام الاسلامي، وأضاف: بالطبع، يجب على الجميع ان يتحلوا باليقظة حيال السياسات الاستكبارية وعدم التماشي معها.

وشدد سماحة آية الله العظمى الخامنئي على أن السياسة الحالية للاستكبار هي تضخيم الفوارق وخطوط الفصل غير الحقيقية في العالم الاسلامي، وأضاف: ان التحريض والتخطيط للحرب الشيعية السنية والسنية السنية والتي نراها اليوم في بعض البلدان، هو سياسة الشيطان الاكبر أي اميركا ويجب اليقظة حيالها.

ودعا سماحته أتباع اهل البيت عليهم السلام الى ان يكونوا روّاد التظافر والتعاضد، واضاف: كما قلنا منذ اليوم الاول، إن إنشاء المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام لا يعني مواجهة غير الشيعة ومعاداتهم، ونحن قد مشينا منذ البداية حتى مع إخواننا من غير الشيعة الذين ساروا في الدرب الصحيح.

ورداً على السؤال المطروح حول وجود القدرة على مواجهة عداوة اعداء العالم الاسلامي، أكد سماحته: إن القدرة على ايقاف ودحر الاستكبار هي موجودة بكل تأكيد، نظرا للامكانيات المادية والمعنوية المتوفرة لدى العالم الاسلامي.

واعتبر قائد الثورة الاسلامية المعظم "الحقائق والمعارف الاسلامية، والتوكل على الله سبحانه وتعالى، والنظرة التفاؤلية حيال التاريخ، وقضية المهدوية" من جملة الطاقات المعنوية لدى العالم الاسلامي، واشار الى الانسداد الفكري لدى الغرب والنظام الليبرالي، مؤكدا: بالطبع في المجال المادي فان المستكبرين قاموا بتعزيز قدراتهم بانتهاج الاستعمار واستغلال موارد العالم الاسلامي واللجوء الى كافة الحيل والخدع، لكن الامكانيات الطبيعية المتوفرة لدى العالم الاسلامي من اجل التطور هي كثيرة جدا وان اهمية نموذج واحد من هذه الامكانيات وهو النفط والغاز قد ظهرت جليا امام الجميع اليوم.

وشدد قائد الثورة الاسلامية المعظم على أن إزدهار الطاقات ترتبط بالعزم الراسخ ومعرفة الأعداء ووجود قيادة كقيادة الإمام الجليل ونبذ التقاعس، وأضاف: إن الجمهورية الاسلامية وكأنموذج وواقع حي، استطاعت اليوم الصمود امام انواع العداوات والهجمات، وحوّلت تلك النبتة حديثة الزرع الى شجرة متجذرة، موضحا: إن القصد من الانموذج ليس استنساخ النظام السياسي، بل التمسك بالمبادئ والقيم التي سنها الإمام الراحل.

وفي الختام شدد سماحة آية الله العظمى الخامنئي على أن مستقبل العالم الاسلامي هو مستقبل زاهر وبامكان المسلمين الشيعة القيام بدور كبير وهام فيه.

وفي بداية اللقاء تحدّث حجة الإسلام والمسلمين رمضاني الأمين العام للمجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، رافعاً تقريراً عن الإجتماع السابع للجمعية العامة للمجمع بمشاركة شخصيات من ١١٧ بلد، تحت شعار " أهل البيت عليهم السلام محور العقلانية والعدالة والكرامة".

أ. سميرة الموسوي
باحث وأكاديمي/ العراق

كتاب ٢٥٠ سنة من عمر الانسانية

للإمـــام الخامنـــئي

جهاد التبيين والحرب الناعمة

في سيرة الائمة الاطهار عليهم السلام

عرض ووجهة نظر

المقدمة

كتـاب / ٢٥٠سـنة مـن عمـر الأنسـانية - قـراءة متفـردة لحيـاة الائمـة الاطهار عليهم السلام، والتي هي سلسلة طويلة متصلة الحلقات، وقد بدأت هذه السلسلة منذ بداية السنة العاشرة للهجرة أو الحادية عشرة من الهجرة واستمرت إلى عام ٢٦٠ من حياة الائمة الاطهار حيث بداية الغيبة الصغرى.

والكتاب هو مجموع حلقات شكلت سلسلة من مقالات ومحاضرات السيد علي الخامنئي/ المرشد الأعلى لجمهورية إيران الإسلامية، طيلة فترة دراسته لحياة أئمة الاسلام المحمدي ومنذ وفاة سيد المرسلين وخاتم النبيين صلى الله عليه وآله في العاشر من الهجرة حيث يبدأ جهاد إمام المتقين عليه السلام بغياب إبن عمه المصطفى صلى الله عليه وآله.

والكتاب ليس سرداً تاريخياً لحياة أئمة الهدى عليهم السلام وإنما هو قراءة متفردة غير مسبوقة لمجمل سيرتهم الجهادية بمختلف أنواع الجهاد، حيث أعتبر المؤلف السيد الخامنئي حياة الائمة الاطهار برسالة واحدة تنتقل من إمام الى إمام طيلة ٢٥٠ سنة هي مجموع بقائهم على قيد الحياة، وكأنهم عليهم السلام بذلك (شخص واحد) عاش كل هذه السنين من عمر الانسانية.

وازاء، ذلك رأى المؤلف أن الرسالة الإسلامية واحدة؛ وهي أن تبقى كلمة الله هي العليا وان غاية خلق الانسان هي عبادة الله حتى يرث الارض عباده الصالحون، وان من مقتضيات الاستمساك بالعروة الوثقى هو الكفر بالطاغوت وعبادة الله.

ولكي تبقى شعلة الحق والحرية متوهجة بالغة السمو ولن تخبو أبداً ضحى أئمة الهدى عليهم السلام بأنفسهم (قتلاً أو تسميماً).

لقد كان جهاد الأئمة الأطهار ضد جور الحكام وطغيانهم وهيمنتهم واعتدائهم على حدود الله وإيغالهم بالفساد لهدم الدين واركانه متدرجا باستعمال مختلف طرق التبيين، والبلاغ، والايضاح المباشر وغير المباشر فاذا لم يحدث الأثر المطلوب على سيرة الحكام تصاعدت لهجتهم بالتعبير عن حقوق الله حتى يحدث ما يجب أن يحدث من صدام ووفق الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية والأمنية وغيرها. فأما تقوم الحرب بالسيف او يسارع الحكام الى سجن الامام الثائر حتى الموت أو القتل بالسم وكما هو معروف في كتب التاريخ

يقول المؤلف: السيد علي الخامنئي:

«لم تنته غربة الائمة الاطهار عليهم السلام برحيلهم عن هذه الحياة الفانية، فقد استمرت غربتهم باستمرار تجاهل الابعاد الهامة في سيرتهم على مدى قرون من الزمن،

وربما كان أهم مواطن الغربة في حياة الائمة عليهم السلام هي غربتهم التاريخية. لا شك في أن المؤلفات التي كتبت طوال القرون المنصرمة تتمتع بقيمة كبيرة جدا؛ إذ تمكنت من نقل مجموعة من الروايات التي تعكس سيرة الائمة الاطهار عليهم السلام.

وتحفظها الأجيال اللاحقة. بيد إن عنصر ـ المواجهة السياسية الحادة ـ الذي يمثل الخط المتواصل من حياة أئمة الهدى عليهم السلام والممتد عبر قرنين ونصف - ٢٥٠ سنة - ظل مهجوراً وضائعا بين ركام الروايات والأحاديث والسيرة الخاصة بالجوانب العلمية والمعنوية من حياتهم الشريفة».

ثم يقول السيد الخامنئي:

«علينا أن نتعاطى مع سيرة الأئمة عليهم السلام بوصفها مثالا يحتذى به، ودرساً يجب استيعابه والعمل به، لا بوصفها مجرد مشاهد عظيمة وقيمة. ولا يمكن ذلك الا من خلال التدبر في السيرة والسلوك السياسي لهؤلاء الائمه الاطهار عليهم السلام. وأنا شخصيا قد شغفت بهذا البعد من حياة الأئمة عليهم السلام. ولا بأس في ذكر هذه الحقيقة وهي أن هذه الفكرة قد خطرت لي للمرة الأولى في مرحلة اختبار وإبتلاء عصيبة وشاقة، فعلى الرغم من معرفتي السابقة بالأئمة عليهم السلام بوصفهم قادة بارزين في الصفوف الاولى من المواجهة والتضحية من أجل إعلاء كلمة التوحيد وإقامة الدولة الربانية إلا أن النقطة التي انقدحت في ذهني فجأة تمثلت في أن حياة الأئمة عليهم السلام رغم الاختلاف الظاهري - بحيث ذهب الظن ببعض الى الشعور بالتناقض في جانب من هذه الحياة ـ هي سلسلة طويلة متواصلة الحلقات وقد بدأت هذه السلسلة منذ السنة العاشرة أو الحادية عشر من الهجرة واستمرت الى عام ٢٦٠ من حياة الائمة عليهم السلام حيث بداية الغيبة الصغرى».

ومن خلال قراءتنا لمضامين القوة الناعمة والحرب الناعمة وما تمثله منذ زمن بعيد من أهمية وخطورة... وكذلك مضامين جهاد التبيين الذي كشفه ودعا اليه السيد علي الخامئني خلال أحاديثه وخطاباته وباعتبار أن هذا الجهاد هو كل ما يؤدي ضد التزييف من خطاب او كتابة أو بلاغ بمختلف الأساليب المتاحة... من خلال ذلك البحث حاولنا أن نتلمس وجود تلك المضامين في سيرة الائمة عليهم السلام، والحمد لله العلي العظيم وجدنا ما يمكننا من القول بأن جهاد التبيين كان واضحا تماما في سيرتهم عليهم السلام وكانوا يخوضون حروبا متواصلة طيلة الـ (٢٥٠) سنة بمفهوم الحرب الناعمة.

وازاء ذلك كله ندعو الى ضرورة الاطلاع واستيعاب مضامين جهاد التبيين والحرب الناعمة لكي نعمل وبإيمانية اسلامية إنسانية على مواصلة مسيرة حياة أئمة الهدى عليهم السلام، وهي مسيرة إنسانية من أجل الحق والحرية والعدالة والكرامة الانسانية وضد الطواغيت والاستكبار والظلم والاستعباد والهيمنة والاستغلال. ويبقى القول أن ممارسة جهاد التبيين وخوض الحرب الناعمة بحاجة الى احراز ثقافة عالية وامكانات ذاتية في مخاطبة الرأي العام، أي إن خوض الجهاد والحرب لا يتمان بمجرد الرغبة وانما تقتضي الضرورة إلى التعلم والتدريب والاشراف والتقييم.

جهاد التبيين

جهاد أهل البيت عليهم السلام كان يركز على:

تبليغ الرسالة المحمدية.. رسالة الاسلام، وجعل مبادئ الاسلام ليس في الفكر فحسب وإنما في السلوك ايضاً.

كان التبليغ لا يقتصر على خطابهم الديني فحسب وإنما كان فكرهم ينطبق على سلوكهم اليومي الأسري

والاجتماعي، فكان خطابهم الديني يشدد على الدعوة (ابدأ بنفسك) وهذه من أهم الميزات التي كانت ولم تزل اساساً تعبيرياً عن الأيمان.

كانت الآية الكريمة ﴿**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد إستمسك بالعروة الوثقى**..﴾ حاضرة بلا توقف في سلوك أهل البيت عليهم السلام، فدورهم هو إعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ضد التزييف،، وكما قال سيد الشهداء عليه السلام: (**إني لم أخرج أشراً ولابطرا ولامفسدا ولاظالما وانما خرجت لطلب الاصلاح في أمة جدي، أريد أن آمر بالمعروف وانهي عن المنكر، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد عليّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم بالحق، وهو خير الحاكمين**). فلم تكن غاية الحسين عليه السلام في خروجه: الحرب والقتال، وإنما غايته الاساسية هي الاصلاح على وفق رسالة الاسلام، ولكن شاء الله عز وجل أن تقع واقعة الطف لتعبر عمليا عن قيادة أهل البيت للحق ضد الباطل.

ـ إن ما ذكرناه يشكل والى حد كبير وعميق مضمون (جهاد التبيين) لانه الجهاد مقابل التزييف- وهو جهاد البلاغ أيضا هو التوضيح الصحيح للحق ضد الباطل من أجل ان تبقى كلمة الحق هي العليا.

وهذا بالضرورة يقودنا إلى الإيمان بان أية كملة حق جريئة شافية وافية وواعية هي ركن من أركان جهاد التبيين، فهي فرصة إذن لكل من يريد أن تمضي حياته مضيا سليما... فرصة الدفاع عن الحق ضد الباطل وضد التزييف وبأية وسيلة بيان أو بلاغ ولاسيما وسائل الاعلام ومواقع التواصل الاجتماعي وبذلك سيكون هناك معنى وهدفاً لكل حرف نخطه او كلمة نقولها عن وعي ودراية وتبصر ضد التزييف.

- فكل الائمة كانت سيرهم في جهاد التبيين وحتى الحروب التي

خاضوها أو شاركوا فيها بطريقة ما كان جهاد التبيين يغلب عليها.

- ومفهوم جهاد التبيين كان دعوة وتوضيحا وبلاغا من السيد علي الخامنئي حيث جعل هذا الجهاد جهادا حتمياً.

- يقول السيد الخامنئي عن جهاد التبيين في حياة الائمة الاطهار عليهم السلام «عند ما أحس الأئمة عليهم السلام بأن الاسلام قد سلك طريق الغربة وإن المجتمع الاسلامي. لم يتشكل بعد جعلوا بعض الاهداف على سلم اهتمامهم وكان من بين تلك الاهداف [تبيين الاسلام بشكل صحيح] فقد كان الاسلام الحقيقي يمثل حجر عثرة بالنسبة إلى أولئك الذين تربعوا على كرسي الحكم طوال هذه السنوات، فلم يكن إسلام النبي وإسلام القرآن واسلام بدر وحنين والاسلام المخالف للترف والاسلام المناهض للعنصرية والطبقية والاسلام المناصر للمستضعفين والمحرومين والاسلام المعادي للمستكبرين هو الاسلام الذي يناسب مقاس هؤلاء الطغاة الذين يتلفعون بالرداء الموسوي ليمارسوا السياسة الفرعونية ويرتدون الثياب الإبراهيمية ليخفوا تحتها ما هيتهم النمرودية، لذلك.. فهم مضطرون لتمزيق الاسلام...).

ـــ وعن المواجهات المسلحة للائمة عليهم السلام يقول السيد الخامنئي: «**وأحيانا كانوا يدعمون بعض الثورات العلوية في الخفاء**» ومن ذلك ما يروى عن الامام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

«**لَوَدَدْتُ أن الخارج من آل محمد خرج وعليَّ نفقة عياله**» فكانوا يقدمون الدعم المالي والمعنوي وكانوا أحيانا يقدمون الدعم اللوجستي فيوفرون لمن يقوم بوجه الظلم عطاء وملاذا وما إلى ذلك من الامور ولكنهم أنفسهم بماهم أئمة لم يدخلوا في المواجهات المسلحة فالمواجهة السياسية عبارة عن المواجهة التي تستهدف غاية

سياسية فما هي تلك الغاية السياسية؟ إنها عبارة عن إقامة «**الدولة الاسلامية وبحسب تعبيرنا -الدولة العلوية -**».

وللتوضيح أكثر نورد هنا مقتطفات من خطب السيد الخامنئي في معرض رؤيته لجهاد التبيين «**التبيين والتوضيح من أهم مهام الانبياء، واعداء الانبياء يستخدمون الجهل والتحريف... التبيين مقابل التحريف..**»،.... «**في النضالات الاسلامية التبيين لهم غاية.**»،... «**يجب ألا يُعرف الامام الحسين فقط من خلال معركة يوم عاشوراء، فذلك جزء من جهاد الامام الحسين عليه السلام، فيجب معرفته من خلال تبيينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وتوضيح مختلف القضايا في منى وعرفات من خلال توجيه الخطاب إلى العلماء...**»... «**الجهاد ليس مجرد حمل السيف والحرب في ساحة القتال... الجهاد يشمل الجهاد الفكري والجهاد العلمي والجهاد التبييني والتبليغي والجهاد المالي..**»..

«**والنقطة المفتاحية في حال غياب التبيين فان الفرصة ستفتح للعدو لأغواء وتضليل الناس في مختلف المجالات، وكان إنتاج تنظيم داعش أحد الادلة على هذه المسألة.. لأننا لم نقم بواجب التبيين بنحو واضح.. هناك مجموعة اصيبت بالضلال ويتصورون أنهم يعملون من أجل الاسلام لكنهم ضد الاسلام... إنهم يحاربون المسلمين بدلا من العدو...**».

الحرب الناعمة

ابتداء نذكر أن الحرب الناعمة أشار اليها الفلاسفة اليونان قبل الميلاد بتسميات مختلفة ولكن بمضامين متقاربة ثم ذكرها عدد من المفكرين على مر التاريخ باعتبارها مصاحبة للحرب الخشنة العسكرية وهي ليست الحرب النفسية لان الحرب النفسية وكما هو متعارف عليه تكون موجهه الى

الحكومة والجيوش في الحرب وتختلط معانيها بمفهوم الدعاية.

أما الحرب الذكية فهي خليط من الحرب الخشنة وما يصاحبها من حرب نفسية واعلان مع الحرب الناعمة. فالحرب الذكية هي توليفة غاية في التخطيط الدقيق بين أنواع الحروب سواء تلك التي تجري على الارض بانواع الاسلحة أو التي تجري على العقول بمختلف الوسائل الاخرى.

فاذا كانت أسرار القوة الصلبة حكراً على الاسلحة الفتاكة فان اسرار الاسلحة الناعمة متاحة ومعروضة وبمتناول الايدي. فهي التي تجعل الاخرين يعجبون بمثلك ومبادئك حتى تضعف لديهم صلتهم بمثلهم وبمبادئهم.

ولكي نتوسع في التوضيح نذهب الى كتاب منظّر الحرب الناعمة الامريكي (جوزيف ناي) والكتاب بعنوان «**القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية**» الصادر عام ٢٠٠٤ فالقوة الناعمة هي وسيلة وهدف، وكل شعب لديه قوة ناعمة يمكن أن يستخدمها وسيلة او سلاح في الحرب الناعمة ضد العدو وهي في الوقت نفسه الهدف الذي يريد العدو تدميره فمثلاً / نحن لدينا نظام أسري متماسك يقوم على القيم الدينية بمعظمه كاحترام الام والاب الى حد التقديس استنادا الى الآية الكريمة ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً**﴾ و(الجنة تحت اقدام الأمهات) فهذه قوة ناعمة نستطيع أن نتخذها سلاحاً ضد أعدائنا في مقابل النظام الاسري الغربي والامريكي الذي تعودوا عليه وجعل الوالدين في مقام (المربيين) فقط بلا اعتبار روحي يربطهما. أما النظام الغربي والامريكي الاسري فأنهم يطرحونه كوسيلة إغراء لتفكيك نظامنا الاسري من حيث الحرية بمفهومها اللبرالي بين أفراد الاسرة، وإن نظامنا الاسري سيكون وسيلة لرفض البنية

الاجتماعية الغربية حين تقوم هذه الدول بإستغلالنا او الهيمنة علينا ومن المؤكد ان الغلبة ستكون للجهة التي تقوم بتسويق قوتها الناعمة بأساليب غاية بالدقة والحذر وباستخدام مختلف وسائل الاعلام والتشكيلات التربوية والفنية والاجتماعية.

وأزاء ذلك يمكن ان نتذكر كيف تفكك الاتحاد السوفيتي عام ١٩٩١ دون حرب حين توجهت اليه الآلة الاعلامية الغربية بحربها الناعمة وعرضت مفاهيم حق تقرير المصير والسلام العالمي وحقوق الانسان والشفافية وغيرها من المفاهيم الصحيحة ظاهرياً والمؤدية الى التشظي والغربة في هدفها النهائي المبطن.

ومن نتائج التفكيك الغربي للاتحاد السوفيتي ما لمسناه من هيمنة الدول الغربية وامريكا على اوكرانيا بعد إنفصالها وجعلها ترسانة أسلحة ضد المعترضين على الهيمنة الاستعمارية مما أدى الى الحرب الدائرة اليوم على أراضي اوكرانيا وزهق الارواح من الجانبين المتحاربين مع تهديد العالم بمجاعة وارتفاع الاسعار لان اوكرانيا سلة غذاء العالم.

ونذكر أيضاً كيفية سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، والحقيقة أن سقوطه غير الرسمي وبسبب القوة الناعمة واستخداماتها في الحرب الناعمة كان قبل هذا التاريخ حيث شن الغرب وامريكا حرباً ناعمة سيطرت على الكثير من العقول في المانيا الشرقية حيث عرضت الجرافات الالمانية الغربية في مختلف وسائل الاعلام وهي ترمي اطنان التفاح في البحر وادعاء قلة استهلاكه او الحفاظ على اسعاره لكثرة المعروض منه ثم عرضت ايضاً وبصورة مبتذلة كل ماهو غير متوفر في اسواق المانيا الشرقية، ولمثل هذه الاسباب الاقتصادية وغيرها الكثير من (عتاد) الحرب الناعمة بدأ الشباب يهدمون الجدار

بالسكاكين والمطارق وغيرها حتى تمكنوا من هدمه ثم حدث ماحدث وتوحد شطرا الدولة الالمانية بلا اطلاق النار.

فالقوة الناعمة الغربية والامريكية تسوقها مصادر كثيرة منها الافلام والبرامج التلفزيونية ومواقع التواصل الاجتماعي والعملاء وبعض منظمات المجتمع المدني المحلية ومنظمات الامم المتحدة والمعاهد الاجنبية والكثير من الجامعات.

فأذن: القوة الناعمة هي القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً من الارغام أو دفع الاموال ويقول المنظّر (جوزيف ناي): القوة الناعمة ليست محددة بالتأثير فقط إذ إن التأثير قد يرتكز على القوة الصلبة للتهديدات والرشاوي كما إن القوة الناعمة اكثر من مجرد الاقناع او القدرة على استمالة الناس بالحجة إن ذلك جزء منها بل هي أيضاً القدرة على الجذب، والجذب كثيراً ما يؤدي الى (الاذعان) ومن الناحية السلوكية فان تعريف القوى الناعمة بانها القوة الجذابة.

وفي أي بلد توجد ثلاثة موارد ترتكز عليها قوتها الناعمة هي:

ثقافته.. وقيمه السياسية عندما يطبقها بإخلاص في الداخل والخارج.. -وسياسته الخارجية عندما يراها الاخرون مشروعه وذات سلطة معنوية واخلاقية ولأجل الزيادة في التوضيح يمكن الرجوع الى كتاب (الحرب الناعمة / الاسس النظرية والتطبيقية) للمؤلف الدكتور علي محمد حسن الصادر عام ٢٠١٨.

إن الضرورة تقتضي على الواعين والمدركين والمثقفين وغيرهم أن يتدبروا أي خبر او صورة أو حديث لكي يعرفوا مدى تأثيره وكيفيات تهيئة الردود عليه من خلال ثقافتهم وما تمليه عليهم ضمائرهم.

وفي مسيرة حياة الائمة

الاطهار عليهم السلام نرى ان قواهم الناعمة التي حاربوا بها حرباً ناعمة كانت المبادئ الاسلامية وسيرة جدهم صلى الله عليه وآله الذي كانت اخلاقه (القرآن) وقد خاضوا حربهم النقية بكل جدارة ضد القوى الناعمة لاعداء الاسلام التي لم تكن سوى الاغراء بالمعاصي والكذب والتدليس والادعاء بالباطل.

«لقد عمدنا الى توضيح جهاد التبيين ومضامينه وكذلك الحرب الناعمة لكي تكون تلك المضامين حاضرة في اذهاننا ونحن نقرأ الكتاب الذي سنعرضه باختصار وليكون لنا المصدر العزيز في التأسي بجهاد الائمة الاطهار عليهم السلام».

عرض كتاب

٢٥٠ سنة من عمر الانسانية / تأليف السيد علي الخامنئي..

يقع الكتاب بـ٣٦٣ صفحة من القطع الكبير، وطبعته الاولى عام ٢٠١٣، كما صدر الكتاب بعنوان آخر هو - انسان بعمر ٢٥٠ سنة - يتكون الكتاب من مقدمة و(١٧) فصلاً

الفصل الاول / - النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله ويحتوي على عناوين فرعية هي:

بعثة النبي الخاتم وبداية الصحوة.

بناء النظام الاسلامي.

صيانة النظام الاسلامي.

تثبيت وترسيخ قواعد النظام الاسلامي.

الفصل الثاني: - الامامة - أربع مراحل في مسار الامامة -.

الفصل الثالث: - الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام - وفيه:

مرحلة السكون والتعاون.

مرحلة الخلافة.

السلطة والظلامة والانتصار في سيرة أمير المؤمنين عليه السلام.

الفصل الرابع: - السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام.

الفصل الخامس: - الامام الحسن عليه السلام وفيه

-اروع مرونة بطولية في التاريخ-

الفصل السادس: - الامام الحسين عليه السلام. وفيه

أهداف ثورة الامام الحسين عليه السلام.

الفصل السابع: - حركة زينب الكبرى عليها السلام وسفراء كربلاء. وفيه:

ملحمة زينب الكبرى.

حركة الامام السجاد عليه السلام اثناء الاسر.

الفصل الثامن: - الظروف الاجتماعية والسياسية بعد حادثة كربلاء.

الفصل التاسع: - الامام زين العابدين - عليه السلام - وفيه:

أهداف الامام عليه السلام.

كلمات الامام السجاد - عليه السلام -.

نموذج المواجهة السياسية.

التمهيد للدخول في المرحلة الثالثة من نشاط الائمة.

هـ. مواجهة الامام زين العابدين عليه السلام لعلماء البلاط.

الفصل العاشر: - الامام الباقر عليه السلام وفيه:

مرحلة الاعداد الفكري وتشكيل الخلايا.

استدعاء الامام الباقر عليه السلام الى الشام.

الفصل الحادي عشر: - نهاية حكم بني أمية وبداية إمامة الامام الصادق عليه السلام. وفيه:

- سيرة حياة الامام الصادق عليه السلام في هالة الابهام.

الفصل الثاني عشر: - الامام الصادق عليه السلام وفيه:

دعوة الامام الصادق الى الامامة.

بيان الاحكام الدينية على طريقة الفقه الشيعي.

وجود الخلايا السرية الايديولوجية - السياسية.

الفصل الثالث عشر: الخلايا السرية.

الفصل الرابع عشر: - الامام

الكاظم عليه السلام وفيه:

الجهود الدؤوبة واللجوء الى اسلوب التقيّة.

الفصل الخامس عشر: - الامام الرضا عليه السلام.

الفصل السادس عشر: - الامام الجواد والامام الهادي والامام العسكري عليهم السلام وفيه:

- جهود واسعة للخلايا في اطار برنامج طويل الامد.

الفصل السابع عشر: - غاية الانسان ذو الـ (٢٥٠) سنة من حركته.

ومنذ الفصل الأول - النبي الاكرم صلى الله عليه وآله... نتلمس في السنة النبوية الفعلية والقولية معالم التبيين: (إن أهم ما قام به رسول الله صلى الله عليه وآله هو الدعوة إلى الحق والحقيقة والجهاد من أجل هذه الدعوة).

إن النظام الذي أقامه النبي محمد صلى الله عليه وآله يشتمل على الكثير من الشواخص المتنوعة ومنها سبعة شواخص هي:

الشاخص الاول: - الايمان والمعنويات

الشاخص الثاني: القسط والعدل. -

الشاخص الثالث: العلم والمعرفة. -

الشاخص الرابع: الصفاء والإخاء -

الشاخص الخامس: - الصلاح الأخلاقي والسلوكي

الشاخص السادس: ــ الاقتدار والعزة

الشاخص السابع: -العمل والحركة الدؤوب والتقدم المستمر.

وفي موضوع الامامة يقول الامام السيد الخامنئي «إن الامامة تعني ذروة الادارة المنشودة للمجتمع في قبال غيرها من انواع وأقسام الادارات الاجتماعية النابعة من الضعف والشهوات والغرور والكبر والمطامع البشرية» و«... إن مفردة الامامة هي في الاصل بمعنى مطلق القيادة والرئاسة - تطلق في الثقافة الاسلامية

غالباً على مصداق خاص القيادة وهي القيادة في الشؤون الاجتماعية سواء في ذلك الفكرية أو السياسية وحيثما استعملت مفردة الامامة بجميع مشتقاتها في القرآن الكريم - من قبيل - الامام والائمة - كان المراد هو المعنى الخاص أي إمامة وقيادة الامة».

وفي فصل الامام علي أمير المؤمنين عليه السلام يقدم المؤلف الخامنئي أسمى صور التقديم الانساني وأعظم إمام بعد النبي محمد صلى الله عليه وآله، حيث يقول «إن شخصية أمير المؤمنين عليه السلام تعتبر درساً خالداً لجميع الاجيال الانسانية من جهات متعددة وشرائط مختلفة... هذا بُعد.. أما البُعد الاخر يتمثل بجهاده من أجل إقامة صرح الحق والعدالة».

لقد خاض الامام علي عليه السلام حروباً عديدة قبل وبعد خلافته وكان جهاده بالسيف يترافق معه جهاد التبيين، ويمكن الاطلاع على ذلك من خلال ما حواه كتاب (نهج البلاغة).

وفي الفصل الرابع حيث موضوع السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام يورد المؤلف السيد الخامنئي مامرت به السيدة الزهراء عليها السلام هذا الحديث (إمتحنك الله الذي خلقك قبل ان يخلقك فوجدك لما إمتحنك فيه صابرة» و«هذا الجانب من حياة السيدة فاطمة الزهراء هو الذي نحتاج اليه من أجل نجاتنا» ويقول النبي الاكرم صلى الله عليه وآله «يافاطمة، إعملي فاني لاأغني عنك من الله شيئاً»، «وهكذا كانت السيدة الزهراء عاملة عابدة مجاهدة طوال عمرها القصير ولم يكن يقعدها عن التقرب الى الله أنها ابنة رسوله».

ويقول السيد الخامنئي: «إن جهاد السيدة الزهراء عليها السلام في مختلف الميادين جهاد نموذجي، وهكذا كانت في الدفاع عن الاسلام وفي الدفاع عن الامامة والولاية وفي حماية النبي الاكرم والمحافظة على أكبر قائد في الاسلام».

وحول موضوع الامام الحسن عليه السلام في الكتاب يقول المؤلف مامعناه أن سلوك الامام الحسن المجتبى يُعد «أروع مرونة بطولية في التاريخ..» ويقول (إن الاسلام والتفكير الثوري الذي طوى مراحل حتى أصبح دولة عاد في عصر الامام الحسن ليلبس ثوب الثورة من جديد، وبطبيعة الحال أن العمل في هذه المرحلة الثورية كان اصعب بكثير من المرحلة الثورية التي خاضها النبي الاكرم صلى الله عليه وآله.

وفي موضوع الامام الحسين عليه السلام (الفصل السادس) يقول المؤلف (كانت ثورة الامام الحسين عليه السلام... تمزج بين جهاد العدو وجهاد النفس في أعلى مراتب الجهاد الذي تجلى في واقعة عاشوراء).

والحقيقة أن فصول الكتاب الاخرى والى الفصل السابع عشر كانت من العمق في تحليل حياة آل البيت عليهم السلام بحيث توصلت الى هدف غاية في السمو والتدبر، فقد أكد المؤلف تواصل واستمرار حياة الائمة وجهادهم بأنواع الجهاد حتى اصبحوا إنسانا واحداً عمره (٢٥٠) سنة وقد رأينا أن جهاد التبيين كان يتصدر النشاط من أجل اقامة مجتمع العدل، فهذه السيدة زينب الكبرى عليها السلام في ملحمتها العظيمة مع أخيها الحسين عليه السلام في عاشوراء ومافعلته في جهادها التبييني حيث يقول السيد الخامنئي «... **يمكن القول ان كربلاء لم تكن كربلاء لولا زينب الكبرى عليها السلام، ولو لا هذه السيدة العظيمة لما كانت عاشوراء هي عاشوراء التي تخلدت في ذاكرة التاريخ جيلا بعد جيل، إن شخصية زينب ابنة علي عليه السلام قد تجلت في هذه الحادثة من بدايتها الى نهايتها بحيث يشعر المرء أن حسيناً ثانياً قد انبعث الى الحياة من جديد متلبساً بشخصية أخته..**».

وهنا يتجلى بأروع صور التجلي جهاد التبيين الذي مارسته السيدة

زينب الكبرى عليها السلام.

وتحدث السيد الخامنئي عن الامام السجاد وإمكاناته الفذة وأساليبه ومنهجه في اعداد الارضية للقيام بحركة كبرى تؤدي الى إقامة الحكومة العلوية والدولة الاسلامية.. وقد تم ذلك الاعداد بجهاد (التبيين والتوضيح) ثم قال المؤلف عن الامام الباقر عليه السلام «إن سيرة الامام الباقر عليه السلام هي استمرار طبيعي ومنطقي لسيرة حياة الامام زين العابدين عليه السلام» ثم يقول عن الامام الصادق عليه السلام ما معناه أن الامام الصادق كان قد هيأ الارضية المناسبة للثورة على (بني امية)... ولكن الثورة لم تقم بسبب وثبة العباسيين على بني أمية وانتزاع الحكم منهم ثم يقول «تجلى الجانب الفقهي في حياة الامام جعفر الصادق عليه السلام بشكل أكثر تميزا وصراحة ووضوحاً مما نشاهده في حياة وسيرة سائر الائمة الاخرين لظروف تهيأت له ولم تتهيأ لهم ومن هنا عرف الفقه الشيعي بالفقه الجعفري.».

ومن الواضح أن أرضية الثورة التي عمل الامام الصادق عليه السلام على تهيئتها كان نسيجها جهاد التبيين والحرب الناعمة التي أجاد خوضها.

ويقول السيد المؤلف عن الامام الكاظم والرضا والجواد والهادي والعسكري عليهم السلام «إن هذه السلسلة عبارة عن خط الجهاد والمواجهة لجميع الائمة طوال قرنين ونصف من الزمن (٢٥٠) سنة والتي استمرت على أشكال مختلفة ومتنوعة وكان الهدف منها تبيين الاسلام الخالص وتفسير القرآن الكريم بشكل صحيح وتقديم شرح وتصوير واضح عن المعرفة الاسلامية وبيان مسألة الامامة والزعامة السياسية في المجتمع الاسلامي.

والسعي من أجل إقامة ذلك المجتمع وتحقيق هدف النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وجميع الانبياء عليهم السلام بإقامة القسط والعدل والقضاء على

جميع أنداد الله وشركائه من رقعة الحكم وإعطاء زمام إدارة شؤون الحياة لخلفاء الله وعباده الصالحين). وعن الامام المهدي عجل الله فرجه يقول السيد المؤلف (إن الوجود المقدس للإمام بقية الله عجل الله فرجه الشريف هو استمرار لحركة الانبياء والدعوات الالهية منذ فجر التاريخ الى يومنا هذا».

دعوة لجهاد التبيين

وللحرب الناعمة

دعوة لجهاد التبيين وللحرب الناعمة

يقيني أن الكثيرين ممن اطلعوا على مضامين جهاد التبيين و(مخازن عتاد) الحرب الناعمة التي هي (القوة الناعمة) سينتبهون الى أن أية كلمة حق نطقوا بها أو كتبوها أو شجعوا عليها أو أسهموا في تعليمها ستكون في ميزان حسناتهم حقا وليس ظنا او توقعاً، وسيخططون لمسيرة حياتية مقبلة أكثر جدية والتزاما في القول والعمل وسيعملون على زيادة ثروتهم المعلوماتية وتوسيع مداركهم وثقافتهم لاضفاء معان جديدة لحياتهم وجعل اوقاتهم الحرة اكثر فائدة وفي خدمة المبادئ الدينية والانسانية وفي المحبة والسلام والبناء.

فجهاد التبيين بالضرورة - اذا انخرطنا فيه - يستلزم مقدماً تنظيم اوقاتنا ومراقبة اقوالنا وكتاباتنا لكي نحرز حسنات هذا النوع من الجهاد ونكون من المحاربين العنيدين حين نشن هجماتنا الناعمة على اعداء الانسان والحق والحرية والعدالة والكرامة الانسانية، وهذا النوع من الحرب الذي تقوده جيوش من العلماء والمتخصصين والمنفذين يستلزم الاطلاع والاستيعاب للقوى الناعمة التي تتميز بها البنية الاجتماعية لكي ندافع عنها اولاً ولكي نهجم بها على القوى الناعمة المعادية التي تريد تدمير وازاحة أي قوى ناعمة لكي تحل محلها وبالتالي يسهل قياد أي شعب

من الشعوب حين تزاح قواه الناعمة وكما يحصل الان.

وتجدون الحرب الذكية = (الحرب العسكرية، والحرب الناعمة) قائمة الان، وبصورة واضحة في الحرب الروسية الاوكرانية، فثمة وسائل إعلام تعمل ليل نهار في ساحات الحرب الناعمة (روسيا تقول متهمة اوكرانيا بانها - النازيون الجدد، وعبيد حلف الناتو.. و.. و) واوكرانيا تركز على ان هذه الحرب هي (حرب بوتين) وهو (دكتاتور) و(معادٍ للسامية).

ومن المؤكد أن وكالات الانباء تبث يومياً من الاخبار أضعاف ما يطلق من الرصاص والقذائف، فالمهمة الاساسية للحرب الناعمة هي تغيير القناعات وصناعة العملاء وإصابة الشعب والجنود بالإحباط حتى إن شدة الحرب الناعمة تضطر رئيس الدولة الى (التبيين) عبر وسائل الاعلام لكي يفند خبراً مزيفاً ضده.

والمثل الاقرب للحرب الناعمة وجهاد التبيين أو الحرب الذكية ما يدور الان ومنذ اكثر من سبعين سنة بين الشعب الفلسطيني المجاهد وبين قوات الاحتلال الصهيوني يومياً وعلى مدار الساعة ثم يصل الى حد الذروة في (يوم القدس العالمي) الذي حدده السيد الخميني منذ عام ١٩٧٩ بان يكون في آخر جمعة من رمضان من كل سنة. وفي هذه الحرب الذكية يكون الخاسر فيها على الدوام هو (الكيان الصهيوني) لأنه لا يمتلك قوى ناعمة ضد الفلسطينيين أو ضد أي دولة أخرى وإنما يلجأ دائما الى القوة المسلحة وان الكيان الصهيوني برغم آلته الحربية الواسعة يعيش حالة خوف وتوجس دائم من الفلسطينيين مع قلة ما يمتلكونه من سلاح مقاوم كما ان الكيان الصهيوني يعتمد على دول الاستكبار العالمي لمساعدته على البقاء محتلاً للأرض الفلسطينية، وإن من اكثر ما يخشاه الكيان الصهيوني هو جهاد التبيين والقوى الناعمة

الفلسطينية والاسلامية لأنه لا يملك ما يمكنه من طرح قوة ناعمة صهيونية حتى إن قوات الاحتلال الصهيوني خططت كثيراً لكي تغتال الشيخ الفلسطيني المجاهد (أحمد ياسين) وهو الشيخ المعاق الجالس على كرسي مدولب، فهذا الرجل يمتلك القدرة على جهاد التبيين وخوض الحرب الناعمة وبلسانه وقلمه فقط.

والحرب الناعمة برعت فيها دول الاستكبار العالمي وأسست لها الجامعات والمعاهد لكي تكون أكثر تأثيراً على الشعوب المستضعفة والمحتلة والمهيمن عليها، والسبب في ذلك أنها هي الجهة المعتدية الطامعة وان ضرورة الهيمنة والاحتلال تقتضي تهديم القوة الناعمة لتلك الشعوب وتغيير قناعاتها وتنميطها بنمط مجتمعاتهم وعندئذ يأمنون من الثورة عليهم، وإن الاطلاع على تطبيقات الحرب الناعمة في العالم سنعرف الاعاجيب من الاعمال الشريرة التي ارتكبتها دول الاستعمار والاستكبار لكن الله سبحانه وتعالى مكّن الكثير من الاخيار لرد كيد الاعداء الى نحورهم وبأسلحتهم نفسها، وستتوسع انتصاراتنا كلما فهمنا وتمكنا من خوض جهاد التبيين لانه ضد التزييف وضد ماكنة الاعلام الشرير الغربي والامريكي الصهيوني.

ونجد أن جهاد التبيين والحرب الناعمة قائمة في جمهوريات: اليمن وسوريا ولبنان وايران وفينزويلا ومعظم دول شمال أفريقيا فضلاً عن الدول المتطلعة الى الحرية والاستقلال في العالم.

أما في العراق فإن الحرب الناعمة القائمة من الشراسة والعنف بحيث أدت الى تمزيق الشعب العراقي تمزيقاً أصاب الكثير من الفقراء بالإحباط واليأس وزاد من معاناة المستضعفين.

كما أدى الى افقار العراق واستشراء الفساد وكثرة المفسدين وذلك لان الاعداء لامسوّغ لوجودهم

في العراق وإن الطريقة الوحيدة التي تجعل الشعب عاجزاً عن معالجة جراحة هي خلق بيئة التناحر والتباغض والفساد والافساد بين الطوائف والقوميات والاديان والمجموعات الاجتماعية وبين المناطق على مستوى الارض العراقية.

ان الحرب الناعمة التي تشنها قوى الاستكبار العالمي على العراق سواء بصورة مباشرة او عن طريق العملاء إنما تحتاج الى مجاهدين حقيقيين وفي مقدمتهم (مجاهدو التبيين) فهؤلاء سيوحدون المجتمع ويعزلون المستكبرين العالميين كما يفرزون التابعين الاذلاء وبذلك فان كل مواطن وفي أي مكان يجيد القراءة والكتابة واستخدام الهاتف النقال مع قدرته الثقافية على التعبير عن أفكاره يمكنه من جهاد التبيين، ويفضح التزييف ويرد عليه رداً ذكياً منطقياً هادئاً وإنسانياً لأن بعض المزيفين مغرر بهم يفتقدون حس التبصر والتدبر فيقعون ضحية الخداع فلا نريد أن نفقد إنساناً بمعاداته.

إن مهمة تحرير العراق من التردي العام على مستويات الاصعدة كافة أنما هي من مهام المواطنين بل هو مهمة أي انسان في العالم، كما إن مهمة نصرة الحق في العالم من مهام العراقيين أيضاً، وكما رأينا في مسيرة الائمة الاطهار عليهم السلام طيلة ٢٥٠ سنة، وكيف جاهدوا جهاد التبيين وخاضوا الحرب الناعمة بكل همة اسلامية إنسانية بالغة السمو والتجرد.

نسأل الله العلي العظيم أن يوفق الجميع لما فيه الخير والصلاح.

ونرجو أن نكون قد وفقنا في عرض رؤيتنا حول جهاد التبيين ومضامين الحرب الناعمة المستخلصة من مجمل انواع جهاد الائمة الأطهار عليهم السلام.

د. الشيخ حيدر خمّاس الساعدي
باحث إسلامي/ حوزة النّجف الأشرف

إصلاح الشعائر الحسينية في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام

مقدّمة[1]

يلاحظ المتتبع لروايات أهل البيت عليهم السلام في باب الشعائر الحسينية تركيزاً على الطريقة الصحيحة لأدائها، ولعلّ قلّة التوجّه إليها أو التركيز عليها بسبب تناثرها في أبواب مختلفة من الكتب الروائية؛ ولذا نحاول ـ في هذا المقال ـ تبويب تلك الروايات وتنظيمها تحت عناوين مناسبة؛ لنخرج برؤية إصلاحية تغطّي جوانب مهمّة من جوانب الشعائر الحسينية.

وقد اعتمدنا على الروايات الواردة في المصادر المعتبرة، والتي لا تخالف الثوابت.

ويبقى هذا المقال محاولة في هذا الاتجاه عسى أن تسدّ نقصاً أو تفتح أُفقاً يكمّله أهل الخبرة والاختصاص.

معنى إصلاح الشعائر الحسينية

الصلاح في اللغة: ضدّ الفساد، وهكذا يكون الإصلاح نقيض الإفساد[٢]. ولا يبتعد الإصلاح في معناه الاصطلاحي عن المعنى اللُّغوي، بل يكاد يكون عينه، فالإصلاح هو: «**التغيّر إلى استقامة الحال على ما تدعو إليه الحكمة**»[٣]. وربما استُخدم في معانٍ أُخرى وميادين مختلفة لا يهمّنا الحديث عنها هنا.

ويتّخذ مفهوم الإصلاح في الشعائر الحسينية معنيين:

المعنى الأوّل: تصحيح الفهم أو التطبيق الخاطئ للممارسات التي تُؤدّى على أرض الواقع، وإرجاعها إلى الوجه الصحيح.

المعنى الثاني: توجيه مسار ومجرى ممارسة الشعائر إلى الطريقة التي يحبّها أهل البيت عليهم السلام، ويحبّون أن يمارسها المعزّون. وهذا المعنى لا يفترض وجود خطأ في فهم أو في ممارسة للشعائر على أرض الواقع، بل يفترض وجود ممارسة صحيحة بحدّ ذاتها، لكن المعصوم يُريد تحسين تلك الممارسة؛ لتكون ذات طريقة وأُسلوب أفضل.

ونقصد بإصلاح الشعائر الحسينية المعنى الجامع لهذين الأمرين، فيكون معنى إصلاح الشعائر الحسينية حينئذٍ هو: بيان الأسلوب الصحيح أو الأمثل لأداء مراسم عاشوراء، ورسم مسارها في خطّها الممتدّ إلى يوم الدين.

والمستند في الإصلاح هذا هو النصوص الشرعية التي بيّنت أُسس الشعائر ومسارها.

وليس المقصود بإصلاح الشعائر إصلاح ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال أو التلاعب فيه، وإنّما إصلاح ما يصدر على أرض الواقع من ممارسات يمارسها المعزّون.

والإصلاح هنا قد لا يستلزم وجود خطأ فعلي في الممارسة الشعائرية تستهدف الرواية تصحيحه، وإنّما يعمُّ ذلك وما يفترض وجوده، ويكون تصحيح

الممارسات الخارجة عن أُطر الشعائر من خلال تحكيم النصوص الشرعية.

أرضية الإصلاح وحاجة الشعائر إليه

الشعائر الحسينية في جانب منها هي مظاهر تفاعل عاطفي مع الإمام الحسين عليه السلام، وما حلّ في كربلاء من مصائب، والتعبير عن هذا التفاعل قد ينتج من تفكير خاصّ، أو ربما يلتقي مع ما يعيشه الإنسان من عادات وثقافات في التفاعل مع فقْد عزيز، أو فقْد شخصية ذات منزلة اجتماعية أو دينية، وقد يكون هذا الحزن من جهة أُخرى نتيجة الشعور بالندم إزاء عدم نصرة أو تقصير. وبذلك يمكن تلخيص أرضية الإصلاح في الشعائر الحسينية في نقطتين:

الأُولى: الفهم الخاطئ للشعائر: كثيراً ما تأتي الحركات الإصلاحية لتصحيح فهم واقع معيّن وتصحيح مساره، ومن هذا الباب نجد مجموعة من الروايات تركّز على الفهم الصحيح للشعائر من خلال بيان عظمة الإمام الحسين عليه السلام، وعِظم المصاب الذي جرى عليه، وبيان أنّ الشعائر ليست ممارسات تؤدّى في وقت خاصّ وينتهي أمرها. وبعبارة أُخرى: تؤكّد الروايات الخلفية الفكرية للشعائر الحسينية ممّا يُعطيها بعداً أيديولوجيا، وبعكس ذلك فإنّ الفهم الخاطئ للشعائر ينتج مشاكل خطيرة على مستوى الممارسة.

الثانية: التطبيق الخاطئ: عادةً ما ينطلق التطبيق الخاطئ للشعائر من الفهم الخاطئ لها، ويكون هذا التطبيق إمّا بفهم التقاطي للشعائر وترجيح جانب على آخر، أو بفرض ثقافة فرد أو مجتمع على الشعائر؛ وبالتالي تُمارس شعائر مشوّهة على أرض الواقع، وكلّ ذلك يفرض إصلاحاً.

مراحل الشعائر الحسينية في ضوء الروايات

نستعرض في هذا المبحث مراحل ممارسة الشعائر الحسينية من خلال ما

تُفيده الروايات؛ لنرى الثوابت التي تمّت ممارستها، والتجربة التي عاشتها في ضوء منبعها الأساس، ومن خلال ذلك نستطيع استخلاص نقاط تخدم مسيرة إصلاح الشعائر.

المرحلة الأُولى: الإعداد المشترك للشعائر الحسينية

ونقصد بالاشتراك هنا: اشتراك الأديان السماوية في تطبيق الشعائر الحسينية على يد الأنبياء عليهم السلام، ويكفي في صدق عنوان ممارسة الشعائر الحسينية تطبيق بعض مصاديقها، كالبكاء والجزع وزيارة أرض كربلاء.

ويمكن أن نضع في هذه المرحلة روايات بكاء الأنبياء عليهم السلام، حيث وردت عدّة روايات مفادها بكاء الأنبياء عليهم السلام على مصيبة سيّد الشهداء عليه السلام، ومفردات أُخرى تشكّل مصاديق للشعائر الحسينية، من تلك الروايات ما رواه الصدوق، عن الفضل ابن شاذان، قال: «**سمعت الرضا عليه السلام، يقول: لمّا أمر الله إبراهيم عليه السلام أن يذبح مكان ابنه إسماعيل الكبش الذي أنزله عليه، تمنّى إبراهيم أن يكون قد ذبح ابنه إسماعيل بيده، وأنّه لم يؤمر بذبح الكبش مكانه؛ ليرجع إلى قلبه ما يرجع إلى قلب الوالد الذي يذبح أعزّ ولده عليه بيده، فيستحقّ بذلك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب، فأوحى الله** ﷻ **إليه: يا إبراهيم، مَن أحبُّ خلقي إليك؟ فقال: يا ربّ، ما خلقت خلقاً هو أحبّ إليّ من حبيبك محمد** صلى الله عليه وآله. **فأوحى الله إليه: أفهو أحبّ إليك أو نفسك؟ قال: بل هو أحبّ إليّ من نفسي. قال: فولده أحبّ إليك أم ولدك؟ قال: بل ولده. قال: فذبْحُ ولده ظلماً على أيدي أعدائه، أوجع لقلبك، أو ذبْحُ ولدك بيدك في طاعتي؟ قال: يا ربّ، بل ذبحه على أيدي أعدائه أوجع لقلبي. قال: يا إبراهيم، فإنّ طائفة تزعم أنّها من أُمّة محمد** صلى الله عليه وآله **ستقتل الحسين ابنه من بعده ظلماً وعدواناً كما يُذبح الكبش، ويستوجبون بذلك سخطي. فجزع إبراهيم** عليه السلام **لذلك وتوجّع قلبه وأقبل يبكي، فأوحى الله إليه: يا إبراهيم، قد**

فديت جزعك على ابنك إسماعيل لو ذبحته بيدك بجزعك على الحسين وقتله، وأوجبت لك أرفع درجات أهل الثواب على المصائب...»[٤].

قال المجلسي الأوّل عن سند الرواية: «**ورُوي في الحسن كالصحيح**»[٥]، ثمّ ذكر الرواية.

وهناك روايات أُخرى في هذا المضمار مفادها بكاء نبي الله آدم عليه السلام على مصيبة أبي عبد الله الحسين عليه السلام[٦]، وكذلك عيسى عليه السلام[٧].

والنتيجة المستفادة من هذه الروايات، أنّ بذور العزاء الحسيني تشترك فيها الأديان، ولا بدّ أن توجّه مسيرة العزاء في هذا الاتجاه؛ لتحافظ على عالميّتها، فالأُمم لو عرفت تفاعل أنبيائها مع مصيبة الإمام الحسين عليه السلام لتحرّكت مسيرة الشعائر الحسينية في أفق أوسع، ولا بدّ لنا من الاستفادة من مناهج البحث المقارن والبحث في وثائق ومدوّنات الشرائع الأُخرى؛ للوقوف على مؤيّدات وشواهد في هذا المجال.

المرحلة الثانية: تبيين أرضية العزاء والتنظير لها في المجتمع الإسلامي

حرص النبي الأكرم صلى الله عليه وآله على توعية الناس بالقضية الحسينية وربطهم بها من جوانب مختلفة:

١ــ الجانب العاطفي: يلاحظ المتتبع لسيرة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بكاءه في حالات ومناسبات مختلفة على مصيبة سيّد الشهداء عليه السلام، ويبدو من سيرته أنّه صلى الله عليه وآله يحرص على جعل ذلك حالة عامّة. ومن تلك الروايات ما رواه الحاكم النيسابوري بسنده إلى عبد الله بن مسعود، قال: «**أتينا رسول الله صلى الله عليه وآله، فخرج إلينا مستبشراً يُعرف السرور في وجهه، فما سألناه عن شيء إلّا أخبرنا به، ولا سكتنا إلّا ابتدأنا، حتّى مرّت فتية من بني هاشم فيهم الحسن والحسين، فلمّا رآهم التزمهم وانهملت عيناه. فقلنا: يا رسول الله، ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه. فقال: إنّا أهل**

بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإنّه سيلقى أهل بيتي من بعدي تطريداً أو تشريداً في البلاد...»[٨].

نقل الإربلي في كشف الغمّة: «**بينا رسول الله ﷺ في بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ رقدة القائلة إذ استيقظ وهو يبكي. فقالت عائشة: ما يُبكيك يا رسول، بأبي أنت وأُمّي؟ قال: يُبكيني أنّ جبرئيل أتاني، فقال: ابسط يدك يا محمد، فإنّ هذه تربة من تلال يُقتل بها ابنك الحسين، يقتله رجل من أُمّتك. قالت عائشة: ورسول الله ﷺ، يُحدّثني وأنّه ليبكي، ويقول: مَن ذا من أُمّتي، مَن ذا من أُمّتي، مَن ذا من أُمّتي، مَن يقتل حسيناً من بعدي؟**»[٩].

إلى غير ذلك من روايات هذا الباب.

٢ـ الجانب الفكري والعقدي: إنّ الحسين عليه السلام إمام تمتدّ إليه الخلافة الشرعية، وقد صرّح النبي ﷺ في مناسبات متعددة بهذا المعنى، منها: قول النبي ﷺ: «**حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله مَن أحبّ حسيناً**»[١٠]. وقد سار على هذا المنهج أمير المؤمنين علي عليه السلام، واستمرّ ذلك حتّى شهادة الإمام الحسين عليه السلام.

وبضم البُعد العاطفي إلى البُعد العقدي، تكون الشعائر الحسينية تفاعلاً فكرياً عاطفياً، يمتزجان في الساحة الحسينية، وينتج عنهما تفاعل المسلم مع مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، ورفض الظلم، وجميع ما جرى على الإمام من مأساة.

المرحلة الثالثة: ترسيخ مصيبة الإمام الحسين عليه السلام وربطها بالعقيدة الحقّة

دخلت الشعائر في هذه المرحلة حالة ترسيخ وتثبيت مصيبة الإمام الحسين عليه السلام، والاستدلال بها على أحقيّة المذهب، وفضح المخطّطات الأُموية، وهذا ما يظهر جليّاً من سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام، فقد سعى

لنقل عِظم المصاب الذي جرى على الإمام وأهل بيته بأساليب متعددة، كما أنّ مواقف العقيلة زينب عليها السلام وكلماتها هي دلائل صدق، ومواقف عدل، فضحت من خلالها السلطة الأُموية، وشدّت القلوب إلى خطّ سيّد الشهداء عليه السلام.

المرحلة الرابعة: مرحلة تشييد أركان الشعائر و توسعتها

حينما يطالع المرء روايات الإمام الباقر والصادق عليهما السلام يجد أنّ الشعائر الحسينية شهدت مرحلة جديدة من حيث المظاهر وتوسُّع الممارسة، ففي هذه المرحلة بُيّنت العطلة في يوم عاشوراء[11]، وظهرت أشكال الممارسة الشعائرية على مستويات مختلفة. وتمتدّ هذه المرحلة حتّى الغيبة الكبرى.

أهداف الشعائر الحسينية في ضوء الروايات

إنّ إصلاح الشعائر الحسينية ينطلق من نقطة غاية في الأهمّية، وهي توجيه الممارسة الشعائرية وربطها بالأهداف الحسينية دائماً، ومن خلال استقراء مواقف أهل البيت عليهم السلام، يظهر أنّ الشعائر الحسينية تستوفي هدفها فيما إذا ارتبطت بأهداف النهضة الحسينية، وأصبحت تتحرّك بين خطوط تلك الأهداف السامية، التي خطّها سيّد الشهداء عليه السلام بدمه المقدّس، وعلى ذلك فإنّ الحفاظ على أهداف النهضة الحسينية في ممارسة الشعائر هو إصلاح للشعائر الحسينية، ويمكن تلخيص أهداف الشعائر الحسينية في الروايات فيما يلي:

الهدف الأوّل: التواصل المستمر مع الحقّ ونصرته

تؤكّد روايات أهل البيت عليهم السلام استمرارية ذكر الإمام الحسين عليه السلام، وجعل ذلك ثقافة رئيسة في الحياة، وكأنّ شهادة الإمام الحسين عليه السلام قوّة محرّكة مستمرة، تدفع نحو الحقّ وتنصره باستمرار، فيكون استذكار شهادة الإمام

الحسين عليه السلام تجديداً للعهد واستمراراً على الحقّ، وهذا ما يظهر من لسان بعض أدلّة الشعائر ونصوصها:

١ـ قال أبو عبد الله عليه السلام: «**رحم الله شيعتنا، شيعتنا والله المؤمنون، فقد والله شركونا في المصيبة بطول الحزن والحسرة**»[١٢].

حيث بيّن الإمام أنّ طول الحزن والحسرة جانب من جوانب علّة الترّحم؛ ممّا يعني مطلوبية ذلك وكونه من الشعائر، ومعلوم أنّ الحسرة والحزن بحدّ ذاته ليس موضوعاً للترّحم، بل الحزن والحسرة المتعلّقة بمصيبة الإمام الحسين عليه السلام، وهي بدورها تستبطن محبّةً وتبرّياً من أعداء الحسين عليه السلام، وبالنهاية نصرة الحقّ.

٢ـ عن الإمام الرضا عليه السلام في حديث طويل نأخذ منه موضع الحاجة: «**... يابن شبيب، إنّ سرّك أن يكون لك من الثواب مثل ما لمَن استُشهد مع الحسين عليه السلام، فقل متى ما ذكرته: يا ليتني كنتُ معهم فأفوز فوزاً عظيماً، يابن شبيب، إنّ سرّك أن تكون معنا في الدرجات العُلى من الجنان، فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا...**»[١٣].

وفي هذه الرواية من الصراحة ما يُغني عن البيان، حيث يقول الإمام عليه السلام: «**يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً**». ويقول عليه السلام: «**فاحزن لحزننا، وافرح لفرحنا، وعليك بولايتنا**»، وهو معنى التواصل المستمر مع الحقّ ونصرته. ولا يكون العزاء الحسيني مرضياً في رؤية أهل البيت عليهم السلام إذا لم يكن هدفه الحقّ والاستمرارية مع الحقّ، بل إنّ سرّ استمرارية العزاء الهادف هو ارتباطه بالحقّ، وأيّ ممارسة لا تترشّح من أحقيّة العزاء وصدقه لا يُكتب لها التوفيق والاستمرار، ويحذفها الحقّ الذي قام من أجله الإمام الحسين عليه السلام، وما أكثر الممارسات الخاطئة باسم الإمام الحسين عليه السلام التي حذفها التاريخ !

الهدف الثاني: إحياء معالم الدين

يمثّل إحياء الدين وقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أحد أهم أهداف النهضة الحسينية، وهكذا شعائر الإمام الحسين عليه السلام، التي هي امتداد للمبادئ الحسينية وإحياء لمعالم الدين، فيكون صوت الشعائر الحسينية صوت إعلاء الدين والسير على نهجه، ومن ذلك:

١ــ قول الإمام الصادق عليه السلام في دعائه لزوّار قبر أبي عبد الله عليه السلام: «**يا مَن خصّنا بالكرامة، وخصّنا بالوصية، ووعدنا الشفاعة، وأعطانا علم ما مضى وما بقي، وجعل أفئدة من الناس تهوي إلينا، أن اغفر لي ولإخواني، ولزوّار قبر أبي الحسين عليه السلام الذين أنفقوا أموالهم، وأشخصوا أبدانهم؛ رغبةً في برّنا، ورجاءً لما عندك في صلتنا، وسروراً أدخلوه على نبيّك (صلواتك عليه وآله)، وإجابةً منهم لأمرنا، وغيظاً أدخلوه على عدوّنا، أرادوا بذلك رضاك، فكافهم عنّا بالرضوان، واكلأهم بالليل والنهار، واخلُف على أهاليهم وأولادهم الذين خلفوا بأحسن الخلف، واصحبهم واكفهم شرّ كلّ جبار عنيد، وكلّ ضعيف من خلقك أو شديد، وشرّ شياطين الإنس والجن، وأعطهم أفضل ما أمّلوا منك في غربتهم عن أوطانهم، وما آثرونا به على أبنائهم وأهاليهم وقراباتهم، اللهمّ، إنّ أعداءنا عابوا عليهم خروجهم، فلم ينههم ذلك عن الشخوص إلينا، وخلافاً منهم على مَن خالفنا، فارحم تلك الوجوه التي غيّرتها الشمس، وارحم تلك الخدود التي تقلّبت على حفرة أبي عبد الله عليه السلام، وارحم تلك الأعين التي جرت دموعها رحمة لنا، وارحم تلك القلوب التي جزعت واحترقت لنا، وارحم الصرخة التي كانت لنا**»[١٤].

ومن الواضح أنّ تلك الصرخة وممارسة العزاء الهادف التي تكون لأهل البيت عليهم السلام، هي لإعلاء كلمة الحقّ وإحياء معالم الدين، وهي اتصال

مباشر بين الله تعالى والعبد؛ كما يدلّ عليه هذا النصّ بوضوح؛ وبذلك يتحقّق إحياء معالم الدين وإحياء المنهج الإسلامي الأصيل.

٢ـ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال لعبد الله بن حمّاد: «... **بلغني أنّ قوماً يأتونه من نواحي الكوفة، وناساً من غيرهم، ونساء يندبنه، وذلك في النصف من شعبان، فمن بين قارئ يقرأ، وقاص يقصّ، ونادب يندب، وقائل يقول المراثي. فقلت له: نعم، جُعلت فداك، قد شهدتُ بعض ما تصف. فقال: الحمد لله الذي جعل في الناس مَن يَفدْ إلينا ويمدحنا ويرثي لنا، وجعل عدوّنا مَن يطعن عليهم من قرابتنا وغيرهم يهدرونهم ويقبّحون ما يصنعون**»[١٥].

الهدف الثالث: الرقي بالثقافة ووعي الأُمور

لا يشكّ أحد في الأثر الذي تركته الشعائر الحسينية في تثقيف المجتمع والرقي به، فالمنبر الحسيني ومجالس العزاء والفعّاليات التي تُمارس باسم النهضة الحسينية، والتي تحمل فكر أهل البيت عليهم السلام، أدّت دوراً قلّ نظيره في حفظ الهوية الشيعية ونشر البصيرة في قلوب المؤمنين، ولعلّ هذا الهدف من الأسرار التي جعلها الله في شهادة سيّد الشهداء، ولخّصها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بقوله: «**يا حسين، اُخرج فإنّ الله قد شاء أن يراك قتيلاً**»[١٦].

ويؤكّد نصّ زيارة الإمام الحسين عليه السلام في يوم الأربعين أنّ هدف النهضة الحسينية إنقاذ الأُمّة من الجهل، وإيضاح الطريق لها، «**فأعذر في الدعاء، وبذل مهجته فيك؛ ليستنقذ عبادك من الضلالة والجهالة، والعمى، والشكّ والارتياب، إلى باب الهدى من الردى**»[١٧]. ويردّد الزائر هذا النصّ في كلّ سنة مرّة؛ كي يعلّمه دوماً أنّ الشعائر وذكر الإمام الحسين عليه السلام لا يجتمعان مع الجهل أبداً، بل إنّ

الشعائر الحقّة لا تتلاءم مع الخرافة أبداً، ولا مع منافيات الشريعة، أيّاً كانت مسمّياتها.

الهدف الرابع: التذكير المستمرّ بمظلومية الإمام الحسين عليه السلام

تجتمع كلّ الشعائر الحسينية ـ رغم تعدّد أشكالها ـ في محتوى ومضمون واحد، وهو التذكير بمظلومية سيّد الشهداء عليه السلام، وما حلّ به وبأهل بيته الطاهرين؛ لذا نجد أدلّة الشعائر تؤكّد حالة الحزن الفردية والجماعية. وهذا الهدف بالذات يحتلّ مركزاً مهماً من بين تلك الأهداف، وحولها تدور أكثر أدلّة الشعائر الحسينية.

روي عن أبي عبد الله عليه السلام قوله: «**إنّ البكاء والجزع مكروه للعبد في كلّ ما جزع، ما خلا البكاء والجزع على الحسين بن علي عليهما السلام، فإنّه فيه مأجور**»(١٨).

ويكفي أن يعيش الإنسان تلك الحسرة والحزن على أبي عبد الله عليه السلام إن لم يمكنه حضور المشهد الحسيني، فعن مسمع بن عبد الملك كردين البصري، قال: «**قال لي أبو عبد الله عليه السلام: يا مسمع، أنت من أهل العراق، أَما تأتي قبر الحسين عليه السلام؟ قلت: لا، أنا رجل مشهور عند أهل البصرة، وعندنا مَن يتّبع هوى هذا الخليفة، وعدوّنا كثير من أهل القبائل من النصّاب وغيرهم، ولست آمنهم أن يرفعوا حالي عند ولد سليمان فيمثّلون بي. قال لي: أفما تذكر ما صُنع به؟ قلت: نعم. قال: فتجزع. قلت: إي والله، وأستعبر لذلك حتّى يرى أهلي أثر ذلك عليّ، فأمتنع من الطعام حتّى يستبين ذلك في وجهي. قال: رحم الله دمعتك، أَما إنّك من الذين يُعدّون من أهل الجزع لنا، والذين يفرحون لفرحنا، ويحزنون لحزننا، ويخافون لخوفنا، ويأمنون إذا آمنا، أَما إنّك سترى عند موتك حضور آبائي لك، ووصيّتهم ملك الموت بك، وما يلقونك به من البشارة أفضل، وملك الموت أرقّ**

عليك، وأشدّ رحمة لك من الأُمّ الشفيقة على ولدها»[١٩].

إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة التي تدلّ على كون الحزن أو الجزع أو البكاء أو التباكي، جزءاً لا ينفكّ عن هدف ممارسات العزاء الحسيني، وهذا يعني أنّ الشعائر لا تؤتي ثمارها ما لم تنتج هذه النتيجة.

الخطوط العامّة للشعائر الحسينية في ضوء الروايات

ليست الشعائر الحسينية ممارسات عشوائية لا تحدّها حدود أو قيود، بل لها خطوط عامّة يجب أن تُمارس في ضوئها، ولا يمكن ـ في ضوء الروايات ـ عدّ كلّ ممارسة باسم الإمام الحسين عليه السلام من الشعائر الحسينية، ولا بدّ أن تنضوي ممارسة الشعائر تحت هذه الخطوط؛ كي تكون كما أرادها أهل البيت عليهم السلام، وبالتالي إصلاح ممارسة الشعائر الحسينية. ونستطيع تلخيص الخطوط العامّة للشعائر الحسينية فيما يلي:

١ـ الحفاظ على الخطّ الإلهي

الشعائر الحسينية تُعبّر عن علاقة إلهية وثيقة، وهي بعبارة أُخرى: نوع عبادة يجب الحرص على تأديتها بالشكل الصحيح وبنيّة خالصة، فلا بدّ أن تنطلق من الدافع الإلهي، وتبتعد عن جميع المسمّيات والنوايا التي لا تمتّ إلى الله تعالى بصلة، وهذا ما يُفهم من لسان روايات الشعائر وأدلّتها، فتلك الصرخات لا بدّ أن تخلص لأهل البيت عليهم السلام حتّى تكون مرحومة، والشعائر الحسينية لا بدّ أن يصدق عليها إحياء أمر أهل البيت عليهم السلام حتّى يشملها حديث «**رحم الله مَن أحيا أمرنا**»[٢٠]. فصحيح أنّ الشعائر الحسينية تهتمّ بإظهار الجزع ونشر مظاهر العزاء، لكنّ ذلك يجب أن يكون حزناً على مصاب الحسين للحسين عليه السلام.

وهكذا يجب أن تحافظ الشعائر على كونها طريقاً إلى الله؛ لأنّ ثورة الإمام الحسين عليه السلام دعوة إلى الله،

فـلا بـدّ أن لا يبتعـد إحيـاء ذكـر الحسين عليه السلام عن هـذا الطريـق، كيـف لا وقد قال أبو عبد الله عليه السلام لأخيه أبـي الفضل العبّاس: «**ارجـع إلـيهم، فـإن اسـتطعت أن تـؤخّرهم إلى غـدوة، وتدفعهم عنّا العشـية، لعلّنـا نُصـلّي لربّنا الليلة وندعوه ونستغفره، فهـو يعلم أنّي قد كنتُ أُحبّ الصلاة لـه، وتـلاوة كتابـه، وكثـرة الـدعاء والاستغفار**»[٢١].

٢ـ الحفاظ على الخلق الإسلامي

يـؤمن الإماميـة بـأنّ الخُلـق الإسـلامي الرفيـع تجسّـد فـي أهـل البيـت عليهم السلام، وأنّهـم الممثّلـون الحقيقيـون للإسـلام، الـذين حرصـوا على الحفـاظ عليـه رغـم كـلّ الظـروف والتحدّيات، ومما لا شكّ ولا ريب فيـه أنّ الحكمة والموعظة الحسنة من أبـرز خُلقيات الإسلام، وقد صرّح بها القرآن الكـريم: ﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ**﴾[٢٢]، والشعائر مصداق للدعوة إلى الله؛ لأنّها مصداق من مصـاديق: ﴿**ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّـهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[٢٣]، كما أنّ الإخلال فـي ممارسـة الشـعائر الحسـينية، واتّبـاع الهـوى والخرافـات، يكـون شـيناً علـى أهل البيـت عليهم السلام ومُبعـداً عـنهم، فعـن الإمـام الصـادق عليه السلام: «**حبّبونـا إلى النـاس ولا تبغّضـونا إلـيهم**»[٢٤]، وعنـه عليه السلام أيضـاً: «**معـاشر الشـيعة، كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا لنا شـيناً، قولـوا للنـاس حُسـناً، واحفظـوا ألسـنتكم وكفّوهـا عـن الفضـول وقبيح القول**»[٢٥].

فإنّ الالتزام بالضوابط الشرعية في العزاء الحسيني يعنـي كمـال ممارسـته وأوج إصلاحه، كما أنّ الالتزام بالخُلق الحسـيني فـي ممارسـة الشـعائر يعنـي استيفاء أهدافها.

٣ـ الحفـاظ علـى إظهـار المظلومية

تُشـكّل العَبـرة وإبـراز المظلوميـة

التي حلّت بالإمام الحسين عليه السلام نقطة مركزية في الشعائر الحسينية، ولا يمكن أن يحلّ محلّها شيء أبداً؛ لأنّ أساس الشعائر هو التذكير بالمصيبة التي جرت والمظلومية التي حلّت، فلا معنى لاستبدال البكاء أو إنشاد مجالس الإمام الحسين عليه السلام بأُمور أُخرى حتّى لو كانت عبادية، بل نجد إصرار أهل البيت عليهم السلام الواضح على إحياء الشعائر الحسينية، والتشجيع على إقامتها وبيان ثوابها وعظمتها، فعن أبي هارون المكفوف، قال: «**دخلت على أبي عبد الله عليه السلام، فقال لي:... يا أبا هارون، مَن أنشد في الحسين عليه السلام فأبكى عشرة فله الجنّة. ثمّ جعل ينقص واحداً واحداً حتّى بلغ الواحد، فقال: مَن أنشد في الحسين فأبكى واحداً فله الجنّة. ثمّ قال: مَن ذكره فبكى فله الجنّة**»[٢٦].

وينقل المسعودي أنّ «**الكميت أتى أبا جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي (رضي الله عنهم)، فأذن له ليلاً فأنشده، فلمّا بلغ من الميمية قوله:**

وقتيلٍ بالطّفّ غُودِر منهم
بين غوغاء أُمّة وطغام

بكى أبو جعفر، ثمّ قال: يا كميت، لو كان عندنا مال لأعطيناك، ولكن لك ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لحسّان بن ثابت: لا زلت مؤيّداً بروح القدس ما ذَبَبْتَ عنّا أهلَ البيت»[٢٧].

كما نجد تأكيد إظهار مظلومية الإمام الحسين عليه السلام في سيرة أهل البيت عليهم السلام، والتذكير بها دائماً، فعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**بكى علي بن الحسين على أبيه حسين بن علي عليهما السلام عشرين سنة أو أربعين سنة**[٢٨]، **وما وُضع بين يديه طعام إلّا بكى على الحسين، حتّى قال له مولى له: جُعلت فداك يابن رسول الله، إنّي أخاف عليك أن تكون من الهالكين. قال: إنّما أشكو بثّي وحزني إلى الله، وأعلم من الله ما لا تعلمون، إنّي لم**

أذكر مصرع بني فاطمة إلّا خنقتني لذلك عبرة»[٢٩].

٤ـ الحفاظ على الجانب الفكري

تمثّل الشعائر الحسينية في الوجه الآخر منها ارتباطاً فكرياً بالإمام الحسين عليه السلام وخطّه، والبراءة من خطّ أعدائه، والراضين بفعلهم، والمدافعين عنهم، وهذا يعني أنّ المعزّي والممارس للشعائر الحسينية لا بدّ أن يسير في الخط الفكري والعقدي الذي خطّه سيّد الأحرار عليه السلام، وبالنهاية البراءة ممَّن ظلم آل البيت عليهم السلام. وهذا المعنى نجده في زيارات الإمام الحسين عليه السلام وروايات الشعائر.

عن معاوية بن عمار، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «**ما أقول إذا أتيت قبر الحسين عليه السلام؟ قال: قل: السلام عليك يا أبا عبد الله، صلّى الله عليك يا أبا عبد الله، رحمك الله يا أبا عبد الله، لعن الله مَن قتلك، ولعن الله مَن شرك في دمك، ولعن الله مَن بلغه ذلك فرضي به، أنا إلى الله من ذلك بريء**»[٣٠].

ونجد التذكير بالجانب الفكري للشعائر بوضوح في النصّ الآتي:

«**اللهمّ، إنّ كثيراً من الأُمّة ناصبت المستحفظين من الأئمّة، وكفرت بالكلمة، وعكفت على القادة الظلمة، وهجرت الكتاب والسنّة، وعدلت عن الحبلين الذين أمرتَ بطاعتهما والتمسّك بهما، فأماتت الحقّ وجارت عن القصد، ومالأت الأحزاب، وحرّفت الكتاب، وكفرت بالحقّ لمّا جاءها، وتمسّكت بالباطل لمّا اعترضها، وضيّعت حقّك، وأضلّت خلقك، وقتلت أولاد نبيّك وخيرة عبادك، وحملة علمك وورثة حكمتك ووحيك**»[٣١].

٥ـ الابتعاد عن الأهواء والعادات الخاطئة

ومن الأُمور التي تتعرّض لها شعائر

الإمام الحسين عليه السلام إدخال بعض العادات الخاطئة والأهواء على أنّها جزء من الشعائر الحسينية، فإنّ إحياء ذكر الإمام لا بدّ أن يكون كالمرآة الصافية التي تعكس قيم وتعاليم عاشوراء، ولا بدّ أن تبقى روح العزاء وحقيقته سارية في جميع مفاصل مراسمه، والابتعاد عن كلّ ما يخلّ به، فعن مصقلة الطحّان، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**لمّا قُتل الحسين عليه السلام أقامت امرأته الكلبية عليه مأتماً، وبكت وبكين النساء والخدم حتّى جفّت دموعهن وذهبت، فبينا هي كذلك إذ رأت جارية من جواريها تبكي ودموعها تسيل، فدعتها، فقالت لها: مالك أنت من بيننا تسيل دموعك؟ قالت: إنّي لمّا أصابني الجهد شربت شربة سويق. قال: فأمرت بالطعام والأسوقة، فأكلت وشربت وأطعمت وسقت، وقالت: إنّما نُريد بذلك أن نتقوّى على البكاء على الحسين عليه السلام. قال: وأُهدي إلى الكلبية جؤناً[٣٢] لتستعين بها على مأتم الحسين عليه السلام، فلمّا رأت الجؤن، قالت: ما هذه؟ قالوا: هدية أهداها فلان لتستعيني على مأتم الحسين، فقالت: لسنا في عرس، فما نصنع بها؟ ثمّ أمرت بهن فأخرجن من الدار...**»[٣٣].

الأبعاد الإصلاحية للشعائر في الروايات

نبيّن تحت هذا العنوان نماذجَ من الإصلاحات التي بيّنها أهل البيت عليهم السلام بشكل خاصّ، والتي تدخل تحت عنوان **إصلاح** الشعائر الحسينية، ومن تلك النماذج ما يلي:

١ـ بيان خطأ فصل الشعائر عن أهدافها

إنّ الشعائر الحسينية ليست ممارسات خالية من الأهداف والمعاني، وكما عرفنا فإنّ أحد خطوط الشعائر هو الجانب الفكري والعقدي، وعلى هذا الأساس فإنّ ممارسة الشعائر دون الأخذ بنظر الاعتبار أهدافها وما توحي إليه من معنى، يعني فصلها عن أهدافها، فالبكاء على الإمام

الحسين عليه السلام لا ينسجم مع مخالفته.

قال الإربلي في كشف الغمّة: «**ثمّ إنّ القوم استاقوا الحرم كما تُساق الأُسارى، حتّى أتوا الكوفة، فخرج الناس، فجعلوا ينظرون ويبكون وينوحون، وكان علي بن الحسين زين العابدين قد نهكه المرض، فجعل يقول: أَلا إنّ هؤلاء يبكون وينوحون من أجلنا؟ ! فمَن قتلنا؟ !**»[٣٤].

وهذا معناه أنّ البكاء أو ممارسة أيّ شعيرة أُخرى لا بدّ أن يكون مع مولاة أهل البيت عليهم السلام واتّباع منهجهم، ولا يكفي مجرّد التعاطف مع مصيبة الإمام.

٢ـ بيان الوجه الأفضل لأداء الشعائر

نلاحظ في جملة من الروايات توضيح أهل البيت عليهم السلام للوجه الأنسب للشعائر الحسينية والأُسلوب الأكمل، فعن أبي هارون المكفوف، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «**يا أبا هارون، أنشدني في الحسين** عليه السلام. **قال: فأنشدته فبكى، فقال: أنشدني كما تنشدون ـ يعني بالرقّة ـ قال: فأنشدته:**

أُمرر على جدثِ الحسين
فقل لأعظمه الزكية

قال: فبكى، ثمّ قال: زدني. قال: فأنشدته القصيدة الأُخرى. قال: فبكى، وسمعت البكاء من خلف الستر...»[٣٥].

وفي الرواية أمران:

الأول: إرشاد الإمام إلى الإنشاد كما ينشدون بالرقّة.

الثاني: وجود حاجز بين النساء رغم أنّهن من بيت الإمام والقارئ مكفوف.

وتظهر النقطة الثانية بوضوح من خلال هذه الرواية: روى أبو الفرج عن علي بن إسماعيل التميمي عن أبيه، قال: «**كنتُ عند أبي عبد الله جعفر بن محمد إذ استأذن آذنه للسيّد**[٣٦]**، فأمره بإيصاله، وأقعد حرمه خلف ستر، ودخل فسلّم وجلس، فاستنشده فأنشده...**»[٣٧].

وهذا يعني تأكيد أهل البيت عليهم السلام عدم الاختلاط بين الجنسين، حتّى لو كان في حضور المعصوم، فكيف في غيابه؟ !

وتبيّن الرواية التالية الطريقة التي يُذكر بها الإمام الحسين عليه السلام، فقد أجاب الإمام الصادق عليه السلام عن سؤال الراوي: «**جُعلت فداك، إنّي كثيراً ما أذكر الحسين عليه السلام، فأيّ شيء أقول؟ فقال: قل: صلّى الله عليك يا أبا عبد الله، تعيد ذلك ثلاثاً، فإنّ السلام يصل إليه من قريب ومن بعيد**»[٣٨].

كما أنّ المعصوم يُساهم بنفسه في إعداد الطعام في المأتم الحسيني من أجل تقوية المعزّين على الاستمرار بالعزاء، فعن عمر بن علي بن الحسين، قال: «**لمّا قُتل الحسين ابن علي عليه السلام، لبسن نساء بني هاشم السواد والمسوح، وكنَّ لا يشتكين من حرّ ولا برد، وكان علي بن الحسين عليه السلام يعمل لهنّ الطعام للمأتم**»[٣٩].

٣. توظيف الطاقات والاستفادة منها في العزاء الحسيني

يلاحظ المتتبّع لروايات أهل البيت عليهم السلام أنّهم وظّفوا بعض الطاقات ذات العلاقة بإحياء الشعائر الحسينية في ذكر الإمام الحسين عليه السلام وإحياء أمره، وهذا يعني أنّ عزاء الإمام وإحياء أمره ليس مهنة مَن لا مهنة له، بل فضيلة وخدمة لا تقلّ عن الخدمات الأُخرى للإسلام الحنيف، بل لها الصدارة لو أُدّيت بشكلها الصحيح، ونلاحظ ذلك في الروايات التالية:

قال بشير بن حذلم: «**فلمّا قربنا منها [أي: المدينة] نزل علي بن الحسين عليه السلام، فحطّ رحله، وضرب فسطاطه وأنزل نساءه، وقال: يا بشير، رحم الله أباك لقد كان شاعراً، فهل تقدر على شيء منه؟ فقال: بلى يابن رسول الله إنّي لشاعر. قال عليه السلام: فادخل المدينة وانعَ أبا عبد الله...**»[٤٠].

وتؤكّد الرواية التي بين أيدينا عظمة خدمة الحسين عليه السلام وإحياء ذكره، فعن

زيد الشحّام، قال: «**إنّ أبا عبد الله عليه السلام قال لجعفر بن عفان الطائي: بلغني أنّك تقول الشعر في الحسين عليه السلام وتجيد. قال: نعم، فأنشده، فبكى ومَن حوله حتّى سالت الدموع على وجهه ولحيته، ثمّ قال: يا جعفر، والله، لقد شهدك ملائكة الله المقرّبون ههنا يسمعون قولك في الحسين عليه السلام، ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله لك يا جعفر في ساعتك الجنّة بأسرها وغفر الله لك، فقال: أَلا أزيدك؟ قال: نعم يا سيّدي. قال: ما من أحد قال في الحسين عليه السلام شعراً فبكى وأبكى به إلّا أوجب الله له الجنّة وغفر له**»[٤١].

٤ـ استمرار ذكر الإمام الحسين عليه السلام

يظهر من لسان مجموعة من الروايات تأكيد استمرارية ذكر مصيبة الحسين عليه السلام والمواظبة عليها، فعن داوود الرقي، قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذا استسقى الماء، فلمّا شربه رأيته قد استعبر واغرورقت عيناه بدموعه، ثمّ قال لي: يا داوود، لعن الله قاتل الحسين عليه السلام، وما من عبد شرب الماء فذكر الحسين عليه السلام وأهل بيته، ولعن قاتله، إلّا كتب الله ﷻ له مائة ألف حسنة، وحطَّ عنه مائة ألف سيّئة، ورفع له مائة ألف درجة، وكأنّما أعتق مائة ألف نسمة، وحشره الله ﷻ يوم القيامة ثلج الفؤاد»[٤٢].

ونظير هذه الرواية كثير، وقد تقدّم بعضها.

النتيجة

ممّا تقدّم يظهر أنّ إصلاح الشعائر الحسينية في ضوء روايات أهل البيت عليهم السلام ينطلق من معرفة تاريخ الشعائر، وممارسة مراسم العزاء في ضوء أهداف الشعائر الحسينية، وأنّ الشعائر الحسينية لها خطوط عامّة لا يمكن لمَن يُحيي ذكرى الحسين عليه السلام أن يتجاوزها. وفي النهاية تمّ بيان نماذج من أوجه إصلاح الشعائر التي مارسها أهل البيت عليهم السلام.

الهوامش

[١] دكتوراه في الاستشراق والدراسات القرآنية، من العراق.
[٢] أُنظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب: ج٢، ص٥١٦. الرازي، محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح: ص١٩٤.
[٣] عبد المنعم، محمود عبد الرحمن، معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية: ج١، ص٢٠٤.
[٤] الصدوق، محمد بن علي، الخصال: ص٨٥.
[٥] المجلسي، محمد تقي، روضة المتّقين: ج٢١، ص٢٣٣.
[٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٢٤٥.
[٧] الصدوق، محمد بن علي، إكمال الدين: ص٥٣٢.
[٨] الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرك: ج٤، ص٤٦٤.
[٩] الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة: ج٢، ص٢٦٩.
[١٠] ابن حنبل، أحمد، مسند أحمد: ج٤، ص١٧٢.
[١١] أُنظر: ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٣٢٦.
[١٢] الصدوق، محمد بن علي، ثواب الأعمال: ص٢١٧.
[١٣] الصدوق، محمد بن علي، الأمالي: ص١٩٢.
[١٤] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٤، ص٥٨٣.
[١٥] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٥٣٩.
[١٦] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٦٤.
[١٧] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٤٠١.
[١٨] المصدر السابق: ص٢٠٢.
[١٩] المصدر السابق: ص٢٠٤.
[٢٠] النوري، حسين، مستدرك الوسائل: ج٨، ص٣٢٤.
[٢١] الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الأُمم والملوك: ج٤، ص٣١٧.
[٢٢] النحل: آية ١٢٥.
[٢٣] الحج: آية ٣٢.
[٢٤] الصدوق، محمد بن علي، صفات الشيعة: ص٢٨.
[٢٥] الطوسي، محمد بن الحسن، الأمالي: ص٤٤٠.
[٢٦] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢١٠ـ٢١١.
[٢٧] المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب: ج٣، ص٢٢٩.
[٢٨] يظهر أن الترديد من الراوي.
[٢٩] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢١٣.
[٣٠] المصدر السابق: ص٣٧٤

[٣١] الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد: ص٧٨٤.
[٣٢] «الجؤن: كصرد، جمع الجوني، وهو ضرب من القطا». المازندراني، محمد صالح، شرح أُصول الكـافي: ج٣، ص٢٣٥.
[٣٣] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج١، ص٤٦٦.
[٣٤] الإربلي، علي بن أبي الفتح، كشف الغمّة: ج٢، ص٢٦٣.
[٣٥] ابن قولويه، جعفر بن محمد، كامل الزيارات: ص٢٠٨.
[٣٦] المقصود السيّد الحميري.
[٣٧] الإصفهاني، أبو الفرج، كتاب الأغاني: ص١٧٥.
[٣٨] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٤، ص٥٧٥.
[٣٩] البرقي، محمد بن أحمد، المحاسن: ج٢، ص٤٢٠.
[٤٠] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤٥، ص١٤٧.
[٤١] العاملي، محمد بن الحسن، وسائل الشيعة: ج١٤، ص٥٩٣ـ٥٩٤.
[٤٢] الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٦، ص٣٩١.

إعداد: د. حيدر عبد الجليل الحربية
أستاذ وأكاديمي/ العراق

أثر الشعائر الحسينية في نشر فكر أهل البيت عليهم السلام في القارة الإفريقية ـ نماذج مختارة ـ

الشعائر الحسينية في زنجبار[1]

تتجاوز نسبة المسلمين الشيعة بين المسلمين اليوم في زنجبار (التابعة إلى تنزانيا) الـ (١٠%)، وهم يتواجدون في: دار السلام، ولينـدي، وتانغا، وسنفيدي، وتابورا، ومتوارا، ومبيا، وعروشا، وكيبوندا، وزنجبار. وللشيعة العديد من المساجد والحسينيات الخاصّة بهم، منها: (مسجد كيزمكازي) أو (شيرازي)، الذي يشكّل مصدرَ فخر للسكان المحليين؛ إذ إنّ له تأريخاً مدهشاً له صلة ببنائه، ولا يزال يُمثّل التواجد الإسلامي الذي جاء به الإيرانيون حاضراً من خلال هذا المسجد القديم، الذي يحمل هذا الاسم، ويُعرف هذا المسجد الجامع محلياً أيضاً باسم (مسجد شيرازي ديمباني)، وهو يقع بالقرب من قرية صيادين التي تقع إلى الجنوب من ستونتاون، ويزيد عمر المسجد على مائتي عام، ومع هذا ما زالت بنيته صلبة قويّة، وتزين جدران المسجد الأمامية ومحرابه عبارات من القرآن الكريم، نُحتت بالأحرف الصوفية.

وأيضاً هنالك (مسجد الخوجة) في دار السلام، و(مسجد أهل البيت عليهم السلام)، و(مسجد أنصار الإمامية) و(مسجد جمعية الخوجة الشيعة) في عروشا، و(مسجد كيوندا) في زنجبار.

أمّا الحسينيات، ففي زنجبار حسينيات بعدد المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام، منها: (حسينية المأتم)، التي يرجع تأريخ بنائها إلى ما قبل (١٤٠) عاماً، وفي العاصمة هناك (الحسينية الحيدرية)، و(حسينية أبي الفضل العباس عليه السلام).

إضافةً إلى ذلك وجود المراكز والمدارس الدينية، ومن أهمّ مراكز الشيعة في البلاد: (مركز دار الهدى)، وهو مركز ومدرسة لها فروع عديدة، و(مركز بلال مسلم)، و(مركز ياز)، و(مركز السيّد الخوئي قدس سره)، و(مدرسة أهل البيت عليهم السلام)، و(مدرسة الزهراء سلام الله عليها) في العاصمة، بالإضافة إلى مراكز أُخرى موزعة في البلاد، مثل (حوزات أهل البيت عليهم السلام)، و(حوزة ولي العصر عليه السلام) في عروشا، ويانكان، ودار السلام، ومناطق أُخرى.

ويبلغ عدد الطلبة في هذه المدارس والحوزات (٤٠٠) طالب، يدرسون العلوم الدينية، هذا بالإضافة إلى العشرات من التانزانيين الذين يدرسون خارج البلاد، خصوصاً في إيران وسوريا.

وقد ظلّ المسلمون الشيعة في زنجبار محافظين على انتمائهم المذهبي والتزاماتهم الدينيّة، وحاولوا ويحاولون ـ باستماتة ـ حفظَ الهويّة الإسلامية الشيعية، ويدلّل حضورهم الكبير كلّ سنة في مراسم الأربعين، ومساهمتهم في إحيائها على هذه الحقيقة، ولذلك قد نرى أحدهم ينفق مبالغ كبيرة من أجل الحضور في زنجبار خلال هذه المراسم، قادماً من أقصى بلاد الغرب، لإقامة عزاء الإمام الحسين عليه السلام، وكأنّه يبحث عن ضالّته

المنشودة في تلك الديار.

وتتلخّص نشاطات المسلمين الشيعة هناك بإقامة المراسم الدينية الإسلامية، مع نشر وطباعة الكتب باللغات السواحلية والإنجليزية، وإصدار المجلّات مثل (لايت) باللغة الإنجليزية، و(صوت بلال) باللغة السواحلية، وكذلك إقامة المؤتمرات للتعريف بالشيعة ومذهب أهل البيت عليهم السلام، لإبراز التراث الإسلامي الإمامي في تنزانيا ومدينة عروشا (إحدى معاقل الشيعة الكبيرة في إفريقيا)، ومن أبرز هذه النشاطات:

١ـ حلقات تحفيظ القرآن الكريم.

٢ـ الدراسة الحوزوية.

٣ـ حلقات دراسية في نهج البلاغة.

٤ـ الاحتفالات بمواليد وشهادات المعصومين عليهم السلام.

٥ـ إطلاق برامج وحملات توعوية.

والجدير بالذكر أنّ حركة اعتناق المذهب الشيعي أصبحت ظاهرة واضحة في أوساط التانزانيين، فقد دخل الكثير من المثقّفين في هذا المذهب، وألّفوا كتباً كثيرة، مثل (تاريخ الإسلام)، و(زواج المتعة صحيح)، و(إرشاد المتعلّمين)، و(طاولة الاكتشاف)، و(هل تعرف الصلاة)، و(حقوق البشر في الإسلام)، و(الخمس والزكاة)، و(مسائل الإسلام)، و(ما هو الإسلام)، و(الشيعة)، وهناك كتب أُخرى عديدة تصدّى لتأليفها المستبصرون في هذا البلد.

وما يُفرح القلب أنّ هناك حركة دعوة جديدة حالية على يد شيخ مستبصر اسمه (أحمد الخطيب)، ولديه اتصالات مع مَن يحبّ أن يساهم في نشر فكر أهل البيت عليهم السلام، واستطاع أن يُدخل في المذهب الكثيرين.

وقد ظهر في زنجبار شخصيات شيعية برزت بنشاطها المتميز، ومنهم:

١ـ الحاج رحمة الله تيجاني، وله دار ضيافة ينزل فيها غرباء الشيعة.

٢ـ ناصر نور محمد، وله مستوصف لمعاينة المرضى مجاناً.

٣ـ داتو حماني، وقد أنشأ دار توليد مجانية.

٤ـ مرتضى سليمان، شخصية مرموقة من أصل تانزاني.

٥ـ الشيخ أبو موسى حسن بن محمد، وهو مَن شيّد مسجد كيزمكازي أو شيرازي.

٦ـ محمد رضا بيار علي، وهو مدير جماعة الخوجة الاثني عشرية في عروشا.

٧ـ أحمد بن النعمان، وهو أوّل مبعوث للولايات المتحدة، ويقام في منزله مأتم أبي عبد الله الحسين عليه السلام، وما زال مستمراً[٢].

٨ـ علي باتو، وهو شخص كان قد أدّى خدمات كبيرة لدولة زنجبار خلال الفترة بين (١٩١٤م و١٩١٨م)، فقد قال له السلطان ذات يوم: «**اختر أنت بنفسك الجائزة التي تريدها مقابل خدماتك**»، فأجاب على الفور: «**كلّ ما أُريده أن يكون اليوم الحادي والعشرون من الشهر التاسع القمري، واليوم العاشر من الشهر الأوّل القمري، يومي عطلة رسمية**»، فوافق السلطان على ذلك، ومنذ ذلك اليوم تعطّل الدوائر الرسمية كلّ سنة، في ذكرى مقتل الشهيد علي، ومقتل الشهيد الحسين، أقول: وهذان اليومان هما: الحادي والعشرون من شهر رمضان، ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام، والعاشر من شهر محرم ذكرى استشهاد الإمام الحسين عليه السلام، من كلّ سنة[٣].

وفي النهاية فقد كان الخوارج الأباضية في زنجبار، يقيمون مراسم الحزن يوم عاشوراء، لا مراسم الأعياد، وكانوا يحبّون الحسين عليه السلام لقيامه بالسيف، ومقاومته للظلم[٤].

أتباع أهل البيت في نيجيريا وإحياء الشعائر الحسينية ـ

يعتبر فضيلة الشيخ إبراهيم زكزكي[٥]، من الشخصيات الكبيرة والمعروفة في أوساط أتباع أهل البيت عليهم السلام في الغرب الإفريقي عموماً، ونيجيريا على نحو الخصوص، وله من الأتباع الملايين[٦].

ويُذكر أنّ الشيخ إبراهيم زكزكي يقوم بفعالياته التبليغية في حسينية بقية الله عجل الله تعالى فرجه الشريف في نيجريا، ولديه العديد من المدارس الابتدائية والثانوية، إضافةً إلى إقامته للعديد من الدورات التعريفية بمذهب أهل البيت عليهم السلام للمستبصرين الجدد، وهذه الدورات مستمرّة على طول العام، وهناك دورة مختصّة بالنساء تحمل اسم الزهراء سلام الله عليها، تُقام سنوياً خلال احتفال أتباع أهل البيت عليهم السلام في نيجيريا بمناسبة ولادة الصديقة الطاهرة، وخلال احتفاليات عاشوراء يقيم الشيخ إبراهيم زكزكي العديد من المجالس الحسينية للتعريف بواقعة كربلاء، ويُبث العديد من هذه المحاضرات عبر وسائل الإعلام.

وفي زيارة الأربعين ينظِّم أتباع أهل البيت عليهم السلام في المحافظات المحيطة بمدينة (زاريا) ـ مقرّ إقامة الشيخ ـ مسيرة تُحاكي مسيرة الأربعين المتوجّهة إلى كربلاء[٧].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ جذور الحركة الإسلامية في نيجيريا تعود في نشأتها إلى دور الشيخ إبراهيم يعقوب الزكزكي، الذي كان معروفاً بين أصدقائه وزملائه بنشاطاته الدينية والاجتماعية المختلفة منذ بدايات شبابه المبكِّرة، وكانت همومه دائماً تنصبّ على قضايا الأُمّة الإسلامية، ولذلك حاول مع بعض أصدقائه بمدينة زاريا (*Zariya*) تأسيس رابطة سمّوها (رابطة شباب المسلمين)، وذلك في عام (١٩٧٢م)، من القرن الماضي، حينما كان عمره المبارك (١٩) عاماً،

ومن خلال هذه الرابطة بدأ الشيخ الزكزكي نشاطاته الحركية، وقد بيّن أهدافه ومقاصده التي يرمي إليها، ومن ثمّ دعا النّاس إلى ذلك.

هذا كلّه قبل رحلته لطلب العلم إلى خارج مدينة زاريا، وبعد عودة الشيخ الزكزكي من رحلاته العلمية المباركة، والتحاقه بـ (جامعة أحمدو بلّو) ما بين (١٩٧٦م ـ ١٩٧٩م)، زاد نشاطه في تلك الفترة، ما أهله ذلك إلى تقلّد عدة مناصب حسّاسة في اتحاد الطلاب المسلمين (*M. S. S*) للجامعة، وقد استفاد من هذه الفرصة خير استفادة، حيث أظهر لزملائه وأصدقائه داخل الجامعة أهدافه التي تجول في خاطره، من ضرورة الإصلاح في البلاد، ونصرة المستضعفين، والوحدة بين الأُمّة الإسلامية، والعودة إلى النهج الإسلامي الأصيل.

وبحلول أواخر السبعينيّات بدأت تنشأ تدريجياً حركة شبابية دينية ذات طابع إسلامي بحت في نيجيريا داخل الجامعات الوطنية والمؤسّسات التعليمية عبر اتحاد الطلاب المسلمين (*M. S. S*)، وكانت تلك الحركة تحت قيادة الشيخ الزكزكي نفسه، الأمر الذي أدهش الدّول الغربية التي لم تعد تتوقع مثل هكذا أمر وسط طلاب الجامعات النيجيرية، الذين لم يكن يُنتظر منهم حتى أداء الصلوات الخمس المفروضة في وقتها آنذاك.

ولقد تطوّرت تلك الحركة الشبابية إلى أن أصبحت الحركة الإسلامية الحالية في نيجيريا، كما تسمّى بالحركة الشيعية (*Yan shi a*)، أو الإخوة المسلمون (*Yan Uwa Musulmi*)، أو الإخوة (*Yan Uwa*) أيضاً.

وكانت التيّارات الفكرية السائدة آنذاك في أوساط الساسة النيجيريين وأساتذة الجامعات هي الشيوعية (*Communist*)، والرأسمالية (*Capitalism*) وغيرهما، فلا خبر عن الإسلام وكلّ ما يتعلّق به من الأنظمة

السياسية والاقتصادية إطلاقاً؛ بل كان يُنظر إلى صاحب الدّين داخل الجامعات على أنّه إنسانٌ متخلّف ورجعي، كما أصبحت الجامعة مركزاً لفساد الأخلاق والتربية.

أمّا المجتمع النيجيري، فقد انقسم إلى متمسّك بدينه ومتهاون به، بينما انشغل العلماء باختلافات فقهية ثانوية على رأسها، مسألة القبض والسدل في الصلاة.

وفي مطلع الثمانينيّات من القرن الماضي زاد الطّينَ بلةً ظهورُ التّيار الوهّابي السلفي، الذي جاء بفكرة التكفير، وهكذا انشغلت الأُمّة بهذه الأُمور التّافهة، وتركوا القضايا الأساسية التي ينبغي صبّ اهتمامهم عليها.

أمّا الحكّام فقد انشغلوا بنهب ثروات وخيرات البلاد، وتخزينها في بنوك الدول الغربية، كما أصبح دَيدَنهم الأساسي هو التنافس على السلطة، وكثرة الانقلابات العسكرية، بينما وقف الشعب متفرّجاً ينظر إلى أمواله تُنهب، وحرّياته تُسلب، والعلماء مُنشغلون بالاختلافات التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

في هذه الظروف العويصة انتقلت الحركة الإسلامية من إطار الجامعات إلى أوساط الشعب النيجيري تدريجياً (في مطلع الثمانينيّات)، حيث نالت قبولاً واسعاً ـ رغم المؤامرات والتهديدات والقمع ـ بين الفئات الشبابية التي سَئمت من ظلم الظالمين، وظلّت منتظرة سنين عدداً مَن يأخذ بيدها، ويخلّصها من ذلك الاضطهاد الذي لا يترك الأخضر واليابس.

لقد استفاد السيد الزكزكي من المؤتمر الذي يقيمه اتحاد طلّاب الجامعات النيجيرية، الذي يُسمى بـ (I.V.C) أيّام التعطيلات، ويشارك فيه عددٌ كبير من طلاب الجامعات والمعاهد والمدارس الثانوية من جميع أقاصي البلاد، وفي إحدى هذه المؤتمرات، الذي أُقيم بمدينة كتسينا

(*Katsina*) سنة (١٩٧٨م)، في مدرسة (A. T. S)، بعد أن ألقى الشيخ محاضرته، دعا الحاضرين إلى جلسة مفتوحة داخل مسجد المدرسة، فحضر أربعون طالباً تقريباً، (منهم الشخصية البارزة في الحركة الشيخ محمد محمود تور)، وبعد سماعهم كلمات الشيخ عاهدوا الله عهد الرجال على القيام بالحركة الإسلامية، مع نشر أفكارها الإصلاحية في مناطقهم، ثمّ خُتمت الجلسة بالتوقيع ولصق الصور، مع كتابة العناوين على ورقة مخصّصة للجلسة.

وفي جمادى الأُولى لسنة (١٤٠٠هـ) الموافقة لسنة (١٩٨٠م)، أُقيم مثل ذلك المؤتمر أيضاً بمدينة فُنتُوا (*Funtuwa*)، وفي هذه المرّة بعد إلقاء الشيخ محاضرته دعا الحاضرين إلى محاضرة أُخرى مساءً، وأعلن فيها براءته من ظلم النظام الحاكم، وضرورة العودة إلى عدل الإسلام، وقد حظيت تلك المحاضرة بقبول واسع في أوساط الطلاب والشّعب، فسُجّلت ونُسخت، ثمّ طُبعت عدّة طبعات، ولا تزال أشرطتها إلى يومنا هذا مرغوبة عند الناس، كما أنّ الشيخ في نفس السنة ألقى محاضرة أُخرى على نفس المنوال بمدينة زاريا، وهكذا ذاع خبر الشيخ ودعوته في جميع أنحاء نيجيريا وخارجها، وتوافد النّاس إليها أفواجاً، من هنا رأى زعيم الحركة ضرورة وجود مراكز خاصّة للحركة، ومؤسّسات تعليمية وتنموية، إضافةً إلى دروس الأخلاق التي تتصدّى لإعداد الحركيين، وتجعلهم قادرين على تحمّل عناء السفر للتبليغ الذي كان طريقه مملوءاً بالأشواك والمخاطر، لقد أصبحت تلك الدروس الأخلاقية ـ وغيرها من النشاطات التربوية والنفسية ـ منبراً ومدرسة لتكوين شخصية أفراد الحركة؛ لأنّ المسافة طويلة، وتحتاج إلى زادٍ وفير.

أمّا طبيعة النّظام الإداري في

الحركة، فمن المعلوم أنّ نيجيريا مقسّمة جغرافياً إلى (٣٦) ولاية و(٧٧٤) محافظة، ولم تكن فعّالية الحركة مقتصرة على داخل إطارنيجيريا فقط، بل شملت الدول الأُخرى، وخاصة المجاورة لها أيضاً، فمن الطبيعي أن تكون للحركة إدارة حكيمة مرنة وشفّافة؛ كي تتسنّى لها إدارة أُمورها بسهولة قدر الإمكان، وهي كما يلي: يترأس الحركة فضيلة الشيخ إبراهيم يعقوب الزكزكي نفسه، يُعاونه عدد من كبار قيادات الحركة، الذين اتّخذوا مدينة زاريا (*Zariya*)، مقرّاً لقيادة الحركة، كما يشرف كلّ واحد من تلك القيادات على عدد من مندوبي الحركة في الأقاليم والولايات، سواء كانت داخل خريطة نيجيريا الجغرافية أم خارجها، لا فرق ما دام يقطنها أتباع الحركة، الذين امتازوا من غيرهم بتسليمهم الكامل للقيادة الموحّدة والنّظام الموحّد والفكر الموحّد، علاوةً على اعتقادهم بولاية الفقيه.

أمّا على مستوى الولايات والأقاليم، فهي مقسّمة إلى دوائر وحلقات ثمّ المجالس، وعلى رأس كلٍّ منها مندوب أو وكيل، يكون مسؤولاً أمام المجلس القيادي الولائي، كما أنّ الولاية ـ ككل ـ تخضع لقيادة وكيل واحد، بصفته المشرف المباشر على جميع مندوبي الحركة ووكلائها في المدن والمحافظات والمحلّات والأحياء السكنية والقرى داخل الحدود الجغرافية للولاية.

ومن جانب آخر، هناك إدارات أُخرى للمؤسّسات والهيئات والمنظّمات التي أُسّست بأوامر السيد، أو باقتراح بعض أفراد الحركة، للأهداف الإنسانية، أو المذهبية، أو الخدمات الاجتماعية والإعلامية وغيرها، فمديرو هذه المؤسّسات يخضعون لإشراف تلك القيادات الحركية حسب التسلسل المذكور أعلاه.

ونظراً إلى أنّه من الأُمور الفطرية التي فطر الله النّاس عليها وجود هدف في كلّ ما يسعون إلى تحقيقه في حياتهم

اليوميـة، فالحركـة الإسـلامية أيضـاً لهـا أهداف وراء ذلـك التقسـيم الإداري، ومـن أهداف التقسيم الإداري في الحركـة علـى سبيل المثال لا الحصر:

١ــ أن يتسـنّى للإخـوة المـؤمنين في الحركة معرفة بعضهم بعضاً.

٢ــ إيجــاد روح الإخــاء والأُلفــة والمحبّة بين الإخوة.

٣ـ تفويت الفرصة على الجواسيس الـذين يعملـون لـيلاً ونهـاراً مـن أجـل التخريب، وإيجاد الفتن داخـل صـفوف الإخوة.

٤ ــ تسـهيل نقـل أوامـر القيـادة العامّـة للحركـة إلـى الإخـوة، خاصـةً الأوامر التي تحتاج إلى السـرّية التامّة في النقل.

٥ـ التأكيد علـى شـمولية الحركـة، وكونهـا لا تخـتصّ بقـومٍ دون قـوم، أو قبيلةٍ دون أُخرى.

٦ ـ السعي إلى إعداد المبلّغين في كلّ قرية أو مدينة أوحـيٍّ سـكني مهمـا صـغر؛ كـي يسـهل تعـرّف النـاس علـى أخـلاق وعلـوم أهـل البيـت عليهم السلام عـن قرب، كمـا أنّ انـدماج وتعـايش الإخـوة حسب حدود الشـرع مع المجتمـع يُعـدّ أكبر عامل لنجاح الحركة.

٧ـ إرشـاد المجتمـع عمليـاً إلـى أنّ الإسـلام ديـنٌ حيـويٌّ فيـه كـلّ شـيء، وصالحٌ للتطبيق في كلّ زمانٍ ومكان.

٨ـ تسهيل عملية إدارة الحركة، مع التأكيـد علـى شـفّافيتها ومرونتهـا، ثـمّ جعلهـا فـي متنـاول الجميـع، الصـغير مــنهم والكبيــر، والمــرأة والرجــل، والحضري والبدوي.

٩ـ مراعاة الظـروف والخصوصـيات لكــلّ منطقــة أو قــوم؛ لأنّ العــادات والتقاليد والثقافـات والأعـراف تختلـف، فمـا يصـلح تطبيقـه فـي منطقـة قـد لا يصلح في أُخرى.

أمّــا أهــمّ مــا أسّســته الحركــة الإسـلامية، فقـد تمثّـل بعـدّة مؤسّسـات تعليمية وإنسانية داخـل وخـارج نيجيريـا، التــي تعمــل فــي مجــالات وصُــعد ومسـتويات مختلفـة، ولكـلّ إدارة أجهـزة

مستقلّة، نكتفي هنا بذكر ثلاثة من المؤسّسات الإنسانية بإيجاز، على سبيل المثال:

١ـ مؤسسة الشّهداء: تأسّست هذه المؤسّسة المباركة في يوم السبت السابع عشر من شهر رجب، سنة (١٤١١هـ)، الموافق ليوم (١٩٩٢/١/١م) بمدينة زاريا (*Zariya*)، بأمرٍ من قائد الحركة الإسلامية الشيخ إبراهيم يعقوب الزكزكي، كما أنّه ترأس مراسم التأسيس بنفسه، إضافةً إلى مشاركة جمع غفير من قيادات الحركة، فهي مؤسّسة إنسانية تقوم برعاية أبناء الشهداء وكفالة الأيتام والأرامل وغيرها.

٢ـ مؤسّسة الزهراء الخيرية: تأسّست هذه المؤسّسة المباركة حديثاً بأمر من السيد الزكزكي سنة (٢٠١٠م)، الموافق لـ (١٤٣٢هـ)، لتكون عمدة لبقية مؤسّسات الحركة، وخاصّةً التي تعمل في مجال الخدمات الاجتماعية والإنسانية، كحفر الآبار، وشقّ قنوات المياه، وتخليص المسجونين، ومساعدة الأرامل والمحتاجين وغيرها.

٣ـ مؤسّسة الصحّة (Isma): تمّ تشكيل هذه المؤسّسة الميمونة (بعد أن مضت عدّة سنوات على تأسيس اللجنة الطبّية للحركة) في يوم (١٤٢٢/٦/٦هـ)، الموافق لـ (٢٠٠١/٨/٢٣م)، وهي تعمل على توفير العناية الصحّية، وإيصال المساعدات الإنسانية إلى المتضرّرين في النزاعات التي تحدث هنا وهناك داخل البلاد، إضافةً إلى إدارة المستشفيات الحكومية أيّام إضراب الأطبّاء والممرضين عن العمل، كما تعمل على تدريب الشباب والشابّات على عملية الإسعافات الأوّلية وغيرها، وهي أكثر المؤسّسات الإنسانية غير الحكومية نشاطاً بنيجيريا، رغم شحّ الإمكانات وقلّة العتاد[٨].

مؤسّسة الإمام الحسين عليه السلام ودورها التوعوي في أوغندا

تقوم مؤسّسة الإمام الحسين عليه السلام

في دولة أُوغندا بدورٍ مهمّ في نشر مذهب أهل البيت عليهم السلام في هذا الجزء من وسط أفريقيا، وفي هذا الصدد قد بيّن فضيلة الشيخ محمّد مزمل ملينـدوا، مسؤول مؤسّسة الإمام الحسين (صلوات الله عليه) الإسلامية في أُوغندا أهمّ فعاليات ونشاطات المؤسّسة في تقرير جاء فيه: «**من لطف الله سبحانه وتعالى أن أنعم علينا بإرسال نبي الرحمة، سيّدنا محمد المصطفى سلام الله عليها، بشيراً ونذيراً، ليوصلنا إلى طريق الكمال، وأمرنا سلام الله عليها باتباع الأوصياء الأطهار من بعده؛ وذلك لإكمال مسيرة تربية النفس وتزكيتها، وفي عصر الغيبة الشريفة أمرنا مولانا الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف بالرجوع إلى روات أحاديثهم، وهم الفقهاء والمراجع الأعلام الأتقياء العاملون، المدافعون عن الدين ومبادئه، وكان فضل الله علينا عظيماً.**

انطلاقاً من ذلك، وامتثالاً لتوجيهات وإرشادات وتوصيات الفقهاء الأعلام ومراجعنا العظام، الذين أكّدوا مراراً ضرورة بذل الجهود في تعلّم علوم أهل البيت (صلوات الله عليهم) وتعليمها الناس، والاهتمام بالناس في كلّ المجالات، بالأخصّ الثقافية والاجتماعية، وقامت مؤسّسة الإمام الحسين (صلوات الله عليه) الإسلامية في أُوغندا للتربية والثقافة والإرشاد، قامت بفضل الله ولطفه سبحانه وتعالى، وببركة أهل البيت (صلوات الله عليهم) بالعديد من الفعّاليات الثقافية والاجتماعية، إليكم بعضاً منها بصورة موجزة...:

القسم الأوّل: فعاليات تبليغيّة وتثقيفية من شهر شعبان المعظّم (١٤٣٢هـ) إلى شهر محرّم الحرام (١٤٣٣) للهجرة:

عقد جلسات إرشادية وتوجيهية وتثقيفية لتعليم المسائل الفقهية

الخلافيـة، وبيـان المسـائل العقائديـة والأخلاقيـة والتاريخيـة وغيرهـا لأئمـة المساجد والمبلّغـين المحليـين بصـورة مكثّفة.

عقـد جلسـات توجيهيـة وتثقيفيـة وتربوية وتعليمية للبنـات والبنـين، مـن عشرين مدرسة ومعهـد مـن المتوسـطة والثانوية الأكاديمية، والاستماع إلى مـا عندهم مـن الأسـئلة والأفكـار، وكانـت إيجابية ومثمرة جداً.

عقـد جلسـات تثقيفيـة وتوجيهيـة وإرشـادية وإداريـة للجـان المسـاجد التابعة للمؤسّسة والمرتبطة بها، للرجال والنساء.

عقد جلسـات ثقافيـة متنوّعـة فـي: العقائـد، والفقـه، والتـأريخ، والأخـلاق، والآداب الإسلامية لعموم النـاس، فـي مسجد الإمـام الحسـين (صـلوات اللـه عليه) المركزي، وفي باقي المساجد.

إمامـة صـلوات الجمعـة والجماعـة في مسـجد الإمـام الحسـين (صـلوات الله عليه) المركـزي، وفـي غيرهـا مـن المسـاجد، وكـذا صـلاة عيـد الفطـر المبارك.

إقامة مجالس قـراءة دعـاء كميـل، ودعاء الافتتاح، والتوسّل، وشرح بعض فقراتها بصورة موضـوعية، فـي مسـجد الإمـام الحسـين (صـلوات اللـه عليـه) المركزي.

الإجابـة علـى المسـائل الشـرعية والعقائدية والتأريخية وغيرها.

إلقاء الدروس الدينية والمحاضـرات عبر الإذاعة في أيّام الجمع لمدّة سـاعة خـلال شـهر رمضـان المبـارك وشـوّال المكرّم.

إقامـة المجـالس فـي المناسـبات الدينية، كمجالس ذكرى عاشوراء، في مسجد الإمـام الحسـين (صـلوات اللـه عليـه) المركـزي وفـي جميـع فـروع المؤسسة.

إرسال المبلّغين المحلّيين، بشـكلٍ دائم ومؤقّت، إلى المساجد.

جـولات تفقديـة وثقافيـة وتبليغيـة، شملت جميـع فـروع المؤسّسـة، وعـدد

من روابطنا في العديد من المحافظات، كان منها: محافظة بوسيا، وبغيري، وإيغانغا، ولووكا (Luwuuka).

اللقاء بالعديد من المسؤولين الحكومين الرسميين السياسيين، ومنهم: رئيس محافظة بغيري، ورئيس المدينة، والمتحدّث باسم المحافظة.

لقاءات عديدة مع الشخصيات الثقافية والاجتماعية الفاعلة في أُوغندا.

إقامة مآدب إفطاريّة في يوم عيد الفطر في مسجد الإمام الحسين (صلوات الله عليه) المركزي.

جمع وإيصال المساعدات إلى المساجد لإقامة مآدب إفطارية في شهر رمضان المبارك، وتمّ إقامة ذلك يومياً في مسجد الإمام الحسين (صلوات الله عليه) المركزي، ولمدّة أُسبوع في باقي الفروع التابعة لنا بالتعاون مع لجنة سيّد الشهداء (صلوات الله عليه) وأهل الخير.

تقديم وجبات إفطار للمبلّغين وأساتذة مدرسة الإمام الحسين (صلوات الله عليه).

تقديم مساعدات ماديّة لبعض المسلمين المحتاجين.

إيصال الذبائح والكفّارات لأصحابها.

توزيع اللحوم على المسلمين في مسجد الإمام الحسين (صلوات الله عليه) المركزي.

إقامة احتفال عظيم بمناسبة تقديم الشكر لاختتام فعاليات شهر رمضان المبارك، وتقدير المشاركين المتفوّقين، وكان ذلك في شهر شوال بحضور جمع غفير من أتباع أهل البيت (صلوات الله عليهم)، ومن العامّة من مختلف محافظات أُوغندا، والشخصيات الرسمية والحكومية والدينية والاجتماعية، كان منهم رئيس محافظة بغيري، ورئيس المدينة، والمتحدّث باسم المحافظة، والمسؤول الأمني في محافظات شرق أُوغندا، والمشاركين في الدورات، وبعض

طلاب المدارس والمعاهد العليا والجامعات في البلد، وجمعٌ من الإعلاميين والصحفيين ومراسلي الإذاعة والتلفاز.

جولة تفقّدية ودّية على مستوى شرق إفريقيا، شملت دولة كينيا وتانزانيا، كان منها: حوزة السيدة زينب (سلام الله عليها)، ومع المعلّمين والمبلّغين المحليين لمركز وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف بدار السلام بتنزانيا، وبمشايخ لجنتي سيّد الشهداء وأهل البيت (صلوات الله عليهم) في مدينة عروشا.

القسم الثاني: إنجازات ثقافية وإنسانية واجتماعية، كان منها:

أوّلاً: تشييد العديد من المساجد في العديد من المحافظات والمناطق والقرى المحرومة، بمساعدة ومساندة جهات الإحسان وأهل الخير، خصوصاً المحسنين والخيّرين من دولة الكويت، بإشراف لجنتي سيد الشهداء وأهل البيت (صلوات الله عليهم)، وبمباشرة مؤسّسة الإمام الحسين (صلوات الله عليه) الإسلامية، ومنها:

مسجد الإمام الحسين (صلوات الله عليه) المركزي في محافظة بغيري.

مسجد الرسول المصطفى سلام الله عليها في منطقة اسغروا محافظة بغيري.

مسجد أمير المؤمنين أبو الحسنين (صلوات الله عليهم) في منطقة بوكوبانسري.

مسجد السيدة فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) في منطقة نوانزوا بمحافظة إيغانغا.

مسجد أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) في منطقة موغلى بمحافظة إيغانغا.

مسجد الإمام محمد الباقر (صلوات الله عليه) في منطقة أنسوز إيبري.

مسجد الإمام صاحب العصر

والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف في منطقة بيومبي بمحافظة بونسيا.

ثانياً: المدارس والحوزات: في الوقت الحاضر لدينا مدرسة الإمام الحسين (صلوات الله عليه) الدينية الأكاديمية، في سبعة فصول، ويدرس الطالب والطالبة فيها العلوم الدينية: كالفقه، والعقيدة، والأخلاق، والآداب الإسلامية، والتأريخ، والسيرة النبوية، وسيرة أهل البيت الأطهار (صلوات الله عليهم)، والتفسير، وقراءة القرآن والأحاديث النبوية، وغيرها، إضافةً إلى العلوم العصرية الأكاديمية.

ثالثاً: المكتبة: المكتبة هي باسم مكتبة الإمام الحسين (صلوات الله عليه)، وتحتوي على العديد من الكتب التعليمية والثقافية المتنوّعة، بلغاتٍ مختلفة، كالعربية، والفارسية، والإنجليزية، والسواحيلية، والمحلّية، حيث يستفيد منها الطالب، والأُستاذ، والمبلّغ، والباحث، والمحقّق، وغيرهم.

رابعاً: العمل في مجال توفير المياه الصالحة للشرب، في مسجد الإمام الحسين (صلوات الله عليه)، وفي باقي المساجد.

خامساً: العمل في مجال مساعدة طلبة المدارس والأساتذة والمبلّغين المحلّيين بما يمكن.

سادساً: العمل في مجال حماية الأيتام والاهتمام بوضعهم المعاشي، ومنها: توزيع الألبسة والمفروشات والأغطية وغيرها، بالأخصّ للأيتام بمدرسة الإمام الحسين (صلوات الله عليه) في بغيري، بمساهمة أحد المؤمنين، وذلك في شهر محرم الحرام (١٤٣٣) للهجرة.

سابعاً: القرض الحسن، تمّ افتتاح مكتب إعطاء القرض الحسن باسم الإمام الحسين (صلوات الله عليه)، وذلك لتحسين وضع الأساتذة والمبلّغين المحلّيين، والمقبلين على الزواج، والمسلمين الجدّد، والمرضى، وغيرهم من أصحاب الحاجة.

ثامناً: المقبرة: تمّ شراء قطعة من

الأرض بقرب مركز مؤسّسة الإمام الحسين (صلوات الله عليه)، وتخصيصها كمقبرة»[٩].

دور الجالية اللبنانية في نشر مذهب أهل البيت عليهم السلام في السنغال

خلال الربع الأخير للقرن الماضي بدأت أعداد من السنغاليين تعتنق مذهب أهل البيت عليهم السلام، علماً بأنّ جميع مسلمي السنغال يكنّون احتراماً شديداً لأهل البيت عليهم السلام، ويتلون في مواليدهم الأشعار العربية في مديح الرسول سلام الله عليها وأهل البيت عليهم السلام، ومن تقاليدهم الاحترام الشديد للأشراف السادة، وقد بلغ أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام بضعة آلاف، يضاف إليهم حوالي (٢٥٠٠٠) لبناني على المذهب نفسه، يقيمون في السنغال منذ عشرات السنين.

يقول الشيخ عبد المنعم الزين المقيم في دكار في هذا الصدد: «**لقد تحقّقت من أنّني وُجدت بين قوم تتملّكهم عاطفة جيّاشة تجاه أهل البيت عليهم السلام، وإن كانت مغمورة بتلك العادات الجافة والتقاليد الظالمة، إلّا أنّ جهلهم بذلك قد يغفر لهم كثيراً من آثارها وآثامها، وعرفت أنّ انتصار تلك العاطفة على هذه العادات أمر في متناول اليد، نعم يحتاج ذلك إلى جهود وتوعية وتربية... ومن تلك العادات الخاطئة أنّ البعض يقيمون الأفراح في أيّام عاشوراء، ويوم العاشر عندهم هو عيد النصر وجمع الشمل... وبعد التحقّق من واقع الأفارقة وجدت أنّهم يقومون بهذه العادات دون أدنى علم أو معرفة بأسبابها وماهيتها، وعندما تقول لأحدهم: كيف تفرح بيوم عاشوراء وفيه قُتل الحسين عليه السلام ابن بنت رسول الله سلام الله عليها؟ ! يرتعد خوفاً ويرفع يديه قائلاً: أستغفر الله... ولئن كان التأسّف يأكل من أعصاب الذين يعرفون الحقيقة، فلقد فتحت**

صدورهم وعقولهم للنور الجديد».

وكان للجالية اللبنانية[١٠] الدور البارز في نشر مذهب أهل البيت عليهم السلام في السنغال، فقد كان الوضع الديني لدى الجالية متردّياً للغاية، حيث لم يكن هناك مَن يرعى شؤونها الدينية سوى بعض الأفراد الذين لم يُؤتَوا حظاً كافياً من العلم، كما أنّ المظاهر والشعائر العامّة كالصلوات في المساجد كانت محظورة على أبناء الجالية أيّام الاستعمار الفرنسي، بهدف عدم اختلاطهم مع المواطنين الأصليين، حتى أنّ السلطات الفرنسية طردت من السنغال أحد اللبنانيين؛ لأنّه صلّى الجمعة في أحد المساجد !

والحجاب لدى النساء كان شبه معدوم، ما عدا عدد من السيدات كبيرات السن، أمّا معرفة الأحكام الشرعية ـ إذا ما استثنينا بضعة أفراد ـ فإنّنا نستطيع القول: إنّ أكثرية الجالية كانت على جهل بها، فلم يكن لديهم مسجد أو مكان مناسب يجتمعون فيه لإقامة النشاطات، والشعائر الدينية والاجتماعية الأُخرى في شهر رمضان وأيّام عاشوراء وغيرها، حتى أنّهم كانوا يجتمعون في مجالس تأبين المتوفّين إمّا في قاعة تستأجر من الرهبنة الفرنسية، أو في إحدى قاعات السينما في دكار، وكانت مجالس عاشوراء تُقام في منزل أحد المؤمنين، فيحضر عنده تحت شجرة قرب منزله عددٌ يتراوح بين (٢٠ و٣٠) شخصاً، وكان هذا الأخ المؤمن قد بدأ بإقامة تلك المجالس منذ مطلع الثلاثينيّات.

كما كانت الجالية تعاني حالة تفكّك اجتماعي مبنيّة على تكتّل العائلات بحسب انتمائها القروي في لبنان، فكان أبناء كلّ قرية لا يختلطون بأبناء القرى الأُخرى إلّا نادراً، حتى الزواج فيما بينهم كان قليلاً. في الواقع كانت هذه أوضاع الجالية اللبنانية، خصوصاً الأكثرية المنتمية إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام.

وعندما زار العلّامة المغيّب السيد

موسى الصدر ـ قبل أن يصبح رئيساً للمجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان ـ دولة السنغال، ليتعرّف على أوضاع الجالية اللبنانية فيها، وليتّصل بالمسؤولين وأبناء الشعب السنغالي طلب أبناء الجالية منه عالماً دينياً كفوءاً يرعى شؤونهم، فتمّ اختيار العالم اللبناني الذي كان يتابع دراسته الإسلامية العليا في النجف الأشرف، وهو فضيلة الشيخ عبد المنعم الزين، ليكون أوّل عالم لبناني مقيم في أفريقيا الغربية يقوم بوظيفة التبليغ والإرشاد لأبناء الجالية ولإخوانهم من الأفارقة المسلمين.

ويُعتبر الشيخ عبد المنعم المؤسّس لعدد من المشاريع والنشاطات الحيوية التي كانت تفتقدها الجالية والسنغال عموماً، وفي هذا الصدد بيّن الشيخ بداية عمله في السنغال، باختصار قائلاً: «**قدِمت إلى هذه البلاد الطيبة بناءً على تكليف شرعي من المرجع الأعلى الراحل الإمام السيد محسن الحكيم** ﷺ **بعد تشاور معه، ومبادرة كريمة مسؤولة من أُستاذي سماحة العلّامة المغيّب السيد موسى الصدر (أعاده الله)، الذي تولّى أيضاً ترتيب أجواء قدومي بالتنسيق مع بعض وجوه الجالية، وكان ذلك في شهر آب سنة (١٩٦٩م)، وقد خصّصت الفترة الأُولى التي امتدّت نحو سنة للتعرّف على أبناء الجالية، ورصد أوضاعهم ومشاكلهم، بالإضافة إلى مهمّتي الإرشادية التبليغية الأساسية.. وكانت تسود الجالية آنذاك ـ بالإضافة إلى قلّة المعرفة بالأحكام الشرعية، وضعف الالتزام عموماً، ما عدا القلّة ـ ظاهرتان:**

الأُولى: إهمال اللغة العربية نتيجة انصهار أبناء الجالية في المجتمع المحلّي.

الثانية: فقر مدقع لدى عشرات العائلات.

فكان لا بدّ من تأسيس جمعية تحاول القضاء على هاتين المشكلتين

الأساسيتين، وهنا بدأت فترة متاعب لي مع بعض المتصدّرين في الجالية، الذين عارضوا فكرة إنشاء جمعية جديدة، بدافع أنّ الجمعيات السابقة ـ التي كان التنازع على زعامتها ما زال قائماً ـ قد فشلت في تحقيق أهدافها، وأنّ الناس قد ملّوا دفع المال لمثل هذه الجمعيات، وهناك خوف من أن يكون مصير هذه الجمعية كسابقاتها، وبما أنّني كنت مقتنعاً بالفكرة، فقد استطعت تجنيد عددٍ قليل من المؤيّدين لها في البداية رغم العراقيل...

وهكذا أُنشئت الجمعية باسم (المؤسّسة الإسلامية الاجتماعية)، وكانت البداية عام (١٩٧٠م)، من خلال منزل صغير مُستأجر، تحوّل إلى مسجدٍ للصلاة ولإحياء المناسبات الإسلامية، وإلى مدرسة لتعليم عدد من الشبان اللغة العربية والفقه والتفسير والتاريخ الإسلامي، كما كان يتمّ ذلك أيضاً في بعض البيوت، ثمّ توفّقنا لاحقاً لشراء قطعة أرض في أرقى أحياء دكار، أنشأنا عليها مقرّ الجمعية الرئيسي، الذي بدأ العمل به سنة (١٩٧٤م)، وانتهى سنة (١٩٧٧م)، ولكن تمّ افتتاحه بشكلٍ رسميّ عام (١٩٨١م) باحتفال كبير، وذلك بحضور رئيس الجمهورية، وعدد من الوزراء، ورئيس المجلس النيابي والنواب، وكبار المسؤولين، وتسعة وستين سفيراً ورئيس بعثة دبلوماسية، وعدد كبير من ممثّلي المنظمات الإسلامية، ووفد من المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، بالإضافة إلى رؤساء الطوائف السنغالية الصوفية، وأبناء الجالية، وجمهور واسع من الشعب السنغالي، ووفود من الجاليات اللبنانية في البلدان المجاورة.

لقد كان يوماً مشهوداً، أُقفلت فيه المحلّات التجارية، وازدانت الشوارع المحيطة بالزينة، كما أُلقيت

الخطب من قبل رئيس الجمهورية، والخليفة العام للطائفة التيجانية، ومن قبل بعض العلماء، ومنّي شخصياً، كان لهذا الاحتفال ـ الذي جاء انعكاساً للجهود التي قامت بها المؤسّسة ـ صدىً طيّب لدى الجالية اللبنانية، وكانت قاعدة المؤسسة قد توسّعت فأصبحت هيئتها العامّة تضمّ (٤٠٠) عضو مساهم، يمثّلون مع الهيئة الإدارية مختلف طبقات الجالية.

وخلال السنوات الخمس الأُولى تمّ أيضاً إنشاء وتفعيل جمعية الهدى الخيرية النسائية، التي عكفت على تدريس اللغة العربية والعلوم الإسلامية للفتيات والنساء، كما تخصّصت بمساعدة الفقراء، وكان لها نشاطات واسعة مشتركة مع الجمعيات النسائية السنغالية، وأصبح لها اسمٌ مشهور في العمل الخيري، بما تقدّمه من مساعدات شهرية للمعوزين، وتبنّي استشفائهم في الداخل والخارج، وكذلك تغطية سفر مَن يرغب في العودة منهم نهائياً إلى موطنه... وذلك بالإضافة إلى القيام بدورات تعليم الخياطة والتدبير المنزلي للنساء».

وقد أثمرت جهود هذه المؤسّسة الناشطة طيلة أربعة وعشرين عاماً عدداً من المشاريع الثقافية والاجتماعية والصحّية، ومباني عدّة تنطلق من خلالها أنشطتها، وذلك في العاصمة دكار، وفي أنحاء أُخرى من البلاد، وكان المبنى الرئيس للمؤسسة يتألّف من خمسة طوابق:

الطابق الأوّل: عبارة عن قاعة للاحتفالات مسمّاة باسم نادي الرسول سلام الله عليها، وهي تتسع لـ (٤٠٠) شخص، ويمكن مع الباحة الأمامية أن تستوعب (١٠٠٠) شخص.

الطابق الثاني: هو مسجد الإمام علي عليه السلام، ويتّسع لـ (٤٠٠) مصلٍّ، مع جناحٍ خاصٍّ للنساء.

الطابق الثالث: هو مركز جمعية الهدى النسائية وأنشطتها، كما توجد فيه قاعة المكتبة العامّة.

الطابق الرابع: هو مركز رئاسة المؤسّسة، حيث تقام جميع اللقاءات والمعاملات، خاصّة المسائل المتعلّقة بالأحوال الشخصية، من الزواج، والطلاق، والإرث، وغير ذلك، والشيخ الزين هو المعتمد في هذه المسائل من قبل المحاكم الشرعية في لبنان، ومن الدولة اللبنانية، عبر سفارتها في دكار، كما توجد في هذا الطابق قاعة تتّسع لـ (١٥٠) شخصاً، تُعطى فيها الدروس الدينية الليلية.

الطابق الخامس: هو مسكن رئيس المؤسّسة.

كما أنَّ هنالك مبنى يحتوي على مطبعة مختصّة بطباعة منشورات المؤسّسة ومدارسها، إضافة إلى المستوصف الإسلامي الخيري.

أمّا **المبنى الثالث**: فيضمّ مدرسة دينية باسم مدرسة السبطين عليهما السلام لتعليم الدراسات الإسلامية باللغة العربية، وهو مكوّن من طابقين بمساحة (٤٠٠م٢) لكلّ منهما، ويتبعه ثلاثة مبانٍ مستأجرة، وهنالك مسجد الحاج إبراهيم درويش، الذي هو بعهدة المؤسّسة، ويتّسع لألف شخص، ثمّ مسجد الإمام زين العابدين عليه السلام، وهو قيد الإنشاء، ويضمّ أيضاً طابقاً للدراسات الإسلامية، ثمّ المبنى السادس الذي هو عبارة عن عمارة مؤلَّفة من خمس طوابق مخصّصة للاستثمار، وسينُشأ فيها معهدٌ خاصٌّ لتعليم اللغة العربية، في حين كان المبنى السابع يضمّ كلّية الزهراء سلام الله عليها[١١].

يحدثنا الشيخ الزين باختصار عن أبرز النشاطات التي تُقام في فروع المؤسّسة، ثمّ عن إنجازاتها في المناطق، فيقول: «نبدأ أوّلاً من المركز الرئيسي:

أـ نادي الرسول سلام الله عليها: وفيه تُحيى المناسبات الدينية، مثل

ليالي شهر رمضان المبارك، وليالي عاشوراء التي تقام مجالسها في النهار أيضاً للنساء، كما يجري فيه إحياء مناسبات عيد المولد النبوي الشريف، وولادات ووفيّات الأئمّة الأطهار عليهم السلام، بالإضافة إلى المناسبات الخاصّة كذكريات الوفيّات.

ب ـ مسجد الإمام علي عليه السلام: وتُقام فيه صلاة الجماعة والجمعة، ويحضر الصلاة فيه حوالي (٥٠٠) من أبناء الجالية والإخوة السنغاليين من النساء والرجال.

ج ـ جمعية الهدى: سبق الحديث عنها.

د ـ المكتبة العامّة: وتحتوي على مجموعة كبيرة من الكتب الدينية والثقافية، وتتمّ المطالعة فيها ضمن القاعة المخصّصة، أو من خلال نظام الاستعارة، كما يتمّ من خلال المكتبة توزيع آلاف المصاحف والكتب الفكرية الإسلامية على المساجد والمؤسّسات والمدارس الدينية السنغالية.

هـ ـ الدروس المنظّمة في التفسير والفقه والعقيدة، وتُعطى في قاعة الاستقبال، والدروس للرجال ليلاً، وللنساء عصراً، وذلك حسب برنامج موضوع ومقرّر.

وـ المستوصف الإسلامي: وقد افتُتح عام (١٩٨٠م) برعاية وزير الصحة، ويعمل فيه طبيب دائم، وطبيبة نسائية، وممرّضة، كما يداوم فيه بعض الأطبّاء الأخصّائيين، ويحوّل المستوصف عند الضرورة المرضى إلى العيادات والمستشفيات مع توصية لمعالجتهم مجاناً، كما يقدّم الأدوية مجاناً حسب توفّرها، وكذلك التحاليل الطبية تُؤمّن مجاناً عن طريق مختبر جامعة دكار، أو بعض المختبرات اللبنانية... وقد عالج هذا المستوصف حتى الآن حوالي (٢٨٠) ألف مريض بمعدّل يومي مقداره (٦٠) مريضاً.

زـ مسجد الحاج إبراهيم درويش: وقد تبرّع ببنائه أولاده عن روح والدهم، وهو أوّل مسجد في القارّة

الإفريقية تُقام فيه الصلاة طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام، ويؤمّ المصلين فيه عالم سنغالي هو الأخ الشيخ إبراهيم تشام، ويزيد عدد المصلين فيه وفي باحته أثناء صلاة الجمعة عن ثلاثة آلاف شخص.

وبالإضافة إلى كلّية الزهراء، فإنّ المؤسّسة أنشأت العديد من الفروع والمنشآت في أنحاء عدّة من السنغال... ومن ذلك:

ـ حسينية في مدينة كاولاخ التي تبعد (١٩٢ كم) عن العاصمة، حيث يبلغ عدد أفراد الجالية اللبنانية فيها نحو ألف شخص، وفي الحسينية تجتمع الجالية في المناسبات، كما تجري سهرات ومحاضرات دينية.

ـ مدرسة دينية باسم الرسول الأعظم سلام الله عليها في مدينة زيغنشور، التي تبعد (٤٢٥كم)، وتتبع لها ثلاث مدارس مستأجرة.

ـ مسجد وبجانبه مدرسة دينية في قرية كولان (٧٠ كم) عن زيغنشور.

ـ مدرسة دينية باسم حوزة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف في مدينة كولدا، ويتبع المدرسة قطعة أرض خارج المدينة مساحتها (٣٠/٠٠٠ م٢) سيقام عليها معهد زراعي.

ـ مدرسة دينية في قرية يروفولا على بُعد (٤٠كم) من كولدا.

ـ مدرسة إسلامية في مدينة نجوم في الشمال (٥٢٥كم) عن دكار، باسم مدرسة أبي ذر الغفاري، كما تمّ فيها حفر بئر ماء يشرب منه أهالي المدينة.

ـ حفر بئر ماء يشرب منه الأهالي في مدينة حلوار، على بعد (١٠٠كم) من نجوم»[١٢].

العزاء الحسيني في جنوب إفريقيا

كما هو حال دين الإسلام دخل التشيع جنوب إفريقيا، واستنارت ربوعها بنور ولاية آل البيت النبوي المحمدي عليهم السلام، وذلك مع الهجرات

العربية والآسيوية إلى هناك، فانتشر مذهب التشيّع، وبدأ بالنمو والزيادة، حيث يبلغ عدد الشيعة فيها الآن عشرات الآلاف، وهم ينتشرون في العاصمة جوهانسبرغ، ومدينة دربان، ولهم وجود في مدن أُخرى، وينتظم المسلمون من شيعة آل البيت عليهم السلام خلال شهري المحرم وصفر في أداء واجبات العزاء الحسيني، بدءاً من محاضرات ومواعظ الخطباء الحسينيين، إلى قراءة المقتل الحسيني في عاشوراء الحسين عليه السلام، والبكاء واللطم، وذلك في الحسينيات التي بُنيت حديثاً.

لم يكتفِ شيعة آل البيت عليهم السلام في جنوب إفريقيا بممارساتهم الشعائرية الدينية، بل شاركوا بقية أبناء وطنهم في جنوب إفريقيا في التصدّي لنظام الفصل العنصري الذي حكم جنوب إفريقيا فترةً طويلة، ممّا كلّفهم المئات من الشهداء والجرحى، متأثرين في ذلك بالمنهج الفكري والعقائدي للعترة المباركة عليهم السلام.

وممّا قام به شيعة جنوب إفريقيا من نشاط ديني وعقائدي، إنشاء مؤسّسات أقاموها خصّيصاً لذلك، وهي مركز إشعاع واستقطاب لمَن يطّلع على مبادئ آل محمد سلام الله عليها، إذ يوجد في جنوب إفريقيا (١٢) مسجداً للشيعة، إضافة إلى (٨) حسينيات تُقام فيها مختلف مناسبات الأفراح والأحزان المتعلِّقة بأهل البيت النبوي عليهم السلام، ومن المؤسّسات الشيعية هناك:

مركز أهل البيت عليهم السلام /كيب تاون/العاصمة: ومديره المسؤول هو السيّد آفتاب حيدر، وينشط المركز في إقامة صلاة الجمعة والجماعة، وإحياء مناسبات آل بيت النبوّة عليهم السلام.

مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام في إفريقيا الجنوبية: وهي في كيب تاون أيضاً، ومديرتها مريم نوسا.

مركز الجهاد/كيب تاون/العاصمة: مسؤوله يوسف محمد.

مركز أهل البيت عليهم السلام الإسلامي من فيلبي/كيب تاون: مديره عيسى.

حسينية أبو الفضل العباس عليه السلام /غوتنغ ـ بريتوريا/جنوب شرق البلاد: مسؤولها الشيخ أحمد قاسم.

مركز القائم عليه السلام /غوتنغ ـ بريتوريا: مسؤوله جعفر شاه.

المصطفى (سوا)، مسجد ومركز إسلامي/ غوتنغ ـ سبرنجس: المدير الشيخ عبد الواحد منير.

مركز العلم الإسلامي (بابول) /غوتنغ ـ جوهانسبرغ/ شمال شرق البلاد: مديره المسؤول السيد خرام المهدي.

قصر الزهراء/غوتنغ ـ جوهانسبرغ: مديره حسن بوت.

المركز الإسلامي لأفريقيا/غوتنغ ـ جوهانسبرغ: المسؤول السيّد رضائي.

الإمام الصادق عليه السلام المركز الإسلامي/غوتنغ ـ نايجل/جنوب شرق البلاد: المدير عبد الرحمن ماهلانغو.

جماعة أهل البيت عليهم السلام المسمّاة (kwa odabela)، شمال غرب مبومالانجا: المدير الشيخ مسعود علي.

مسجد الإمام الحسين عليه السلام، مدرسة دينية ومركز ثقافي/كوازولو ناتال ـ ديربان/جنوب شرق البلاد: بإدارة الشيخ جابر شاندو.

المدرسة الجعفرية الإسلامية/كوازولو ناتال ـ ديربان: المسؤول عنها: راشد.

مركز الإمام الباقر عليه السلام الإسلامي/كيب الشرقية ـ ميناء إليزابيث/جنوب البلاد: المدير المسؤول الشيخ أحمد.

المركز الإسلامي للإمام موسى الكاظم عليه السلام /كرونستاد ـ فري ستيت/وسط البلاد: بإدارة الشيخ عبد الله[١٣].

«يُعدّ النظام الاجتماعي والمدني الحديث من النظم التي يكسب من خلالها المواطنون الكثير من حقوقهم،

خصوصاً في البلدان التي خرجت من طائلة الاستعمار أو الاستعباد، وتمارس نموذجاً من نماذج التحرّر والانفتاح الديمقراطي، الذي يهيّئ للمواطنين فرصة الممارسات الاجتماعية والفكرية والعقائدية بحرّية لا بأس بها، من هنا طالب ممثّلون عن شيعة جنوب إفريقيا ـ في لقاءٍ جمعهم مع رئيس الجمهورية ـ بأن يتمّ الاعتراف الرسمي بمذهب أهل البيت عليهم السلام في هذا البلد، وقد نقلت بعض التقارير لوكالة (أهل البيت عليهم السلام انبا): أنّ اللقاء هذا مع رئيس الجمهورية تمّ في الكنيسة الإنجليكانية في كيب تاون، وشارك فيه نحوٌ من مائة زعيم ديني من مختلف الأديان، فضلاً عن شخصيات اجتماعية ودينية وصحفية، واستُثني من اللقاء هذا اليهود الذين امتنعوا عن المشاركة؛ بسبب كون انعقاده يوم السبت، وقد أكّد رئيس الجمهورية على أهمّية رجال الدين، ودورهم في ترسيخ الاستقرار والأمن، مطالباً إيّاهم بالتواصل لخدمة الصالح العام، ومن أبرز مَن شارك في هذا اللقاء السيد (آفتاب حيدر رضوي) رئيس مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام في جنوب إفريقيا، وقدّم تقريراً عن الشيعة وأوضاعهم في هذا البلد، وقال السيّد الرضوي: بعد بزوغ فجر الحرّية في جمهورية جنوب إفريقيا، كان الشيعة دائماً يحافظون على القانون، وقد بذلوا جهوداً مضنية في سبيل تحقّق الحرية والديمقراطية في هذا البلد، لذا يطالب الشيعة بأن يتمّ الاعتراف بهم رسمياً، وأن يمثّلهم نائب في الهيئة الدينية في البلد، وأضاف قائلاً: بالرغم من الجهود التي تبذلها العديد من المؤسّسات التابعة لمذهب أهل البيت عليهم السلام في هذا البلد، إلّا أنّها لم تفلح في الحصول على عضوية لمذهب أهل البيت عليهم السلام في هيئة الحج والعمرة في جنوب إفريقيا.

ولشيعة إفريقيا نشاطات كثيرة وكبيرة نلحظها من خلال مؤسّساتهم

التي ترعى هذه النشاطات، فهناك الكثير من الاحتفاليات التي تقيمها مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام في المناسبات الإسلامية، كمولد النبي سلام الله عليها، ومولد الإمام الحسين عليه السلام، وذكرى النصف من شعبان، وعيد الغدير، وغيرها، كما أنّ لها نشاطات واسعة جداً في وفيات الرسول الأكرم سلام الله عليها والأئمّة عليهم السلام، سيما ذكرى فاجعة الطف وواقعة كربلاء، وقد قامت بعض الشخصيات العراقية ـ كالسفير العراقي ـ هناك بزيارة هذه المؤسّسات؛ لتلاقح الأفكار وتحاور الأديان، وقد أُقيمت بهذا الصدد عدّة ندوات من خلال الجولات التي أُقيمت في مساجد مدينة كيب تاون، فضلاً عن بعض الزيارات لمدارس الأطفال التابعة لمؤسّسة أهل البيت عليهم السلام، وكان لحضور شخصيات دينية مسيحية وإسلامية أُخرى الأثر البالغ في تجسيد حالة التعايش السلمي والتلاقح الفكري الموزون، الذي يتّسم به شيعة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم، هذا، وقد عقدت مجموعة من اللقاءات في مسجدي القدس وزينة الإسلام في مدينة كيب تاون لنفس الغرض...

إنّ حركة التشيّع في هذا البلد سائرة باطّراد، وبخطى ثابتة محسوبة، وذلك بجهد المشرفين على هذا الأمر هناك، ولكنّ هذا النشاط وهذا المسير يحتاج وبشدّة إلى الكثير من المتطلّبات، ومنها الكتب التخصّصية والمبلِّغين ـ خاصةً إذا ما عرفنا أنّ اللغة السائدة في هذا البلد هي الإنجليزية ـ وهذا يتطلّب جهداً استثنائياً، يتحمّل مسؤوليته المتصدّون لمثل هذه الأُمور الجسام، وعلى رأس أُولئك بطبيعة الحال الحوزة الشريفة والمؤسّسات السائرة على نهجها الشريف، وكلّ ذلك وجلّه من أجل نشر نور آل النبي الخاتم سلام الله عليها وخيره إلى العالمين جميعاً، ومنه وفي سبيله زاد نماء وأعداد متّبعي مذهب أهل البيت عليهم السلام ممَّن سيمهّدون لانتصار المسيرة

الإلهية لإظهار دين الرحمن على الدين كلِّه، وعلى يد خاتم العترة الإمام المهدي الحجة بن الحسن عجل الله فرجه الشريف»[١٤].

مركز الهادي للثقافة والإرشاد الإسلامي ودوره في نشر الفكر المحمدي في دولة بينين

تأسّس المركز في عام (٢٠٠٠م) بمدينة (كوتونو) في دولة (بينين) غرب القارة الإفريقية.

أهداف المركز

تأصيل الهوية الإسلامية فكرياً وثقافياً بتجلّيات وجهها النقي المستند إلى القرآن الكريم وتعاليم أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

نشر الثقافة الإسلامية ومعارفها وأخلاقها على ضوء مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

تربية الجيل المسلم على الأخلاق الإسلامية الفاضلة، وخلق أجواء للصداقات الصالحة والتعارف المنتج بين المؤمنين المقيمين والمغتربين المهاجرين على أساس الفضيلة والأخلاق.

التأكيد على قضايا التقدّم الأخلاقي والاجتماعي والثقافي وما يرتبط بذلك، وتوحيد الجهود المبذولة على هذا الصعيد.

إقامة المعارض وعقد الندوات والمؤتمرات العلمية ذات الصلة المباشرة بتوسيع نطاق المعرفة الإسلامية، المؤدية إلى تقدّم المستوى الثقافي والأخلاقي، وتنمية سائر الجوانب الفكرية والاجتماعية في المجتمع الإسلامي.

العمل على تحقيق المشاريع وإقامة المراكز ذات الصلة بالجانب الفكري والتربوي والإيماني.

تأسيس مدرسة عصرية لبنانية في كوتونو: وهي أكاديمية عصرية تُعنى ـ إلى جانب المواد العصرية ـ بالمنهج التربوي الإسلامي، كما تُعنى في مناهجها بدراسة الدين الإسلامي واللغة العربية والعلوم القرآنية.

تأهيل ورعاية أساتذة التعليم القرآني ومبلّغي الدين الإسلامي لمناطق الأرياف والقرى النائية في غرب إفريقيا.

العمل على تأسيس فضائية مرئية متخصّصة بمنظومة الأخلاق والقيم والتربية الإيمانية.

إعداد برامج إذاعية مسموعة أو مرئية لإشاعة التربية الإسلامية والقيم الإيمانية.

إصدار مجلّة (الهادي): وهي مجلّة شهرية متخصّصة تُعنى بدراسات منظومة الأخلاق والقيم والتربية الإيمانية.

تأمين المنح الدراسية للطلاب المتخصّصين في دراسات الشريعة والعلوم الإسلامية.

تأسيس المدارس الابتدائية والتكميلية والثانوية الدينية الملتزمة بروح القرآن، وذلك في قرى ومدن المناطق الإفريقية النائية، وبناء المساجد، وحفر الآبار لأهل تلك القرى والأرياف.

مكوّنات المركز

يتكوّن المركز من: مسجد الإمام علي الهادي عليه السلام، وحسينية السيدة الزهراء سلام الله عليها[١٥]، ومستوصف السيدة زينب سلام الله عليها، ومكتبة الإمام الصادق عليه السلام، ومسرح عاشوراء، وقاعة الإمام علي عليه السلام للاحتفالات الدينية، وقاعة الندوات الفكرية والثقافية، ومكاتب المركز.

المبادئ العامّة للمركز

تتمثّل المبادئ العامّة للمركز، بأنّه:

يهتمّ اهتماماً بالغاً بالجانب التبليغي الخاصّ بإحياء مناسبات أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وجميع العاملين في المركز إنّما يقومون بعملهم تطوّعاً دون أيّ أجر مادي، لا يريدون إلّا وجه الله تعالى وخدمة الإسلام العظيم، المتمثّل بمذهب أهل البيت عليهم السلام.

ينأى المركز بنفسه عن التدخّل في القضايا السياسية والانتخابية،

فاهتمامه ينصب على الجانب التبليغي والأخلاقي التربوي، ولكادر المركز - في الوقت نفسه - الحق في العمل السياسي والانتخابي، ولكن بعنوانهم الشخصي لا بعنوان انتمائهم للمركز.

لا يمارس المركز أيّ نشاط مالي خيري، فالعمل الخيري المالي وإن كان مهماً لمساعدة الفقراء والمحتاجين، إلّا أنّ هدف المركز هدف تبليغي أخلاقي ثقافي تربوي فقط.

المركز لا يفرّق بين مرجعية وأُخرى، وبين تيار سياسي وآخر، فالمؤمنون كلّهم إخوة، وكلّنا نتعاون من أجل خدمة الإسلام.

على مستوى العمل النسائي، يهتمّ المركز اهتماماً بالغاً بتشجيع روح الحجاب والعفاف والحياء لدى الفتاة المسلمة، ومن إنجازات المركز التواصل مع المرجعيات الدينية، وعقد اللقاءات الدائمة، والمشاركة في المؤتمرات الإسلامية من أجل ذلك.

افتتاح موقعٍ رسميٍّ خاصٍّ بمركز الهادي وسائر متعلّقاته.

تأسيس وترخيص جمعية الإرشاد العاملية في لبنان، التي تُعنى بإقامة الأنشطة الدينية التبليغية ذات الصلة بإحياء أمر أهل البيت عليهم السلام.

تأسيس وترخيص جمعية مركز الهادي للثقافة والإرشاد الإسلامي في (كوتونو).

الانتهاء من بناء عدّة مدارس دينية، ومجموعة من المساجد، وذلك في محافظتي (باراكو) و(كاندي) وضواحيهما في شمال دولة (بينين) في غرب إفريقيا.

إصدار مجلة الهادي: وهي مجلّة إسلامية فكرية ثقافية اغترابية متخصّصة، تُعنى بدراسات منظومة الأخلاق والقيم والتربية الإيمانية، تصدر عن مركز الهادي للثقافة والإرشاد الإسلامي.

الإشراف على حسينية الزهراء سلام الله عليها ونشاطاتها في (كوتونو).

الإشراف على المدرسة اللبنانية العصرية التي أنجزها المركز في (كوتونو).

الإشراف على مدرسة أهل البيت عليهم السلام في محافظة (باراكو) في (بينين)، وهي مدرسة دينية خاصّة بالشيعة الأفارقة، كما يُشرف المركز على بعض المدارس الدينية في محافظة (كاندي).

الإشراف على مدرسة الإمام علي الهادي عليه السلام في (كوتونو)، وهي مدرسة صغيرة خاصّة بالأطفال الأفارقة، تُعنى بتدريس القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية.

طباعة الكتب الشيعية المهمّة وترجمتها وتوزيعها.

إحياء المعارض وعقد الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية، ذات الصلة المباشرة بتوسيع نطاق المعرفة الدينية، وقضايا الأخلاق والتربية الإيمانية[١٦].

الهوامش:

[١] جامعة ذي قار/كلّية التربية للعلوم الإسلامية/قسم التاريخ، من العراق.

[٢] السعد، محمد، شيعة زنجبار وهجرة التجدّد، صحيفة صدى المهدي الإلكترونية، مركز الدراسات التخصّصية في الإمام المهدي، النجف الأشرف: العدد ٧، السنة الأُولى، ذي الحجة (١٤٣٠هـ) ـ كانون الأوّل (٢٠٠٩م)، ص٥.

www. m-mahdi. net/sada-almahdi/pdf/add٧. pdf.

[٣] أُنظر: الشهرستاني، صالح، تاريخ النياحة على الإمام الشهيد الحسين بن علي عليه السلام: ج٢، ص٩٣ ـ ٩٤.

[٤] تُعتبر بلاد الزنجبار المركز الرئيسي للإسلام في شرق إفريقيا؛ لأنّ كلّ سكانها مسلمون، بل إنّ سلطانها عربي مسلم أيضاً، وفي بلاد الزنجبار يكاد يكون كلّ السكان مسلمين، ولا يوجد بينهم إلّا نفرٌ قليل من غير المسلمين، ويمكن أن ترتّب طوائفهم من الناحية الاقتصادية ترتيباً تنازلياً على النحو التالي: الشيعة، فالأباضية، فأهل السنة، فالشيعة أغنى الطوائف هناك بلا مراء، ولكن يظهر أنّهم ليسوا في مستوى واحد من الثراء، فالإسماعيليون ـ أتباع آغا خان ـ يأتون أوّلاً، ولقد ساعدهم جِدّهم واجتهادهم من ناحية، ونظامهم التعاوني الدقيق، وارتباط بعضهم ببعض برباط متين من ناحية أُخرى، على أن ينهضوا نهضةً عُظمى في جميع نواحي الحياة، ثمَّ البهريون والاثنا عشريون من

الشيعة، وهم ذوو مركز اقتصادي طيب أيضاً، وأمّا الأباضيون، فهم على ما يبدو أقلّ ثراءً من الأولين، وأمّا أهل السنّة، وهم جمهور المسلمين، فيأتون أخيراً، وهم أكثرهم فقراً، على الرغم من أنّه يوجد من بينهم أفراد قلائل يملكون ثروات طائلة، ونظراً إلى أنّه لا يوجد بين المسلمين هناك ما يمكن أن يعتبر وحدة اقتصادية، فلا مراء في أنّه يوجد بينهم كثير من المساعدات المالية المشكورة التي يقدّمها أرباب الثراء منهم للمعسرين على اختلاف فِرقهم وطوائفهم، وتتمثّل تلك المساعدات في نواحي شتّى، والمساجد ناحية منها، فنجد أغنياء الشيعة ـ مثلاً ـ يساهمون بنصيب كبير في بناء مساجد أهل السنة أو في إصلاحها. للتفصيل أُنظر: حب الله، محمد، الإسلام والمسلمون في شرق إفريقيا، مجلّة الدراسات الإفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية: العدد ٣٧، ص٧ـ١١.

iua. edu. sd/shariea/iua_magazine/african_studies/٣٧. htm.

[٥] للتفصيل حول شخصية الشيخ إبراهيم زكزكي أُنظر: أمين، محمد، تاريخ السيد الزكزكي، موقع الحركة الإسلامية في نيجيريا، الأربعاء، ٣ نيسان (٢٠١٣)، www. alharakah. net/index.

[٦] أُنظر: موسى، محمد الثاني عمر، الشيعة في نيجيريا (النشأة والوسائل)، مجلّة قراءات إفريقية: العدد٣، ذي الحجة (١٤٢٩) ـ ديسمبر (٢٠٠٨)، ص٤١ـ٤٢.

http: //www. qiraatafrican. com/_pdf/n٤. pdf.

[٧] شبكة الكفيل العالمية، موقع العتبة العباسية المقدّسة. www. alkafeel. net/ar-news.

[٨] أُنظر: هاشمي، نشأة الحركة الإسلامية في نيجيريا، موقع الحركة الإسلامية في نيجيريا، الأربعاء (٦ شباط/ ٢٠١٣م): www. alharakah. net/index.

[٩] أُنظر: مؤسّسة الرسول الأعظم، من نشاطات مؤسّسة الإمام الحسين عليه السلام الإسلامية في أُوغندا: www. alrsool. org.

[١٠] للتفصيل حول واقع الجالية اللبنانية في إفريقيا، أُنظر: مهدي، محمد عاشور، الوجود اللبناني في إفريقيا: قضايا الماضي والواقع وآفاق المستقبل، مجلة الدراسات الإفريقية، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية: العدد ٣٦، ص١ ـ ٣٥.

iua. edu. sd/shariea/iua_magazine/african_studies/٣٦. htm.

[١١] أُنظر: المنكوشي، حيدر، وجه الإسلام في أطراف القارة السمراء، موقع الإعلام الدولي، الموقع الرسمي لشعبة الإعلام في العتبة الحسينية المقدّسة: ٩/ أيلول/٢٠١٣م.

http: //www. imhussain. com/view٧٧١. html.

[١٢] يوسف، جهاد، السنغال (إسلامها عريق ونشاطٌ لتعزيزه رغم الصعوبات)، مجلّة نور الإسلام الإلكترونية، شبكة الإمامين الحسنين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلامي:

http: //www. alhassanain. com/arabic/magazin/noor_al_islam/١٦/٥٠-٤٩. html.

[١٣] أُنظر: صحيفة صدى المهدي الإلكترونية، مركز الدراسات التخصّصية في الإمام المهدي عجل الله

تعالى فرجه الشريف، النجف الأشرف، العدد ٥٧، السنة الخامسة، (صفر ١٤٣٥هـ ـ كانون الأوّل ٢٠١٣م): ص٥.

www. m-mahdi. net/sada-almahdi/pdf/add٥٧. pdf.

[١٤] المصدر السابق.

[١٥] للتفصيل أُنظر: صحيفة الوسط الإلكترونية.

http://www.alwasat.com.kw/news/templates/wassat-orange.aspx?articleid=٩٩٤٩zoneid=٧.

[١٦] للتفصيل أُنظر: مركز آل البيت العالمي للمعلومات، مركز الهادي للثقافة والإرشاد الإسلامي:

http: //www. al-shia. org/html/ara/others/index. php?mod=marakez id=٧٩

د. الشيخ على حمود العبادي
باحث واكاديمي في الحوزة العلمية / العراق

العنايات الإلهية بالإمام الحسين عليه السلام

مدخل

تتمحور هذه الدراسة حول ذكر بعض العنايات الإلهية بالإمام الحسين عليه السلام، والتي أضاءتها النصوص القرآنية والروائية بأروع بيان، وبروح برهانيّة وعناصر استدلالية؛ لتُبيِّن لنا أنّ الإمام الحسين عليه السلام من الذرِّية الطاهرة، ذرِّية الأنبياء والأوصياء، وإمام معصوم قد خصّه الله تعالى بالتشريف والتعظيم.

وسيتّضح من خلال ما سنبيِّنه في هذه الدراسة حقيقة وماهية هذه العنايات الإلهية، والاستدلال عليها بما ورد في النصوص القرآنية والروائية التي تبلغ حدّ الاستفاضة أو التواتر ـ ما يغنينا عن البحث السندي ـ مع الاستئناس بأقوال علماء الفريقين، وسنحاول ذكر بعض الشبهات والإشكاليات ونجيب عنها.

وعليه؛ ستكون منهجة البحث وتقسيمه بالنحو التالي:

تقسيم البحث

سيتم البحث في هذهِ الدراسة ـ إن شاء الله ـ عن ثلاث عنايات قد خصّ الله بها الإمام الحسين عليه السلام، سيد شباب أهل الجنة، وريحانة جدّه عليها السلام، وهي:

الأُولى: إنّ الحسين عليه السلام امتداد لذرّية الأنبياء عليهم السلام.

الثانية: طهارة أصلاب آباء الإمام الحسين عليه السلام وأرحام أُمهاته.

الثالثة: خلق الإمام الحسين عليه السلام من طينة طاهرة.

العناية الأُولى: الإمام الحسين عليه السلام امتداد لذرّية الأنبياء الطاهرة

إنّ كون الشخصية ـ أياً كانت ـ من ذرّية الأنبياء والمرسلين هو من العنايات الربّانية التي تعكس المقام الشامخ لتلك الشخصية، والتي لا تتيسر لكلّ أحد، والاستدلال على أنّ الإمام الحسين عليه السلام امتداد للذرّية الطاهرة للأنبياء، يتوقّف على بيان عدّة مقدّمات تساهم في بناء إطار واضح للموضوع، وهي:

المقدمة الأُولى: إنّ الأنبياء من ذرّية واحدة.

المقدمة الثانية: إنّ النبي عليها السلام من ذرّية الأنبياء عليهم السلام.

المقدمة الثالثة: إنّ الإمام الحسين من ذرية النبي عليهما السلام.

والنتيجة: إنّ الإمام الحسين عليه السلام من ذرّية الأنبياء عليهم السلام.

المقدّمة الأولى: الأنبياء عليهم السلام من ذرّية واحدة

من الحقائق التي أضاءها القرآن الكريم في نصوص وافرة هي كون الأنبياء من ذرّية واحدة، حيث استوفت النصوص المباركة جميع جوانب المسألة، وهي تغني عن إقامة أيّ دليل آخر، ومن هذه النصوص القرآنية:

١ــ قوله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا**

عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ...﴾[1].

٢ـ قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ * فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

٣ـ قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[3].

٤ـ قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾[4].

ومن خلال هذه الآيات المباركات نفهم بوضوح أنّ الأنبياء من ذرّية واحدة، وأنّ مواريث النبوّة لا تخرج عن هذه الذرّية الطيِّبة، وأنّ هذا من الحقائق والسُّنن القرآنية التي لا غبار عليها؛ وممّا يؤيد ذلك أيضاً أقوال العلماء في هذا المجال، يقول الشيخ الطبرسي في تفسير قوله تعالى: (ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ): «**آل إبراهيم: إسماعيل وإسحاق وأولادهما. و(آل عمران): موسى وهارون ابنا عمران بن يصهر. (بعضها من بعض) يعني: أنّ الآلين ذرّية واحدة متسلسلة بعضها متشعِّب من بعض**»[5]. ويقول الطباطبائي في تفسير قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾: «**الذرّية في الأصل صغار الأولاد على ما**

ذكروا، ثمّ استُعملت في مطلق الأولاد، وهو المعنى المراد في الآية... وفي قوله: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ دلالة على أنّ كلّ بعض فرض منها يبتدئ وينتهي من البعض الآخر وإليه، ولازمه كون المجموع متشابه الأجزاء، لا يفترق البعض من البعض في أوصافه وحالاته، وإذا كان الكلام في اصطفائهم أفاد ذلك أنّهم ذرّية لا يفترقون في صفات الفضيلة التي اصطفاهم الله لأجلها على العالمين»[٦]. ويقول الزمخشري أيضاً في بيان قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾: «**يعني: أنّ الآلين ذرّية واحدة متسلسلة بعضها متشعِّب من بعض**»[٧]. فتبيَّن أنّ الأنبياء من ذرّية واحدة.

المقدّمة الثانية: النبي الأكرم صلى الله عليه وآله من ذرّية الأنبياء

من الحقائق المُسَلَّمة بين المسلمين ـ والتي تُبرَز إلى جوار ما تقدّم من كون الأنبياء من ذرّية واحدة ـ هي الحقيقة التي تشير إلى كون نبينا الأكرم محمّد صلى الله عليه وآله من ذرّية الأنبياء، فلم يشكك أحد في كونه من ذرّية إبراهيم عليه السلام والذرّية الطاهرة للأنبياء عليهم السلام. ورغم أنّ هذا الأمر واضح ومتّفق عليه، إلّا أنّنا نعزّز البحث بذكر بعض الشواهد وأقوال العلماء:

١ــ روى المحدِّث القمّي ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ـ قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أنا دعوة أبي إبراهيم**»[٨].

٢ـ وفي تفسير العياشي، عن أبي عمرو الزبيري عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قلت له: أخبرني عن أُمّة محمد صلى الله عليه وآله مَن هم؟ قال: أُمّة محمد بنو هاشم خاصّة، قلت: فما الحجّة في أُمّة محمد أنّهم أهل بيته الذين ذُكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ**

وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فلمّا أجاب الله إبراهيم وإسماعيل، وجعل من ذريتها أُمّةً مسلمة، وبعث فيها رسولاً منها، يعنى: من تلك الأُمّة، يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة، ردف إبراهيم دعوته الأُولى بدعوة أُخرى فسأل لهم تطهيراً من الشرك، ومن عبادة الأصنام؛ ليصحّ أمره فيهم، ولا يتّبعوا غيرهم، فقال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فهذه دلالة على أنّه لا تكون الأئمّة والأُمّة المسلمة التي بعث فيها محمد عليها السلام إلّا من ذرّية إبراهيم لقوله: واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام»[٩].

٣ــ وأخرج ابن المغازلي في المناقب، عن عبد الله بن مسعود، قال: «قال رسول الله ﷺ: أنا دَعْوَةُ أبي إبراهيم. قلنا: يا رسول الله، وكيف صِرْتَ دعوة أبيك إبراهيم؟ قال: أوحى الله تعالى إلى إبراهيم: ﴿نِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ فاستَخَفَّ إبراهيم الفَرَحُ، قال: يا رَبِّ، ومِنْ ذُرِّيَّتِي أئمّة مِثْلي، فأوحى الله إليه أن يا إبراهيم إنّي لا أُعطيك عهداً لا أفي لك به. قال: يا ربّ، ما العهد الذي لا تفي لي به. قال: لا أعطيك لظالم من ذُرِّيَّتك. قال إبراهيم عندها: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾، قال النبيّ ﷺ: فَانْتَهَتِ الدَّعوةُ إليَّ وإلى عَلِيّ لم يَسْجُدْ أحدٌ منّا لِصَنَم قطُّ، فاتَّخَذني الله نَبيّاً واتَّخذ عَلِيّاً وَصِيّاً»[١٠].

٤ـ وقال الطبري في تفسيره، عن قتادة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ

وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾: «ذكر الله أهلَ بيتين صالحين ورجلين صالحين، ففضَّلهم على العالمين، فكان محمد من آل إبراهيم»[11].

٥ـ وقال الطباطبائي في بيان قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ**﴾: «**آل إبراهيم: فظاهر لفظه أنّهم الطيِّبون من ذرّيته، كإسحاق وإسرائيل، والأنبياء من بني إسرائيل وإسماعيل والطاهرون من ذرّيته وسيدهم محمد** ﷺ»[12].

المقدمة الثالثة: الإمام الحسين عليه السلام من ذرية النبي الأكرم ﷺ

إنّ كون الإمام الحسين من ذرّية النبي ﷺ من الحقائق المسلَّمة بين جميع المسلمين، حيث توفَّرت نصوص قرآنية دالّة على ذلك، كآية التطهير والمباهلة والمودّة وغيرها، مضافاً إلى ما احتشدت به الكتب والمجامع الروائية من الشواهد الدالّة على ذلك، مما لا يسع المقام لاستقصائه.

إشكال وجوابه:

قد يُطرح إشكال مفاده: إنّ كون الشخص من أولاد البنت، لا يصيّره من أبناء آبائها، باعتبار أنّ قانون الذراري والأجداد يؤخذ من جدّ الأب لا الأُمّ، فكيف يكون الإمام الحسين من ذرّية النبي ﷺ مع أنّه عليه السلام من أبناء فاطمة عليها السلام بنت النبي ﷺ، وأبناء البنت ليسوا من الذراري والأبناء لآباء الأُم بالاصطلاح المعروف؟ !

والجواب: إنّ القرآن الكريم قد جعل ابن البنت من ذرّية آباء البنت، كما في قوله تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ**﴾[13].

قال الشيخ الطوسي: «**إذا وقف على أولاده، وأولاد أولاده، دخل أولاد البنات فيه، ويشتركون فيه مع**

أولاد البنين، الذكر والأنثى فيه سواء كلّهم. وبه قال الشافعي، دليلنا [أي دليل الإمامية]: إجماع المسلمين على أنّ عيسى بن مريم من وُلد آدم، وهو ولد بنته؛ لأنّه ولِد من غير أب»[١٤].

وقال القرطبي: «**أي: ذرّية إبراهيم... وقال ابن عباس: هؤلاء الأنبياء جميعاً مضافون إلى ذرّية إبراهيم وإن كان فيهم مَن لم تلحقه ولادة من جهته من جهة أب ولا أمٌّ؛ لأنّ لوطاً ابن أخي إبراهيم، والعرب تجعل العم أباً، كما أخبر الله عن ولد يعقوب أنّهم قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾**[١٥]. **وإسماعيل عمّ يعقوب، وعدّ عيسى من ذرّية إبراهيم وإنّما هو ابن البنت، فأولاد فاطمة رضي الله عنها ذرّية النبي صلى الله عليه وآله**»[١٦].

الحكمة في جعل الأوصياء والأنبياء عليهم السلام من ذرّية واحدة

بعد أن ثبت كون الإمام الحسين عليه السلام من ذرّية الأنبياء، يأتي هذا السؤال: ما هي الحكمة في جعل الأوصياء والأنبياء من ذرية واحدة؟ وهل يُعدّ ارتباط الإمام الحسين عليه السلام بالنبي محمد صلى الله عليه وآله ـ باعتباره من ذرّيته ـ من جملة العنايات الإلهية لنفس الإمام عليه السلام، أم لا؟ ولماذا؟

وسنجيب عن هذا التساؤل بالوجهين التاليين:

الأول: لعل الحكمة في جعل الأنبياء من ذرّية واحدة هو: أنّ الذرّية عادة ما يكون لها من الاستعداد للإعداد الربّاني ولتحمّل مسؤولية الرسالة والولاية أكثر ممّا تكون خارج دائرة الذرّية؛ ومن هنا نجد أنّ إعداد الوصي للرسالة من ذرّية الرسول أو النبي يكون له الدور الكبير والأثر البالغ في تحقيق أهداف الرسالة؛ وذلك لأنّ القرابة تُعَدّ عادة الإطار السليم للتربية والإعداد للقيام بالدور الربّاني، فالقرابة ليس لها أيّ أثر عند الباري تعالى، إلّا إذا كانت تصبُّ في تحقيق أهداف

الرسالة من خلال الإعداد السليم للتربية وتحمّل المسؤولية.

لاسيما إذا لا حظنا أنّ الرسول الحامل للرسالة عادة ما يكون عمره أقصر من عمر الرسالة ومهمّاتها؛ وهذا ما نلمسه واضحاً في كثير من الرسالات السماوية، وبالذات الرسالة الإسلامية، حيث كان عمر النبي ﷺ قصيراً نوعاً ما، وذلك لأنّه توفّي بعد مضي ثلاث وعشرين سنة من البعثة الشريفة، بالرغم من الجهود الكبيرة التي بذلها، والإنجازات الواسعة التي حقّقها في غضون هذه المدّة القصيرة، لكن بقيت أعباء الرسالة قائمة في جميع المجالات، سواء في مجال فهم وتوضيح الرسالة، أو مجال تطبيقها وتثبيتها، أو غير ذلك من المجالات التي تحتاج مَن يتحمّل أعباءها.

الثاني: إنّ القرابة والذرّية الواحدة وإن لم يكن لها أيّة مدخلية في الحساب يوم القيامة، كما في قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ**﴾[17]، ولكنّه يُعدّ من العوامل المؤثِّرة في حركة المجتمع وتكامله وبناء علاقاته الإنسانية؛ وذلك لأنّ الناس يتفاعلون ويتأثرون بهذا العامل الاجتماعي، كما نلمسه واضحاً في تاريخ الأُمم والمجتمعات الإنسانية السابقة واللاحقة، فيتفاضلون ويفتخرون ويتأثرون به؛ لذلك نجد أنّ من شرائط النبي أو الإمام هو أن لا يكون فيه جنحة مخلّة بوضعه الاجتماعي، وأن لا يكون من عائلة وضيعة وغير شريفة، وغير ذلك من الشرائط التي يتناولها علماء الكلام في بحث مواصفات الأنبياء والأئمّة.

ومن الواضح أنّ هذه الأبعاد نجدها متوفِّرة في أهل البيت عليهم السلام، ومن العوامل التي تساهم في توفّر هذه الأبعاد في الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام هو كونهم من ذرّية واحدة؛ إذ لو لم يكونوا من نسب واحد وبيت واحد، وكانوا متفرّقين ومن قبائل شتّى، لم

يكن للرسالة أن تحقّق غرضها بقدر ما لو كانوا من ذرّية واحدة وبيت واحد.

وبهذا يتّضح أنّ الحكمة من جعل الإمام الحسين عليه السلام من ذرّية الأنبياء عليهم السلام هو أنّ الذرّية الواحدة المتسلسلة، تُعدّ من أهم آليات الإعداد الإلهي للأنبياء والأوصياء. وهذا الأمر نجده واضحاً في تاريخ الرسالات والأنبياء، فقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...﴾[18]. وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[19].

العناية الثانية: طهارة أصلاب آباء الإمام الحسين عليه السلام وأرحام أُمهاته

إنّ إثبات طهارة أصلاب آباء الإمام الحسين عليه السلام وأرحام أُمهاته يتطلّب منّا إثبات طهارة أصلاب آباء النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأرحام أُمهاته؛ باعتبار أنّه ثبت في العناية الأُولى أنّ الإمام الحسين عليه السلام من ذرّية النبي صلى الله عليه وآله، وحينها سيثبت كونه عليه السلام من أصلاب وأرحام طاهرة.

نعم، يبقى إثبات طهارة أبوي الإمام الحسين عليه السلام المباشرَين، وهما: الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، وطهارتهما أوضح من أن تُذكَر أو يُستدَلّ عليها، كما نصّت على ذلك آية التطهير. وكذا الحال بالنسبة إلى جدّه أبي طالب فطهارته من الشرك والسفاح من

ضروريات المذهب الإمامي الاثني عشري.

ولنتكلّم حول طهارة أصلاب وأرحام آباء وأُمهات النبي محمد ﷺ، فنقول: من الواضح أنّ المقصود من الطهارة ما يشمل جهتين:

١ـ الطهارة من الشرك.

٢ـ الطهارة من السفاح.

وسنبحث في هاتين الجهتين بشيء من التفصيل:

الجهة الأُولى: الطهارة من الشرك

هناك مجموعة من النصوص القرآنية والروائية التي تدلّ على طهارة آباء وأُمّهات نبيّنا الأكرم محمد ﷺ من الشرك، من لدن آدم وحوّاء عليهما السلام، إلى أبيه عبد الله وأُمه آمنة عليهما السلام:

أمّا من القرآن الكريم: فقوله تعالى: ﴿**الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾[٢٠]، وهي واضحة الدلالة على أنّ النبي ﷺ كان يتقلّب في أصلاب الموحِّدين، وهذا هو الموافق للروايات المعتبرة وآراء العلماء في تفسير هذه الآية المبارك.

فقد روى القمّي في تفسيره عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾، قال: «**في أصلاب النبيّين**»[٢١]. وفي نصٍّ آخر يرويه المجلسي، عن أبي الجارود، قال: سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن قوله: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾، قال: «**تقلّبه في أصلاب الموحِّدين من نبيّ إلى نبيّ، حتى أخرجه من صُلب أبيه من نكاح غير سفاح من لدن آدم** عليه السلام»[٢٢]. وأخرج الطبراني بسنده عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾، قال رسول الله ﷺ: «**من صلب نبيّ إلى نبيّ حتى أُخرجتُ نبيّاً**»[٢٣].

وقال المفيد في ذيل هذه الآية المباركة: «**يريد به: تنقّله في أصلاب الموحِّدين، وقال نبيّنا ﷺ: ما زلت أتنقّل من أصلاب الطاهرين إلى**

أرحام المطهَّرات، حتى أخرجني الله تعالى في عالمكم هذا. فدلّ على أنّ آباءه كلّهم كانوا مؤمنين؛ إذ لو كان فيهم كافرٌ لما استحقَّ الوصف بالطهارة؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ...﴾[٢٤]؛ فحكم على الكفّار بالنجاسة، فلمّا قضى رسول الله ﷺ بطهارة آبائه كلّهم ووصفهم بذلك، دلّ على أنّهم كانوا مؤمنين»[٢٥].

وقال الماوردي في تفسير هذه الآية: «**أي: تقلّبك في أصلاب طاهرة من أبٍ بعد أبٍ إلى أن جعلتك نبيّاً، وقد كان نور النبوّة في آبائه ظاهراً**»[٢٦].

دفع توّهم

هناك **توهُّم** مفاده: إنّه لا يلزم ممّا ذُكِر أن يكون جميع آبائه النسبيِّين موحِّدين؛ وذلك لأنّ قوله تعالى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ يصدق حتى لو كان بعض آباء النبي ﷺ موحِّدين.

الجواب: إنّ هذا الإشكال غير تامّ من جهتين:

الأُولى: إنّ الآية المباركة وهي قوله تعالى: ﴿**وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**﴾ كانت في مقام الامتنان والمدح للنبي ﷺ، ومن الواضح أنّ مقام الامتنان والمدح له ﷺ يقتضي شمول جميع آبائه في العمود النّسَبي؛ وذلك لأنّ الآية لو كانت بصدد بيان أنّ بعض آبائه موحِّدون دون غيرهم، فلا يكون ذلك مدحاً وامتناناً للنبي ﷺ؛ لأنّه ممّا يشترك فيه جميع الناس؛ وحينئذٍ لا يكون ذلك من مزاياه.

وعلى هذا؛ لا بدّ أن تُحمَل دلالة الآية على جميع آبائه بلا استثناء، مضافاً إلى ما ذكرنا من الروايات والنصوص التي تؤكّد على طهارة أجداد وآباء النبي ﷺ جميعاً.

الثانية: قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ**

السَّـمِيعُ الْعَلِـيمُ * رَبَّنَـا وَاجْعَلْنَـا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ...﴾ [٢٧]؛ وهي واضحة الدلالة على استمرار الذرّية المسلمة وعدم انقطاعها.

وعلى هذا؛ فالقول بأنّ بعض آباء النبيّ غير موحِّدين؛ باطل؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام قد طلب أن تكون من ذرّيته أُمّة مسلمة مستمرة، ومن الواضح أنّه قد استُجيبت هذه الدعوة، وكان من أبرز مصاديق ذرّية إبراهيم المسلمة المستمرّة هو النبيّ محمد صلى الله عليه وآله. وتختص هذه الجهة بالسلسلة النسبية بين إبراهيم ونبيّنا الأكرم.

وأما النصوص الروائية: فهناك عدد وافر من الروايات التي تتحدّث عن طهارة آباء النبي من الشرك، بَيْد أنّ الشيء الذي ينبغي التذكير به هو أنّ هذه الروايات متواترة ومتضافرة عند الشيعة الإمامية، وكذلك عند غيرهم الكثير من الروايات التي تنزِّه آباء النبي صلى الله عليه وآله من الكفر والشرك.

ورد في البحار ما نصّه: «**إنّ آباء النبيّ صلى الله عليه وآله كانوا من الصدّيقين، إمّا أنبياء أو أوصياء معصومين**»[٢٨]. وقد نقل إجماعَ الإمامية على ذلك كلٌّ من الشيخ المفيد[٢٩]، والطبرسي في مجمع البيان[٣٠].

وروي عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنّه قال: «**لم يزل الله ينقلني من صُلب نبيّ إلى صُلب نبيّ حتى صرت نبيّاً**»[٣١]. ويدلّ على ذلك أيضاً ما سيأتي من الروايات المصرِّحة بطهارة آباء النبي صلى الله عليه وآله من السفاح، وهي شاملة بإطلاقها للطهارة من دنس الشرك. وقد صرّح بذلك كلٌّ من المسعودي[٣٢] واليعقوبي[٣٣] والماوردي في أعلام النبوَّة[٣٤]، وغيرهم.

الجهة الثانية: طهارة آباء النبي عليها السلام من السفاح

لا يخفى أنّ طهارة آباء النبي من

السفاح يُعدّ عند الشيعة الإمامية من البدهيات التي تعلو على البرهنة والاستدلال؛ حيث دلّت على ذلك الروايات المتضافرة، من قبيل ما رواه الشيخ الصدوق، عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «**خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم** عليه السلام»[٣٥]. وما في كنز الفوائد عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «**نُقلتُ من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهَّرة نكاحاً لا سفاحاً**»[٣٦].

وأمّا الروايات الواردة من طرق أهل السنّة فهي كثيرة أيضاً، منها:

١ـ ما رواه الطبراني عن النبي ﷺ، أنّه قال: «**خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأُمّي**»[٣٧].

٢ـ ما ورد في السيرة الحلبية، عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «**لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام المطهَّرة**»[٣٨]. وفيها أيضاً، قوله ﷺ: «**لم يزل الله ينقلني من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهرات حتى أخرجني في عالمكم هذا، ولم يُدنِّسني بدنس الجاهلية**»[٣٩].

٣ـ ما رواه ابن سعد في طبقاته، عن النبيّ الأكرم ﷺ أنّه قال: «**قسَّم الله الأرض نصفين، فجعلني في خيرها، ثمّ قسّم النصف على ثلاثة، فكنتُ في خير ثلث منها، ثمَّ اختار العرب من الناس، ثمَّ اختار قريشاً من العرب، ثمَّ اختار بني هاشم من قريش، ثمَّ اختار بني عبد المطلب من بني هاشم، ثمَّ اختارني من بني عبد المطلب**»[٤٠].

٤ـ ما أخرجه أحمد والترمذي ـ واللفظ للثاني ـ عن رسول الله ﷺ، أنّه قال: «**أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إنّ الله خلق الخلق، فجعلني في خيرهم فرقة، ثمَّ جعلهم فرقتين، فجعلني في خيرهم فرقة، ثمَّ جعلهم قبائل، فجعلني في خيرهم قبيلة، ثمَّ جعلهم بيوتاً، فجعلني في خيرهم**

بيتاً وخيرهم نسباً. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن»[٤١].

٥ـ ما أخرجه ابن عساكر، عن ابن عباس، قال: «**سألت رسول الله ﷺ، قلت: فداك أبي وأُمّي ! أين كنتَ وآدم في الجنّة؟ قال: فتبسّم حتى بدت ثناياه، ثمَّ قال: كنتُ في صُلبه ورُكب بي السفينة في صُلب أبي نوح، وقُذف بي في صُلب إبراهيم، لم يلتقِ أبواي قطّ على سفاح، لم يزل الله تعالى ينقلني من الأصلاب الحسنة إلى الأرحام الطاهرة، صفيّ مهديّ، لا يتشعّب شعبتان إلّا كنتُ في خيرهما، قد أخذ الله تعالى بالنبوّة ميثاقي وبالإسلام عهدي، وبشّر في التوراة والإنجيل ذكري، وبيَّن كل نبيّ صفتي، تشرق الأرض بنوري والغمام لوجهي**»[٤٢].

وممّا بيّناه اتضح أنّ نسَب النبي ﷺ طاهر مطهَّر من الشرك ودنس السفاح.

إشكالية أنّ أبا إبراهيم عليه السلام لم يكن موحِّداً

حاصل هذه الإشكالية: أنّ بعض الوسائط في العمود النّسَبي لرسول الله ﷺ لم تكن وسائط مؤمنة كما ذكر ذلك القرآن الكريم في قصّة أبي النبي إبراهيم عليه السلام، الذي يظهر من بعض الآيات الشريفة كونه مشركاً، كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ...**﴾[٤٣]؛ وهذه الآيات وما يقع في سياقها تدلّ بوضوح على أنّ أبا النبي إبراهيم عليه السلام كان مشركاً، فينتقض الاستدلال المتقدّم.

الجواب: المراد في الآية هو عمّ إبراهيم، فإنّ إجماع الإمامية قائم على أنّ الذي استغفر له إبراهيم في الآية آنفة الذكر هو (آزر) وهو عمّ إبراهيم عليه السلام؛ وعلى هذا لا يصحّ النقض به؛ لأنّ محل الكلام في العمود النسبي لرسول الله ﷺ.

فقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه قال: «**كان آزر عمّ إبراهيم عليه السلام منجِّماً لنمرود، وكان لا يصدر إلّا عن رأيه...**»[٤٤].

وهذا النصّ يؤكّده قوله تعالى: ﴿**أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾[٤٥]، حيث جعلت الآية المباركة إسماعيل أباً ليعقوب، والحال أنّه عمّه، كما هو واضح. وقد كان هذا متعارفاً عند العرب، حيث يطلقون لفظ الأب على العمّ، فيسمّون العمّ أباً، وكذا ابن الأخ ابناً.

والنتيجة المتحصِّلة في المقام: ثبوت طهارة أرحام وأصلاب آباء الإمام الحسين عليه السلام، لما ثبت آنفاً من أنّ الحسين ابن النبيّ صلى الله عليه وآله، وبينه وبين النبيّ واسطة واحدة وهي فاطمة الزهراء عليها السلام، وطهارتها من الواضحات كما نصَّ عليه القرآن الكريم، كما في آية التطهير، وغيرها من النصوص القرآنية والروائية، وكذلك يُثبِت طهارةَ أرحام وأصلاب آباء الإمام الحسين عليه السلام ما ورد في زيارته بشكل واسع لا يسع المقام لذكره.

العناية الثالثة: خلق الإمام الحسين عليه السلام من طينة طاهرة

لا يخفى أنّ بحث الطينة هو من الغيب المختصّ بالله تعالى، فلا بدّ أن يكون طريق العلم به من قبله﴿، أو من طريق أنبيائه وأوليائه، وقد وردت روايات متضافرة تدلّ على أنّ الله تعالى قد خلق أهل البيت عليهم السلام من طينة طاهرة، وهذه الروايات شاملة للإمام الحسين عليه السلام كما هو واضح، وسيأتي إن شاء الله.

وهذه الروايات على وفرتها تُغنينا عن الدخول في غمرة البحث السندي لحصول الاطمئنان بصدور بعضها؛ لذا نستعرض البعض على سبيل المثال:

١ــ روى الصدوق بسنده، عن إسحاق القمّي، قال: «**دخلت على أبي جعفر الباقر عليه السلام... فقال: يا إسحاق، ليس تدرون من أين أوتيتم؟ قلت: لا والله، جعلت فداك، إلّا أن تخبرني، فقال: يا إسحاق، إنّ الله تعالى لمّا كان متفرّداً بالوحدانية ابتدأ الأشياء لا من شيء، فأجرى الماء العذب على أرض طيبة طاهرة سبعة أيام بلياليها، ثمّ نضب الماء عنها، فقبض قبضة من صفوة ذلك الطين، وهي طينة أهل البيت، ثمَّ قبض قبضة من أسفل ذلك الطين وهي طينة شيعتنا، ثمَّ اصطفانا لنفسه، فلو أنّ طينة شيعتنا تُرِكَت كما تُرِكَت طينتنا، لما زنى أحد منهم، ولا سرق، ولا لاط، ولا شرب المسكر، ولا اكتسب شيئاً ممّا ذكرت، ولكن الله تعالى أجرى الماء المالح على أرض ملعونة سبعة أيام ولياليها، ثمَّ نضب الماء عنها، ثمَّ قبض قبضة، وهي طينة ملعونة من حمأٍ مسنون، وهي طينة خبال وهي طينة أعدائنا، فلو أنّ الله تعالى ترك طينتهم، كما أخذها لم تروهم في خلق الآدميين، ولم يقرّوا بالشهادتين، ولم يصوموا، ولم يصلّوا، ولم يزكّوا، ولم يحجّوا البيت، ولم تروا أحداً منهم بحسن خلق، ولكن الله تبارك وتعالى جمع الطينتين: طينتكم وطينتهم، فخلطها وعركها عرك الأديم ومزجها بالمائين...**»[٤٦].

٢ــ في البحار، عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ الله خلق محمداً وطينته من جوهرة تحت العرش، وأنّه كان لطينته نضح، فجبل طينة أمير المؤمنين عليه السلام من نضح طينة رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان لطينة أمير المؤمنين نضح، فجبل طينتنا من فضل طينة أمير المؤمنين عليه السلام**»[٤٧].

٣ـ روى القاضي النعمان، عن عمّار بن ياسر، قوله: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول: نوديت ليلة أُسري بي إلى السماء ـ إلى ربي ـ: يا محمد. قلتُ: لبيك وسعديك. قال: إنّي اصطفيتك لنفسي وانتجبتك لرسالتي، وأنت نبيي ورسولي وخير**

خلقي، ثمَّ الصدّيق الأكبر عليّ وصيك، خلقته من طينتك وجعلته وزيرك، وابناك الحسن والحسين. أنتم من شجرة، أنت ـ يا محمد ـ أصلها، وعليٌّ غصنها، والحسن والحسين ثمارها، خلقتكم من طينة علِّيين، وجعلتُ شيعتكم منكم، فقلوبهم تهوي إليكم. قلتُ: يا ربّ، هو الصدّيق الأكبر؟ قال: نعم، هو الصدّيق الأكبر»[٤٨].

٤ـ روى صاحب بصائر الدرجات، عن أبي الحجاج، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «**يا أبا الحجاج، إنّ الله خلق محمداً وآل محمد من طينة علِّيين، وخلق قلوبهم من طينة فوق ذلك، وخلق شيعتنا من طينةٍ دون علِّيين، وخلق قلوبهم من طينة علِّيين، فقلوب شيعتنا من أبدان آل محمد، وإنّ الله خلق عدو آل محمد من طين سجين، وخلق قلوبهم من طين أخبث من ذلك، وخلق شيعتهم من طين دون طين سجين، وخلق قلوبهم من طين سجين، فقلوبهم من أبدان أولئك، وكلّ قلب يحنّ إلى بدنه**»[٤٩].

وغير ذلك من الروايات الوافرة المصرِّحة بأنّ طينة أهل البيت عليهم السلام طاهرة مطهَّرة[٥٠].

إشكال الجبر وسلب الإرادة

حاصل الإشكال: إنّ أخبار الطينة ومسألة خلق الإنسان من طينات مختلفة، وأنّ الطينة إمّا من علِّيين أو من سجِّين، وأنّ لكلّ منها أثراً خاصاً في مصير الإنسان، كلّ هذا يتنافى مع اختيارية الإنسان.

الجواب: إنّ الطينة سواء كانت طاهرة أم لا، ليست علّة تامّة لفعل الإنسان؛ كي يقال: بأنّ الله تعالى إذا خلق عبداً من عباده من طينة طاهرة يلزم أن يكون مجبوراً على الطاعة؛ وذلك لأنّ الطينة الطاهرة جزء العلّة، وبنحو المقتضي؛ وعليه يبقى زمام الاختيار بيد الإنسان.

وللتوضيح أكثر نقول: إنّه لما ثبت في محلّه أنّ الله تعالى عالم بالأشياء قبل خلقها، وأنّه تعالى عادل حكيم، فعلى هذا يقتضي أن يعطي كلّ مستعدٍ لما استعدّ له، فلو فرضنا أنّ الله تعالى علم من شخص أنّه لا يريد إلّا الطاعة، وأنّه مستعدّ لأن يكون في مقام القرب الإلهي، فبمقتضى حكمته تعالى وعدله أن يوفّر له العوامل التي تساعده للوصول إلى هذا المقام، من دون أن يسلبه الاختيار، ونستطيع أن نقتبس ذلك من بعض الآيات والروايات:

منها: قوله: ﴿**كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[٥١]، وهي واضحة الدلالة على أنّ الله هو الذي يمنح عطاءه الجزيل على أساس الحكمة الإلهية التي تقتضي أن يكون العطاء على وفق إرادة الإنسان، وأنّ إرادته هي التي تحدّد ماهية وكمّية العطاء الإلهي.

ويؤكّد الطباطبائي ﵀ هذا المعنى في ذيل هذه الآية المباركة، حيث يقول: «وهذه الآية تفيد أنّ شأنه تعالى هو الإمداد بالعطاء، يمدُّ كلَّ مَن يحتاج إلى إمداده في طريق حياته ووجوده، ويعطيه ما يستحقّه، وأنَّ عطاءه غير محظور، ولا ممنوع من قبله تعالى، إلّا أن يمتنع ممتنع بسوء حظّ نفسه، من قِبَل نفسه لا من قِبَله تعالى»[٥٢].

إذن؛ الناس بإرادتهم هم الذين قسّموا أنفسهم إلى هؤلاء وإلى هؤلاء، فالذين أرادوا لأنفسهم أن يكونوا من أهل الخير والصلاح، فإنّ الله تعالى يمدّهم؛ لكي يوفَّقوا إلى الطاعة، والذين أرادوا العناد والعصيان، فالله تعالى يمدّهم على حسب ما أرادوا. وعلى هذا؛ فالإنسان هو الذي يبني آخرته بنفسه، والله تعالى يزوّده بالإمكانيات على حسب استعداد ذلك الإنسان وإرادته.

ومنها: قوله: ﴿**أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا...**﴾[٥٣]. ففي هذه

الآية المباركة يضرب الله تعالى مثلاً، فيقول: كما أنّ الأودية الكبيرة والأنهار الصغيرة تأخذ قدرها من المياه بحسب ما استعدّت له، كذلك الأمر فيما يأخذه الإنسان من العطاء الإلهي، فيأخذ كلٌّ بحسب إرادته وعلى قدر ما استعدّ له. فالله تعالى يمدّ الإنسان بالعطاء، لمن أراد العاجلة أو الآخرة، فالإناء هو الذي يلوّن العطاء الإلهي.

وهذا المعنى يمكن أن نلمسه بوضوح، في حديث الإمام الباقر عليه السلام في ذيل الآية المباركة، حيث يقول: «**أنزل الحق من السماء، فاحتملته القلوب بأهوائها، ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشكّ على قدر شكّه، فاحتمل الهوى باطلاً كثيراً وجفاءً، فالماء هو الحقّ، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهوى، والزبد هو الباطل**»[٥٤].

ومنها: قوله: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[٥٥]، أي: إنّ الله تعالى لم يجعلهم سمّاعين للخير؛ لأنّه تعالى علم منهم الإصرار على الهروب من الحقيقة، وأنّهم لا يريدون الخير والطاعة، ولو علم منهم أنّهم يطيعون لفتح قلوبهم وأسماعهم، ولو أعطاهم البصيرة، وفتح قلوبهم، فإنّهم لا يستفيدون منها.

ومنها: قوله: ﴿**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا**﴾[٥٦]. حيث بعث الله تعالى عبداً من عباده كي يقتل الغلام؛ لأنّه سيكون سبباً في كفر والديه؛ لطغيانه وسوء معاملته لهما والتضييق عليهما ومحاصرتهما في النشاط الروحي ﴿**فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ...**﴾، أي: أشدّ وصلاً للقرابة والرحمة، فلا يرهقهما بشيء، ومحلّ الشاهد في هذه الآية المباركة هو أنّ الله تعالى هيّأ للأبوين أسباب الطاعة لما علم بأنّهما يريدان الطاعة، وأنّهما مستعدّان لها؛ ولذا يكون سبب قتل الابن كونه مانعاً في وصول الأبوين

لكمالهما.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٥٧]، فالظاهر من الآية أنّ الله تعالى يرسم لنا قاعدة قرآنية مهمّة مفادها: أنّ مَن علمنا أنّه يريد الطاعة، فنحن نهيِّئ له مقدماتها، ومتى علمنا أنّه يريد الشرك ويريد العصيان والعناد، فالحكمة الإلهية اقتضت ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نهيئ له تلك المقدمات التي من خلالها يستطيع أن يأتي بفعله على وفق ما أراد؛ فـ «**كلٌّ ميسّر لما خلق له**»[٥٨]، أي: كلٌّ ميسّر لما أراد واستعدّ له.

وفي الرواية عن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**إنّ الله تعالى اختار من وُلد آدم أُناساً طهَّر ميلادهم، وطيَّب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لأمر استحقوه من الله تعالى. ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنّهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب، وساير الناس سواء، ألا مَن اتّقى الله أكرمه، ومَن أطاعه أحبّه، ومَن أحبّه لم يعذِّبه بالنار...**»[٥٩].

ويُشير إلى هذا المعنى الآلوسي في تفسيره، حيث يقول: «**ما ورد في الصحيح: اعملوا فكلّ ميسّر لما خلق له، أمّا مَن كان ـ أي: في علم الله ـ من أهل السعادة المستعدّة لها ذاته، فسيُيسّر بمقتضى الرحمة لعمل أهل السعادة؛ لأنّ شأنه تعالى الإفاضة على القوابل بحسب القابليات، وأمّا مَن كان في الأزل والعلم القديم من أهل الشقاوة التي ثبتت لماهيته الغير المجعولة أزلاً، فسيُيَسّر بمقتضى القهر لعمل أهل الشقاوة... فيؤول الأمر إلى أنّ سبب نفي إيجاد الهداية انتفاؤها في نفس الأمر، وعدم تقررها في العلم الأزلي، ولو علم الله**

فيهم خيراً لأسمعهم»[٦٠].

النتيجة: إنّ الله تعالى إذا علم بأنّ عبداً من عباده لا يريد إلّا القرب منه تعالى والطاعة والعبادة والصلاح، فبمقتضى حكمته وعنايته بخلقه أن يوفِّر لهم أسباب الوصول إلى مقام القرب الإلهي والطاعة، ومن جملة هذه الأسباب هي أن يخلقه من طينة طاهرة طيِّبة.

ومن ذلك يتّضح أنّ الطينة الطاهرة ليست علّة تامّة لكون الإنسان مطيعاً لله تعالى، سائراً في رضاه، كي يقال بأنّ الله تعالى إذا خلق عبداً من عباده من طينة طاهرة يلزم أن يكون ذلك العبد مجبوراً على الطاعة؛ وذلك لأنّ الطينة الطاهرة هي جزء العلّة، فالله تعالى خلق الإنسان ووهب له القوّة والقدرة على الفعل وعلى الترك، وهيَّأ له الأسباب، وجعله حرّاً مختاراً.

ويبدو هذا الأمر واضحاً في عصمة الأنبياء والأوصياء؛ فإنّ المعصوم - سواء فُسِّرت العصمة بالدرجة العليا من التقوى، أو أنّها نتيجة العلم القطعي بعواقب الأعمال والمعاصي، أو أنّها نتيجة الاستشعار بعظمة الباري تعالى - على جميع التقادير يكون مختاراً في فعله، وغير مسلوب الإرادة.

إشكالية صعوبة تعقّل أحاديث الطينة

الإشكالية تقول: إنّ أحاديث **الطينة** من الأحاديث الغريبة التي يصعب تعقّلها وإدراكها، فلا يمكن الاستدلال بها أساساً.

الجواب: إنّ أحاديث الطينة مستفيضة عند الفريقين؛ ولذا لا يمكن لأحد التشكيك في صدورها. وأمّا مجرّد الاستبعاد وصعوبة الفهم والتعقّل والإدراك، فإنّه ليس دليلاً على البطلان، وإلّا فإنّ أخبار الجنّة والنار بما لهما من الخصوصيات الغريبة والعجيبة أو أخبار السماء والملائكة، وكذلك أخبار نور النبي صلى الله عليه وآله الذي خُلق قبل ألفي عام كما في الروايات المتواترة من الفريقين، كلّها من

الأحاديث التي يصعب إدراكها وفهمها، فهل يصحّ ردّها والحكم ببطلان مضامينها؟ !

وبهذا ننتهي إلى أنّ الله تعالى أولى الإمامَ الحسين عليه السلام عنايات متعدّدة، من قبيل: جعله من ذرّية الأنبياء، وجعله وآبائه في أرحام وأصلاب طاهرة، وخلقه من طينة طاهرة.

الهوامش:

[١] الأنعام: آية ٨٤ ـ ٨٩.
[٢] آل عمران: آية ٣٨ ـ ٣٩.
[٣] العنكبوت: آية ٢٧.
[٤] مريم: آية ٥٨.
[٥] الطبرسي، الفضل بن الحسن، تفسير جوامع الجامع: ج١، ص٢٧٩.
[٦] أُنظر: الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج٣، ص١٦٧ ـ ١٦٩.
[٧] أُنظر: الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف: ج١، ص٤٢٤.
[٨] أُنظر: القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج١، ص٦٢.
[٩] أُنظر: العياشي، محمد بن مسعود، تفسير العياشي: ج١، ص٦٠ ـ ٦١.
[١٠] ابن المغازلي الشافعي، علي بن محمد، مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام: ص ٢٢٤.
[١١] أُنظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ج٣، ص٣١٧.
[١٢] أُنظر: الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج٣، ص١٦٥ـ ١٦٦.
[١٣] الأنعام: آية ٨٤ ـ ٨٥.
[١٤] أُنظر: الطوسي، محمد بن الحسن، الخلاف: ج٣، ص٥٤٦ـ ٥٤٧.
[١٥] البقرة: آية ١٣٣.
[١٦] أُنظر: القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن: ج٧، ص٣١.
[١٧] المؤمنون: آية ١٠١.
[١٨] الحديد: آية ٢٦.
[١٩] الأنعام: آية ٨٣ ـ ٨٧.
[٢٠] الشعراء: آية ٢١٨ـ ٢١٩.
[٢١] أُنظر: القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمّي: ج٢، ص١٢٥.
[٢٢] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١٥، ص٣، ح٢.
[٢٣] الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الكبير: ج١١، ص٢٨٧.
[٢٤] التوبة: آية ٢٨.
[٢٥] المفيد، محمد بن محمد، تصحيح اعتقادات الإمامية: ص١٣٩.

[٢٦] أُنظر: الماوردي، علي بن محمد، أعلام النبوة: ص٢٣٣.
[٢٧] البقرة: آية١٢٧ـ ١٢٨.
[٢٨] أُنظر: المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١٥، ص١١٧.
[٢٩] أُنظر: المفيد، محمد بن محمد، تصحيح اعتقادات الإمامية: ص١٣٩.
[٣٠] أُنظر: الطبرسي، الفضل بن الحسن، مجمع البيان: ج٤، ص٩٠.
[٣١] أُنظر: الهيثمي، نور الدين، مجمع الزوائد: ج٧، ص٨٦.
[٣٢] أُنظر: المسعودي، علي بن الحسين، مروج الذهب: ج٢، ص ١٠٨.
[٣٣] أُنظر: اليعقوبي، حمد بن أبي يعقوب، تاريخ اليعقوبي: ج٢، ص١٤.
[٣٤] أُنظر: الماوردي، علي بن محمد، أعلام النبوّة: ص٢٣٣.
[٣٥] الصدوق، محمد بن علي، الاعتقادات: ص١١١.
[٣٦] أُنظر: الكراجكي، محمد بن علي، كنز الفوائد: ص٧٠.
[٣٧] الطبراني، سليمان بن أحمد، المعجم الأوسط: ج٥، ص٨٠.
[٣٨] أُنظر: الحلبي، علي بن إبراهيم، السيرة الحلبية: ج١، ص٤٩.
[٣٩] أُنظر: المصدر السابق.
[٤٠] ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج١، ص٢٠.
[٤١] أُنظر: الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي: ج٥، ص٢٤٤. أحمد بن حنبل، فضائل الصحابة: ج٢، ص٩٣٧.
[٤٢] أُنظر: ابن عساكر، علي بن الحسن، تاريخ دمشق: ج٣، ص٤٠٨.
[٤٣] التوبة: آية ١١٤.
[٤٤] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١٢، ص٤٢.
[٤٥] البقرة: آية ١٣٣.
[٤٦] أُنظر: الصدوق، محمد بن علي، علل الشرائع: ج٢، ص٤٩٠.
[٤٧] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج١٥، ص٢٢.
[٤٨] المغربي، النعمان بن محمد، شرح الأخبار: ج٣، ص٤٦٨ـ ٤٦٩.
[٤٩] الصفار، محمد بن الحسن، بصائر الدرجات: ص٣٨.
[٥٠] أُنظر: الكليني، محمد بن يعقوب، الكافي: ج٢، ص٢، باب طينة المؤمن والكافر.
[٥١] الإسراء: آية ٢٠.
[٥٢] الطباطبائي، محمد حسين، تفسير الميزان: ج٢، ص١٣٠ـ ١٣١.
[٥٣] الرعد: آية١٧.
[٥٤] أُنظر: القمّي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج١، ص٣٦٢ ـ ٣٦٤.
[٥٥] الأنفال: آية٢٣.
[٥٦] الكهف: آية ٨٠.

[٥٧] الأعلى: آية٨.
[٥٨] المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤، ص٢٨٢.
[٥٩] الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج٢، ص٨٣ ـ٨٤.
[٦٠] الآلوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني: ج١، ص١٣٩.

الشيخ عامر الجابري
باحث في الحوزة العلمية / العراق

مقتل أبي مخنف الأزدي الكوفي
أشهر المقاتل الحسينية

تقديم

كان أبو مخنف في زمانه شيخ المؤرِّخين في الكوفة، وكان من أشدّ المؤرِّخين اهتماماً بجمع وتدوين أخبار كربلاء، وقد حاول أن يُحيط بأدقِّ التفاصيل المرتبطة بهذه الواقعة، فشملت أخباره أحداث ووقائع يوم عاشوراء، وما سبقه من إرهاصات وتمهيدات، وما تلاه من أحداث ووقائع السبي.

وقد روى محمد باقر القائني في كتابه الكبريت الأحمر: «**أنّه أعطى قباءه ـ وهو برد يماني نفيس ـ ثمناً لكتابة أبيات من الشعر منسوبة لسيد الشهداء** عليه السلام»[1].

وهذه الرواية ـ إن صحّت ـ تكشف عن حرصه الشديد وتطلّعه إلى التقاط كلِّ شاردة وواردة حول هذه الواقعة.

وكما حاول أبو مخنف أن يُحيط بأدقِّ تفاصيل أحداث ووقائع كربلاء، فقد حاول ـ أيضاً ـ أن يستند في عمله إلى المنابع الأُولى المتمثّلة في الرواة الأوائل الذين عايشوا الأحداث وباشروها، كعقبة بن سمعان مولى الرباب زوجة الحسين عليه السلام[2]، ودلهم بنت عمرو زوجة زهير بن القين[3]، وجعفر بن حذيفة الطائي[4]، وعقبة بن أبي العيزار[5]، ويحيى بن هانئ بن عروة المرادي[6]، وغيرهم.

وإذا تعذر الاتّصال بالراوي المباشر لعدم معاصرته ـ أو للبعد المكاني ـ كان أبو مخنف يتّصل بمَن اتّصل بالرواة المباشرين (بلا واسطة)، كما اتّصل بسليمان بن أبي راشد الأزدي للوصول إلى أخبار حميد بن مسلم الأزدي[٧]، أو (بواسطة) كما أخذ أخبار عبد الله بن سليم والمذري بن المشمعل الأسديين[٨]، عن أبي جناب الكلبي، عن عدي بن حرملة الأسدي عنهما[٩].

من هنا؛ فقد جاءت روايات مقتل أبي مخنف غنية في تفاصيلها وإحاطتها بالجزئيات، مسندةً متّصلةً موثوقةً في مآخذها ومنابعها؛ ولذا أصبح مقتله من أشهر المقاتل الحسينيّة، وأكثرها اعتماداً لدى المؤرّخين على مرّ العصور.

وسنعود سريعاً للحديث عن مقتل أبي مخنف بشيءٍ من التفصيل، ولكن بعد أن نكون قد ترجمنا لأبي مِخْنَف، وحملنا فكرة كافية عن شخصيته.

البحث الأول: ترجمته

١ـ اسمه، نسبه، كُنيته

هو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف (بكسر الميم وسكون الخاء وفتح النون) بن سليم[١٠] (بضم السين وفتح اللام وسكون الياء) أو سالم[١١] أو سليمان[١٢]، الأزدي الغامدي (أبو مِخْنَف).

وهو مشتهر بكُنيته (أبو مخنف)، ويخطئ بعض الخطباء في تلفُّظ كلمة (مخنف)، والصحيح ما أثبتناه: (بكسر الميم وسكون الخاء وفتح النون) على وزن (منبر)، كما ضبطه أئمة اللغة، وجهابذة علم الأنساب، وفحول فنّ المؤتلف والمختلف.

قال ابن دريد: «**مخنف: مِفعل من قولهم: خنَفَ الرجلُ بأنفه، إذا أمالَه من كِبْر. والفرس خانف وخَنُوف، إذا أمالَ رأسَه في جريه أو تقريبه. والخِنَاف: ضربٌ من سير الإبل. والخَنيف: ثوب من كَتّان خشن. والجمع خُنُف، شبيهٌ بالخَيْش.**

ويقال: خَنفْتُ الأُتْرُجَّة، إذا قطعتها، والواحد مَن قَطْعها خَنِيفٌ أيضاً»[١٣].

والأزدي: بفتح الألف وسكون الزاي وكسر الدال، نسبة إلى أزد شنوءة، وهو أزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ[١٤].

قال الجوهري: «**والشَّنُوْءَةُ ـ على فَعُوْلَةٍ ـ: التقَزّز وهو التباعد من الأدناس، تقول: رجل فيه شَنُوْءَةٌ، ومنه أزْدُ شَنُوءَةَ وهم حي من اليمن؛ يُنسب إليهم شَنَئِيٌّ، قال ابن السِّكيت: ربما قالوا: أزدُ شَنُوَّةَ ـ بالتشديد غير مَهْمُوزةٍ ـ ويُنسب إليها شَنَوِيٌّ**»[١٥].

والغامدي: بفتح الغين وكسر الميم والدال، هذه النسبة إلى غامد بطن من الأزد، واسم غامد ـ كما في أُسد الغابة ـ: عمرو بن عبد الله بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد. وهو معدود في أهل الحجاز، سكن الطائف[١٦].

آل مخنف بن سليم زعماء الأزد في الكوفة

يبدو أنّ مخنف بن سليم هو أول مَن دخل في الإسلام من أسلاف أبي مخنف، وكانت له صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمَّ نزل الكوفة بعد ذلك، وهو نقيب الأزديين فيها[١٧]، وكان في الكوفة جبانة (مقبرة) تعرف بـ (جبّانة مخنف بن سليم)[١٨].

وقد عدّه الشيخ في رجاله في طبقة أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام[١٩]، بل عدّه ابن داود من خواصّ أصحابه[٢٠].

وكان حامل راية الأزد من أهل الكوفة في وقعة الجمل، وقيل: إنّه قُتل يومئذٍ[٢١]، ولم يثبت؛ فإنّ الأخبار الدالّة على حياته بعد وقعة الجمل من الكثرة بحيث يسقط معها هذا القول عن الاعتبار التاريخي، ومنها على سبيل المثال:

١ـ روى نصر بن مزاحم المنقري: أنّ علياً عليه السلام استعمله على أصفهان

وهَمَدان بعد الجمل[٢٢].

٢ـ وذكر المنقري أيضاً: أنّه لمّا أراد علي عليه السلام المسير إلى أهل الشام، كتب إلى عمّاله، فكتب إلى مخنف بن سليم كتاباً، يذكّره فيه بفريضة الجهاد، ويخبره بنيّته في المسير إلى أهل الشام، ويصف له فيه ظلم بني أُمية وانحرافهم عن النهج الإسلامي العادل، وفي آخر الكتاب: «**فإذا أتيت بكتابي هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك في نفسك، وأقبل إلينا لعلّك تلقى هذا العدو المُحِلّ فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتجامع الحقّ وتباين الباطل، فإنّه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد. وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم**»[٢٣].

ثمَّ أردف المنقري قائلاً: «**فاستعمل مخنفَ على أصبهان الحارثُ بن أبي الحارث بن الربيع، واستعمل على هَمَدان سعيد بن وهب ـ وكلاهما من قومه ـ وأقبل حتى شهد مع عليّ صفين**»[٢٤].

٣ـ وذكر الطبري في أحداث سنة ٣٩هـ أنّ معاوية قد بعث النعمان بن بشير في ألفي رجل إلى عين التمر، وبها مالك بن كعب مسلحة لعلي عليه السلام في ألف رجل، فأذن لهم، فأتوا الكوفة، وأتاه النعمان، ولم يبقَ معه إلّا مائة رجل، فكتب مالك إلى أمير المؤمنين عليه السلام يخبره بما جرى، فخطب علي عليه السلام الناس، وأمرهم بالخروج، فتثاقلوا، وواقع مالك النعمان، فأمر مالك أصحابه أن يجعلوا جُدُر القرية في ظهورهم، واقتتلوا.

وكتب إلى مخنف بن سليم يسأله أن يمدّه، وهو قريب منه، فوجه إليه ابنه عبد الرحمن بن مخنف في خمسين رجلاً، فانتهوا إلى مالك وأصحابه، وقد كسروا جفون سيوفهم، واستقتلوا، فلمّا رآهم أهل الشام وذلك عند المساء، ظنّوا أنّ لهم مدداً فانهزموا[٢٥].

قال محمد هادي اليوسفي الغروي

ـ بعد أن نقل ما نقلناه وما لم ننقله من الأحاديث الدالّة على بقاء مخنف بن سليم حياً بعد الجمل ـ: «**فهذه الأحاديث كلّها تصرّح بحياة جدّه مخنف بن سليم بعد الجمل، بل حتّى بعد صفين، فإنّ غارات معاوية إنّما كانت سنة (٣٩ هـ) بعد وقعة صفّين (٣٧ هـ)، بينما تنفرد تلك الرواية بأنّه قُتل يوم الجمل كما سلف آنفاً، ولم يفطن الطبري لذلك، فلم يعلّق عليه بشيء مع تصريحه في (ذيل المذيّل) بحياته إلى سنة ٨٠ هـ**»[٢٦].

ونحن نؤيده فيما ذهب إليه من بقاء مخنف بن سليم بعد الجمل، بل حتى بعد صفين كما قال، غير أنّنا لا نوافقه على عدم التفات الطبري إلى ذلك؛ فإنّ منهج الطبري في تاريخه هو نقل جميع الروايات المختلفة ووجهات النظر المتباينة حول الحادث، بغض النظر عن موافقتها للعقل والفكر أو عدم موافقتها، وبصرف النظر عن انسجامها مع الثوابت التاريخية أو عدم انسجامها، فعدم تعليق الطبري على ما شذّ من النقول التاريخية هو الموافق للنهج الذي ألزم نفسه السير عليه في مقدمة الكتاب حيث يقول: «**فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنّه لم يعرف له وجهاً في الصحّة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنّه لم يؤتَ في ذلك من قِبَلنا، وإنّما أتى من قِبَل بعض ناقليه إلينا، وإنّا إنّما أدّينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا**»[٢٧].

أمّا في منتخب ذيل المذيّل، فلم يظهر منه أنّه يسير على المنهج نفسه، بل الظاهر خلافه، وأنّ الآراء الموجودة فيه تمثِّل مختارات الطبري ممّا قيل في وفيات الصحابة والتابعين.

وعليه؛ فلا منافاة بين تصريح الطبري في منتخب ذيل المذيّل بحياته إلى سنة ٨٠هـ، وبين نقله لخبر مقتله في يوم الجمل في تاريخه، ما دام لكلٍّ من الكتابين منهجه الخاصّ

وأُسلوبه المتميِّز.

وقد انفرد ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) فذكر أنّ مخنف بن سليم كان ممَّن خرج مع سليمان بن صرد في وقعة عين الوردة، وقُتل بها سنة ٦٤هـ[٢٨]، ونحن نستبعد هذا الخبر ونشكك به لسببين:

١ــ إنّ ابن حجر لم يعيّن لنا المصدر الذي استقى منه هذا الخبر، وقد تتبّعنا كتب قدامى الأخباريين والمؤرِّخين، فلم نعثر له على قائل قبل ابن حجر.

٢ـ إنّ مخنف بن سليم لم يكن شخصاً عادياً من عامّة المجتمع، وإنّما كان زعيم الأزديين في الكوفة، وأحد رجالات الشيعة البارزين، ولو كان حاضراً في معركة عين الوردة، وقُتل بها ــ كما زعم ابن حجر ـ لذَكَر ذلك المؤرِّخون الذين رووا أحداث ووقائع هذه المعركة.

وكان لمخنف بن سليم ـ على ما ذكره الطبري ـ إخوة ثلاثة يُقال لأحدهم: عبد شمس، قُتل يوم النخيلة، والصقعب وعبد الله، قُتلا يوم الجمل[٢٩].

ومن أبرز أولاد مخنف بن سليم عبد الرحمن بن مخنف زعيم الأزديين في الكوفة، وأبرز قيادات الكوفة في زمانه، وكان إلى جانب أبيه مع أمير المؤمنين عليه السلام في حربه ضد أهل الشام[٣٠]، إلّا أنّه تحوَّل بعد ذلك إلى الخطّ المعادي للعلويين، فعندما خرج المختار وقف عبد الرحمن ضده مع عبد الله بن مطيع، وكان في ليلة خروج المختار متمركزاً مع اتباعه في جبّانة (مقبرة) مراد[٣١].

وحينما سار إبراهيم بن مالك الأشتر يريد الموصل، وتواطأ أهل الكوفة على حرب المختار، كان عبد الرحمن ممَّن خرج ضدّه[٣٢].

وقبيل حدوث وقعة المذار ـ التي وقعت بين أنصار المختار بقيادة أحمر بن شميط وأنصار مصعب بن الزبير بقيادة المهلّب بن أبي صفرة ـ دعا

مصعب بن الزبير عبد الرحمن بن مخنف، فقال له: ائت الكوفة مستخفياً حتى تُخرج إلي مَن استطعت إخراجه، وخذِّل الناس عن المختار. فمضى حتى نزل منزله سرّاً فلم يظهر[٣٣].

وفي زمان عبد الملك بن مروان، في سنة٧٥هـ ناهض عبد الرحمن بن مخنف والمهلب بن أبي صفرة الأزارقة برامهرمز، بكتاب الحجاج إليهما لعشر بقين من شعبان، فأجْلَوهم عن رامهرمز من غير قتال شديد، وخرج القوم كأنّهم على حامية، حتى نزلوا سابور بأرضٍ منها يُقال لها: كازرون. وسار المهلب وعبد الرحمن بن مخنف حتى نزلوا بهم في أول رمضان، فخندق المهلب عليه، فذكر أهل البصرة أنّ المهلب قال لعبد الرحمن بن مخنف: إن رأيت أن تُخندق عليك فافعل. وإنّ أصحاب عبد الرحمن أبوا عليه وقالوا: إنّما خندقنا سيوفنا. وإنّ الخوارج زحفوا إلى المهلب ليلاً ليبيتوه، فوجدوه قد أخذ حذره، فمالوا نحو عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه لم يخندق، فقاتلوه، فانهزم عنه أصحابه، فنزل فقاتل في أُناس من أصحابه فقُتل، وقُتل أصحابه حوله[٣٤].

وأمّا سعيد بن مخنف الجدّ المباشر للوط، فلم أعثر له على ذكر عدا وروده في سلسلة نسب أبي مخنف، على أنّ بعض المصادر قد أسقطته من سلسلة نسب أبي مخنف وذكرت نسبه هكذا: (لوط بن يحيى بن مخنف)[٣٥]، فجعلت مخنف الجدّ المباشر للوط.

وأما يحيى والد لوط، فلم أجد له ترجمة خاصّة، ولم أعرف عنه شيئاً سوى عد الطوسي له في طبقة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام[٣٦]، وقول ابن شهر آشوب في معالم العلماء: إنّه من أصحاب أمير المؤمنين والحسن والحسين عليهم السلام[٣٧].

وهذا يعني أنّ ولادته كانت قبل عام٤٠هـ، بفترة تؤهِّله لتلقّي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام المستشهَد في هذا العامّ، وأنّه كان حياً بعد سنة ٥٠هـ،

وهي السنة التي استُشهِد فيها الإمام الحسن عليه السلام.

وممّا ينبغي أن يشار إليه: أنّ جلّ مَن ترجم لمخنف بن سليم أشار إلى أنّ من ولده (أبو مخنف) لوط بن بن يحيى صاحب الترجمة، ممّا يدلل على أنّه أشهر شخصيّة في هذا البيت.

٢ـ ولادته ونشأته

لُقِّب أبو مخنف بـ (الكوفي) في عدّة مصادر[٣٨]، وما ذلك إلّا لكونه كوفي المولد، ولا نقاش في ذلك، كما لا نقاش في كونه نشأ وتعلّم في الكوفة أيضاً، كما يشهد بذلك التأمّل في كثرة مشايخه وأساتذته من أهل الكوفة، وإنّما ينحصر الكلام في زمان ولادته؛ إذ لا يوجد نصّ يُعتمد عليه في تحديدها، وإنّما يتوفر في أيدينا معطيان تاريخيان نستطيع أن نستنتج في ضوئهما أنّ ولادته كانت في بداية خمسينيّات القرن الهجري الأول، وهما:

المعطى الأول: قد مر علينا أنّ والده يحيى كان من أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام ـ بحسب الطوسي وابن شهر آشوب ـ وقد قال الطوسي عن أبي مخنف: إنّه «**لم يلقَ أمير المؤمنين** عليه السلام»[٣٩]، فقد نفى اللقاء الذي هو أعمّ من تلقّي الحديث، وهذا يعني أنّ أبا مخنف لم يكن قد ولد في حياة أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّ ولادته كانت بعد عام ٤٠هـ الذي هو عام مقتله عليه السلام.

المعطى الثاني: عرفنا الآن أنّ أبا مخنف قد ولد بعد عام ٤٠هـ، فنقول: إنّه قد ولد قبل عام ٥٠هـ؛ فهذا هو المنسجم مع ذكره في طبقة أصحاب الحسن عليه السلام[٤٠] المتوفّى في هذا العامّ، فإذا عرفنا أنّ عدَّ الشخص من أصحاب الإمام عليه السلام معناه أنّه قد سمع حديثه ووعاه؛ فلا بدّ لنا أن نفترض أنّ ولادة أبي مخنف كانت في بداية الخمسينيات ٤١ أو ٤٢ أو٤٣هـ ـ مثلاً ـ لكي يكون صبياً مميزاً على أقل تقدير

في نهايات حياة الإمام الحسن عليه السلام.

ويمكن أن ندعم هذا الرأي ونؤكده بأمرين:

الأمر الأول: إنّ هذا الرأي ينسجم مع إدراك أبي مخنف لعددٍ من رواة الطف المباشرين، ونقله عنهم بلا واسطة، كعقبة بن سمعان، ودلهم بنت عمرو زوجة زهير بن القين وغيرهما.

الأمر الثاني: إنّ هذا الرأي ينسجم مع كون المشهور في وفاة أبي مخنف هو عام ١٥٧هـ ـ كما سيأتي في آخر الترجمة ـ فإنّ عمره سيكون حين وفاته ١٢٠سنة أو أقل بقليل، وليس في هذا شذوذ أو مخالفة للمألوف من معدل الأعمار في تلك الأزمان.

٣ـ مكانته العلمية، طبقته، مصنفاته

يُعدّ أبو مخنف من كبار الأخباريين والمؤرّخين الأوائل الذين سارعوا إلى كتابة التاريخ الإسلامي، وقد تركّز نشاطه على تاريخ العراق بصورة خاصّة، كما انصبّت جهوده على الأحداث التي وقعت بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله إلى أواخر العهد الأُموي.

قال ابن النديم: «**قرأت بخطّ أحمد بن الحارث الخزاز، قالت العلماء: أبو مخنف بأمر العراق وأخبارها وفتوحها يزيد على غيره، والمدائني بأمر خراسان والهند وفارس، والواقدي بالحجاز والسيرة، وقد اشتركوا في فتوح الشام**»[٤١].

وأخبار العراق وفتوحها هو تعبير آخر عن تاريخ التشيّع؛ إذ ارتبط التشيّع منذ بدايات وجوده ـ كقوّة اجتماعية ـ بالعراق؛ ومن هنا قال فلهاوزن: «**وأبو مخنف هو أَثْبَتُ حجّة... في تاريخ الشيعة، طالما اتّصل بالكوفة، والطبري يكاد لا يعتمد على غيره في ذكر أخبارهم وما أطولها**»[٤٢].

وقد تركّزت جهود أبي مخنف على جمع وتدوين أخبار الكوفة بنحو خاصّ، حتى وصفه النجاشي بكونه «**شيخ**

أصحاب الأخبار بالكوفة ووجههم»[٤٣]، والكوفة كانت آنذاك مركز التشيّع وجمجمة العراق، وحينما يكون أبو مخنف شيخ مؤرِّخيها فهذا يعني أنّه شيخ مؤرِّخي أهل العراق بشكل عامّ، أو يكون من كبار مؤرِّخي العراق على أقل تقدير.

إلّا أنّه ممّا ينبغي أن يُشار إليه: أنّ علاقة أبي مخنف بالتشيّع ربما تكون علاقة علمية، وليست روحية، وإذا ما قيل: إنّه (من مؤرِّخي الشيعة) فقد يكون المقصود أنّه من المهتمّين بتاريخ الشيعة وجمع أخبارهم، وليس بالضرورة أن يكون المقصود من هكذا عبارة أنّه كان شيعيّاً بالمعنى الخاصّ للتشيّع.

أمّا طبقة أبي مخنف، فلا يمكن ضبطها من خلال ملاحظة أساتذته وشيوخه؛ إذ اختُلف في ذلك اختلافاً كبيراً، فقد عدّه الكشي في طبقة أصحاب الإمام علي عليه السلام، ونفى الطوسي ذلك[٤٤]، وأثبت صحبته للحسنين عليهما السلام[٤٥]، ونفى النجاشي أن تكون له صحبة مع الإمام الباقر عليه السلام، فضلاً عمَّن سبقه من أئمّة أهل البيت عليهم السلام، وعدَّه من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام[٤٦].

وعليه؛ فلا يمكن أن نضبط طبقة أبي مخنف من خلال أساتذته وشيوخه مع الاختلاف المشار إليه، والقدر المتيقّن أنّه من طبقة أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، مع احتمال أن يكون من طبقةٍ أقدم، وإنّما يمكن تحديد طبقته من خلال ملاحظة الآخذين عنه والمتتلمذين على يديه، ومنهم:

١ـ أبو المنذر، هشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤أو ٢٠٦هـ)، النسّابة المشهور[٤٧]، وهو الراوي لمقتله كما سنبيِّن.

٢ـ أبو الفضل، نصر بن مزاحم بن سيار المنقري (ت ٢١٢هـ)[٤٨]، صاحب كتاب وقعة صفين، وقد أخطأ ابن النديم في عدِّ نصر بن مزاحم من طبقة أبي مخنف[٤٩].

٣ـ أبو الحسن، علي بن محمد

المـــــدائني (ت ٢٢٥هـ)، المـــــؤرِّخ المعروف[٥٠].

فهـؤلاء الثلاثـة هـم مـن كبـار الأخباريين والمؤرِّخين الذين برزوا فـي نهايـات المائـة الثانيـة وبـدايات المائـة الثالثة، وهم مـن تلاميـذ أبـي مخنـف؛ فيكـون أبـو مخنـف فـي الطبقـة التـي فوقهم، مع أنّـه لا مـانع مـن أن ينـدرج في طبقات أعلى أيضاً لو احتملنا طـول عمره وأنّه قد ولد في خمسينيّات القرن الهجري الأول، كما احتملنا ذلـك عنـد الحديث عن ولادته ونشأته.

وقد صنف أبـو مخنـف كُتُبـاً كثيـرة يطول تعـدادها، وقـد ذكرهـا النجاشـي فـــي رجالـــه[٥١]، وابـــن النـــديم فـــي فهرسته[٥٢]، والحموي في معجمه[٥٣]، والصفدي فـي وافيـه[٥٤]، منهـا: كتـاب المغازي، كتاب السقيفة، كتاب الـردّة، كتـاب فتـوح الإسـلام، كتـاب فتـوح العـراق، كتـاب فتـوح خراسـان، كتـاب الشـورى، كتـاب قتـل عثمـان، كتـاب الجمـل، كتـاب صفّين، كتـاب النهـر، كتاب الحكمين، كتاب الغارات، كتـاب مقتل أمير المؤمنين عليه السلام، كتـاب قتـل الحســـــن عليه السلام، كتـــــاب قتـــــل الحسين عليه السلام، كتـاب مقتـل حجـر بـن عدي، كتاب أخبـار زيـاد، كتـاب أخبـار المختار، كتاب أخبـار الحجـاج، كتـاب أخبـار مطـرف بـن المغيـرة بـن شـعبة، كتاب أخبار آل مخنف بن سليم، كتاب أخبار الحريث بن أسد الناجي وخروجه.

إلا أن كُتُب أبي مخنف ومصـنفاته قد أُبيـدت عـن بكـرة أبيهـا، ولـم يتبـقَّ منهـا سـوى مـا نقلتـه الموسـوعات التاريخيّـة المتـأخِّرة عـن عصـر أبـي مخنــف، كموســوعة تــاريخ الرســل والملـوك للطبـري (ت ٣١٠هـ) التـي نقلت عـن أبـي مخنـف مـا ينيـف علـى (٥٠٠) رواية في موضـوعات مختلفـة، حيث تحتلّ الروايات التي تتحدَّث عـن عهد خلافـة الإمـام علـي عليه السلام المرتبـة الأُولى، فقد بلغت (١٢٦) رواية، تعقبها (١١٨) روايـة حـول حادثـة كـربلاء، و(١٢٤) رواية تناولت ثورة المختار[٥٥].

وقد حاول العديد من الباحثين والمحققين إحياء تراث أبي مخنف؛ من خلال استخراج مروياته من بطون المدوَّنات التاريخيّة: كمحاولة حسن الغفاري، ومحمد هادي اليوسفي الغروي في إحيائهما كتاب مقتل الحسين عليه السلام لأبي مخنف، حيث كتب الأول مقتل الحسين عليه السلام وكتب الآخر وقعة الطفّ، وكلاهما متّخذان من تاريخ الطبري، ومحاولة جليل تاري في كتابه (حقائق السقيفة في دراسة رواية أبي مخنف) الذي حاول فيها إحياء كتاب السقيفة على ما يبدو، ومحاولة الباحث السعودي يحيى اليحيى في دراسته المسماة بـ (عصر الخلافة الراشدة) والتي حاول أن يدرس فيها ـ دراسة نقدية ـ مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري، والمختصّة بهذه الحقبة.

٤ـ مذهبه ومعتقده

إنّ التأمّل في مرويات أبي مخنف، وما نقله من فضائل ومحاسن أهل البيت عليهم السلام، ومثالب وقبائح أعدائهم، وتركيزه البالغ على تاريخ التشيّع هو الذي قاد بعض الباحثين والمحققين إلى القول بإماميته.

كما أنّ التأمّل في مرويات أُخرى لأبي مخنف تتقاطع مع الإيمان بعصمة الأئمّة عليهم السلام هو الذي أرغم بعض الباحثين والمحققين على التوقّف عن القول بإماميته[٥٦].

والذي يبدو لي ـ بعد الوقوف طويلاً على هذا الموضوع ـ أنّ أبا مخنف لم يكن إمامياً، وإنّما كان شيعياً بالمعنى العام للتشيّع، والمساوي للميل والمودّة الشديدة لأهل البيت عليهم السلام، وهذا ما صرّح به ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٥هـ) بقوله: «**وأبو مخنف من المحدِّثين، وممَّن يرى صحّة الإمامة بالاختيار، وليس من الشيعة ولا معدوداً من رجالها**»[٥٧].

وهذا الكلام ذكره ابن أبي الحديد بعد أن نقل عن أبي مخنف أشعاراً وأراجيز تضمنت أنّ علياً عليه السلام وصي رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن المعلوم أنّ

الوصية لديهم لا تساوي الاستخلاف.

قال ابن أبي الحديد: «**أمّا الوصية، فلا ريب عندنا أنّ علياً عليه السلام كان وصي رسول الله صلى الله عليه وآله وإن خالف في ذلك مَن هو منسوب عندنا إلى العناد، ولسنا نعني بالوصية النصّ والخلافة، ولكن أُموراً أُخرى لعلّها ـ إذا لمُحت ـ أشرف وأجل**»[٥٨].

ومن هنا؛ فإنّ تعجّب المامقاني من نفي ابن أبي الحديد لإمامية أبي مخنف في غير محلّه حينما قال: «**والعجب العجاب أنّ ابن أبي الحديد نطق بما سمعت، بعد أن روى أشعاراً في أنّ علياً عليه السلام وصيّ رسول الله صلى الله عليه وآله**»[٥٩]؛ إذ لا منافاة بين القول بالوصية وبين القول بأنّ صحّة الإمامة بالاختيار، بحسب تفسير القوم لمفهوم الوصية.

والقول بعامّية أبي مخنف هو ما يظهر من الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) أيضاً في كتابه الجَمَل؛ فبعد أن نقل أخبار الجَمَل عن أبي مخنف وغيره من المؤرّخين، قال: «**فهذه جملة من أخبار البصرة ـ وسبب فتنتها ومقالات أصحاب الآراء في حُكم الفتنة بها ـ قد أوردناها على سبيل الاختصار، وأثبَتنا ما أثبَتنا من الأخبار عن رجال العامّة دون الخاصّة، ولم نثبت في ذلك ما روته كتب الشيعة**»[٦٠].

ومن المعلوم أن الشيخ المفيد من متقدِّمي علمائنا، وهو أخبر بحال أبي مخنف، ومن المرجّح أنّه استند في الحكم بعامّيته على شواهد حسّية، وليست حدْسية.

ويمكن تأكيد هذا الرأي ودعمه بعدّة قرائن ـ وإن كانت جميعاً قابلةً للنقاش ـ:

القرينة الأُولى: قد يُستدلّ على عدم تشيّع أبي مخنف بالمصطلح الخاصّ للتشيّع بندرة روايته عن الأئمّة عليهم السلام، مع معاصرته لأربعة منهم هم: السجّاد، والباقر، والصادق، والكاظم عليهم السلام؛ «**وهذا ممّا قد يدلّنا على أنّه لم يكن شيعيّاً،**

ومن صحابة الأئمّة عليهم السلام بالمعنى المصطلح الشيعي الإمامي، الذي يعبّر عنه العامّة بـ (الرافضي)، وإنّما كان شيعيّاً في الرأي والهوى كأكثر الكوفيّين، غير رافض لمذهب عامّة المسلمين آنذاك»[٦١].

ولكن هذه القرينة قابلة للنقاش، فإنّ ندرة الرواية عن الأئمّة عليهم السلام ليست بالضرورة مباينة للتشيّع بالمصطلح الخاصّ له، كما أنّ كثرة الرواية عنهم عليهم السلام، ليست مساوية له أيضاً، وإنّما الصحيح أنّ النسبة بين ندرة الرواية وعدم التشيّع هي (العموم والخصوص من وجه)؛ فقد يكون الراوي مقلّاً وهو من الشيعة بالمصطلح الخاصّ، وقد يكون الراوي مكثراً وهو ليس منهم، والنماذج على ذلك كثيرة يمكن استخراجها بسهولة من كُتب الرجال.

القرينة الثانية: قال اليوسفي الغروي: «**وقد يكون ممّا يؤيد هذا [يعني كونه غير إمامي]: أنّ أحداً من العامّة لم يرمِه بالرفض، كما هو المعروف من مصطلحهم: أنّهم لا يقصدون بالتشيّع سوى الميل إلى أهل البيت عليهم السلام، وأمّا مَن علموا من اتّباع أهل البيت عليهم السلام في مذهبه فإنّهم يرمونه بالرفض لا التشيّع فحسب، وهذا هو الفارق في مصطلحهم بين الموردين**»[٦٢].

ويمكن أن يناقش في ذلك من جهتين:

الجهة الأُولى: إنّ قوله: «**إنّ أحداً من العامّة لم يرمِه بالرفض**». غير تامّ؛ فقد وصفه الذهبي بذلك في كتابه تاريخ الإسلام، فقال: «**أبو مخنف الكوفي الرافضي الأخباري صاحب هاتيك التصانيف**»[٦٣].

الجهة الثانية: إنّ تفسيره للتشيّع ـ عند العامّة ـ بالميل إلى أهل البيت عليهم السلام غير دقيق، والصحيح أنّ التشيّع في اصطلاحهم: تارة يُستخدم بمعنى الميل إلى أهل البيت عليهم السلام، وهذا لا يؤدّي إلى ردّ الرواية لديهم،

وأُخرى يستخدم بما يساوي الإيمان بالإمامة، وهذا ما يُطلق عليه أيضاً الرفض، وهو ما يؤدّي إلى ردّ الرواية عندهم.

ويمكن القول: إنّ إطلاق لفظة (الشيعي) على أبي مخنف هي بالمعنى الثاني دون الأول، وذلك لعدّة شواهد:

الشاهد الأول: إنّ ابن عدي قبل أن يصف أبا مخنف بكونه (شيعيّاً) قدَّم هذه العبارة: «**حدَّث بأخبار مَن تقدَّم من السلف الصالحين، ولا يبعد منه أن يتناولهم**». ثمَّ قال ـ بلا فصل ـ: «**وهو شيعي محترق**»[٦٤]، فإنّ الدليل لديهم على تشيّعه هو تناوله لسلفهم ونقله لمخازيهم ومثالبهم، فهذا شاهد على أنّ تشيّعه بمعنى الرفض لا الميل.

الشاهد الثاني: لو كان تشيّعه بمعنى الميل لما أدّى ذلك إلى ردّ روايته، مع أنّهم أجمعوا على ردّها، فيشهد هذا على أنّ تشيّعه بمعنى الرفض.

الشاهد الثالث: ما نقلناه من وصف الذهبي له بـ (الرافضي)، فإنّه قرينة على أنّ مراد أسلافه من تشيّع أبي مخنف هو التشيّع بمعنى الرفض لا مجرّد الميل.

القرينة الثالثة: قال التستري: «**ولم يذكره [أي: لم يذكر أبا مخنف] ابنُ قتيبة وابن النديم في الشيعة، مع عقد باب في كتاب كلٍّ منهما للشيعة، ولو كان إمامياً لأشار إليه أحدهم، بل ظاهر سكوتهم عامّيته**»[٦٥].

وهذه القرينة لا تصمد أمام النقاش أيضاً لمَن خبر منهجي ابن قتيبة وابن النديم في كتابيهما المعارف والفهرست، فإنّهما لم يقسّما أبحاث كتابيهما تقسيماً منطقياً يمنع من تداخل الأقسام، فليس هناك أساس واحد قُسِّمت على ضوئه المباحث، كما أنّهما لم يقصدا الاستيعاب في كلِّ قسم.

فلو أتينا إلى كتاب المعارف لابن قتيبة لوجدنا أبا مخنف مذكوراً في باب (النسّابون وأصحاب الأخبار)[٦٦]، ثمَّ

بعد ذلك دخل في تعداد الفِرَق، وذُكر من ضمن الفِرَق (الشيعة)، وذكر (٤٢) رجلاً ممَّن يُحسَبون على التشيّع[٦٧]، وأهمل العديد من الشخصيات المعاصرة لهؤلاء المذكورين، فهل يُعدُّ إهمالهم قرينة على عدم تشيّعهم؟ !

وحينما نأتي إلى كتاب الفهرست لابن النديم نجده قد قسَّم كتابه على عشر مقالات، وجعل المقالة الثالثة (في أخبار الأخباريين والنسّابين وأصحاب الأحداث والآيات)، وقسّمها على ثلاثة فنون، فجعل الفنّ الأول (في أخبار الأخباريين والنسّابين وأصحاب السِّيَر والأحداث وأسماء كتبهم)، بغضّ النظر عن اتّجاهاتهم وميولهم العقدية والمذهبية، ثمّ ذكر (أبا مخنف) كأحد أعمدة هذا الفنّ[٦٨].

ولم يخصص ابن النديم بعد ذلك باباً خاصّاً بعلماء الشيعة بمختلف تخصصاتهم في العلوم، لكي يكون إهمال أبي مخنف وعدم ذكره في هذا الباب قرينة على عدم تشيّعه كما زعم التستري، وإنّما خصص الفنّ الثاني من المقالة الخامسة (في أخبار متكلمي الشيعة والإمامية والزيدية)، ثمَّ خصص الفنّ الخامس من المقالة السادسة (في أخبار فقهاء الشيعة وأسماء كتبهم)[٦٩].

ومن المعلوم أنّ أبا مخنف ليس من حملة هذين الفنين لكي يكون إهماله مؤشراً على عدم تشيّعه.

وهناك قرائن أُخر يمكن أن يُستفاد منها عدم إمامية أبي مخنف صرفنا النظر عنها خوفاً من الإطالة.

وخلاصة القول في مذهب أبي مخنف ومعتقده: إنّه كان شيعيّاً بالمعنى العام للتشيّع، وأمّا إماميته فلم يقم عندنا دليل قاطع عليها، ولم يصرِّح بها أحد من علمائنا المتقدِّمين.

٥ـ وثاقته وعدالته

بالرغم من الخلاف الذي أشرنا إليه حول مذهب أبي مخنف ومعتقده، غير

أنّ الطائفة تكاد تتّفق كلمة رجالييها على قبول مروياته الفقهية، فضلاً عن التاريخية.

ولعل الأصل في ذلك هو قول شيخ الرجاليين النجاشي فيه: «**أبو مخنف شيخ أصحاب الأخبار بالكوفة ووجههم، وكان يُسكن إلى ما يرويه**»[٧٠].

وهذا الذي قاله النجاشي يوافقه عليه أغلب الرجاليين: كالعلّامة الحلي (ت٧٢٦هـ) في خلاصة الأقوال[٧١]، والتفرشي في نقد الرجال[٧٢]، والسيد البروجردي (ت١٣١٣هـ) في طرائف المقال[٧٣]، والمحقق السيد الخوئي في معجم رجال الحديث[٧٤]، والشبستري في كتابه (الفائق في رواة وأصحاب الإمام الصادق عليه السلام)[٧٥].

فجميع هؤلاء وغيرهم قد نعتوه بما نعته به النجاشي في قوله: «**وكان يُسكن إلى ما يرويه**»، مع أنّ شيخ الطائفة قد أهمل أبا مخنف، ولم يحكم عليه بجرح ولا تعديل، غير أنّ ذلك لم يمنع أغلب الرجاليين من متابعة رأي النجاشي فيه، وذلك لسببين:

السبب الأول: إنّ الطوسي وإن لم يوثق أبا مخنف، إلّا أنّه لم يطعن عليه أيضاً، ولم يقل: إنّه مجهول الحال، والمهمَل غير المجهول، الذي صرح علماء الرجال بجهالة حاله، فالمهمَل لا توصف روايته بضعف أو صحّة أو توثيق أو حسن، ما لم تتبيّن حاله من جهة تتبّع القرائن والمؤشرات، وقد كان ابن داود يعمل بخبر المهمَل كما يعمل بخبر الممدوح[٧٦].

السبب الثاني: لو تنزّلنا وقلنا: بأنّ سكوت الطوسي يُعدّ جرحاً بأبي مخنف، فإنّنا في هذه الحالة سنقدِّم رأي النجاشي على رأي الشيخ أيضاً؛ وذلك لاتّفاقهم على تقديمه عند المعارضة، «**بل الظاهر منهم تقديم قوله ولو كان ظاهراً على قول غيره من أئمّة الرجال في مقام المعارضة في الجرح والتعديل، ولو كان نصّاً**»[٧٧].

قال الشهيد الثاني: «**وظاهر حال**

النجاشي أنّه أضبط الجماعة، وأعرفهم بحال الرجال»[٧٨].

وقال حفيده الشيخ محمد بن الشيخ حسن بن الشهيد الثاني ـ بعد ذكر كلامي النجاشي والشيخ في سماعة ـ: «... **والنجاشي يُقدَّم على الشيخ في هذه المقامات، كما يعلم بالممارسة**»[٧٩].

وقال الميرزا محمد الإسترابادي ـ في ترجمة سليمان بن صالح الجصاص ـ: «**ولا يخفى تخالف ما بين طريقي الشيخ والنجاشي، ولعل النجاشي أثبت**»[٨٠].

بقيت نكتة مهمّة ينبغي أن يشار إليها: وهي أنّ عبارة «**وكان يُسكن إلى ما يرويه**» تُعدّ من ألفاظ المدح من المرتبة الثانية عند الدرائيين[٨١]، والمعروف عند الرجاليين والدرائيين ـ منا ـ أنّ الراوي الممدوح تُعتبر مروياته من قسم الحسن إن كان إمامياً، ومن قسم الموثَّق إن كان على غير نهج الإمامية، وفي ضوء الخلاف المتقدِّم حول عقيدة أبي مخنف؛ فإنّ أحاديثه تكون إما من قسم الحسن لمَن يرى إماميته، وإما من قسم الموثّق لمن يرى عامّيته، وممّا يهوِّن الخطب أنّ كليهما ممّا يُحتجّ به.

هذا كلّه في رجالنا، وأمّا أهل السنّة فقد أجمع أئمّة الرجال منهم على تضعيفه وترك روايته.

قال يحيى بن معين: «**ليس بثقة**»، وقال مرّة: «**ليس بشيء**»، وقال أبو حاتم الرازي: «**متروك الحديث**»، وقال الدارقطني: «**ضعيف**»[٨٢].

وقال ابن عدي ـ بعد أن نقل رأي يحيى بن معين في أبي مخنف ـ: «**وهذا الذي قاله ابن معين يوافقه عليه الأئمّة؛ فإنّ لوط بن يحيى معروف بكُنيته وباسمه. حدَّث بأخبار مَن تقدَّم من السلف الصالحين، ولا يبعد منه أن يتناولهم، وهو شيعي محترق صاحب أخبارهم...**»[٨٣].

وبهذا يتّضح السبب الذي تركوا حديث أبي مخنف من أجله؛ وهو ميله

ومودّته لأهل البيت عليهم السلام من جانب، ونقله لمثالب ومخازي أعدائهم من جانب آخر.

ومع هذا الإعراض عن مرويات أبي مخنف فيما يخصّ الفقه والعقيدة، غير أنّهم قد اعتمدوا عليه اعتماداً منقطع النظير في مروياته التاريخية، لا سيما الطبري الذي شحن موسوعته التاريخية الكبرى بمرويات أبي مخنف.

قال عنه ابن كثير: «**وهو أحد أئمّة هذا الشأن**»[٨٤]، وقال عنه أيضاً: «**وقد كان شيعياً، وهو ضعيف الحديث عند الأئمّة، ولكنّه أخباري حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره، ولهذا يترامى عليه كثير من المصنِّفين في هذا الشأن ممّن بعده**»[٨٥].

٦ـ وفاته

توفِّي أبو مخنف سنة (١٥٧هـ) كما في تاريخ مولد العلماء ووفياتهم للربعي (ت٢٧٩هـ)[٨٦]، ومعجم الأُدباء للحموي (ت٦٢٦هـ)[٨٧]، وسير أعلام النبلاء[٨٨]، وتاريخ الإسلام[٨٩] للذهبي (ت٧٤٨هـ)، والوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ)[٩٠]، والذريعة للطهراني (ت١٣٨٩هـ)[٩١]، والأعلام لخير الدين الزركلي الدمشقي (ت١٣٩٦هـ)[٩٢]، ومعجم المؤلفين لعمر كحالة (ت ١٤٠٨هـ)[٩٣]، وغير ذلك من مصادر ومراجع.

ولعل الجميع قد نهلوا هذا القول من مصدر واحد هو تاريخ مولد العلماء ووفياتهم للربعي (ت ٢٧٩هـ)؛ نظراً لكونه أقدم مَن صرّح بهذا القول بحسب تتبّعنا للمصادر والمراجع التي تعرَّضت لوفاة أبي مخنف.

وفي قبال هذا القول يوجد قولان ضعيفان، وغير مشهورين:

القول الأول: إنّه توفّي قبل سنة (١٧٠هـ)، وهو قول الذهبي في ميزان الاعتدال[٩٤]، ويلاحظ عليه:

١ـ إنّه لم يذكر الحادثة التي بسببها استنتج كون وفاته قبل سنة (١٧٠هـ)،

وهـذا الإشـكال لا يـرد علـى أصـحاب القـول الأول؛ لأنّهـم قـد اسـتندوا إلـى قول الربعي المتوفّى عـام ٢٧٩هـ، وهـو يحكم عن حسٍّ لا عن حدْس، فإنّـه لا يفصـله عـن أبـي مخنـف سـوى طبقـة واحدة، فهو مـن طبقـة تلاميـذ تلاميـذ أبـي مخنـف، أو قـل: هـو مـن أقـران أحفـاده، بخـلاف الـذهبي (ت٧٤٨هـ)، الـذي يفصـله عـن أبـي مخنـف قرابـة خمسة قرون.

٢ـ إنّه مخالف لما اشتُهر مـن كـون وفاته سنة (١٥٧هـ)، بل هو مخالف لما ذهب إليه الذهبي نفسه في سير أعلام النبلاء وتاريخ الإسلام كما مرّ.

القــول الثــاني: إنّـه تـوفّي سـنة (١٧٥هـ)، ذكـر ذلـك إسـماعيل باشـا البغدادي (ت١٣٣٩هـ)، ولـم يُشـر إلـى مستنده في هـذا القـول، ولـولا أنّـه قـد أكد على ذلك ثلاث مرّات، مـرّتين فـي إيضاح المكنـون[٩٥]، ومـرّة واحـدة فـي هدية العـارفين[٩٦]، ولـولا أنّـه قـد ذكـر ذلـك (رقمـاً وكتابـةً) فـي المواضـع الثلاثـة، لـولا ذلـك لقلنـا: بحصـول تصـحيف للتشـابه الكبيـر بـين الـرقم (١٧٥) والرقم (١٥٧).

البحـث الثـاني: كتابـه (مقتـل الحسين عليه السلام)

الحـديث حـول مقتـل أبـي مخنـف حـديث ذو شـجون، والإحاطـة بـه مـن جميـع الجهـات يحتـاج إلـى بحـث مستقلّ ودراسة مفـردة؛ ولـذا سـنحاول أن نتحـدَّث بإيجـاز عـن عـدّة أُمـور أساسية ورئيسية حول هذا المقتل:

الأمر الأول: إنّه لا ريب ولا شبهة في أنّ أبا مخنف قـد كتـب كتاباً حـول واقعـة الطـف أسـماه مقتـل أو قتـل الحسين عليه السلام.

فقد ذكره ابـن النـديم (ت ٤٣٨هـ) في قائمة كتبه، وذكـر أنّ اسـمه مقتـل الحسين عليه السلام[٩٧]، ولعل ابن النديم هـو أقدم مَن نصّ علـى وجـود كتـاب لأبـي مخنف في مقتل الحسين عليه السلام.

وذكـــره النجاشـــي (ت ٤٥٠هـ)

كذلك في قائمة مصنفاته، وذكر أنّ اسمه قتل الحسين عليه السلام، ثمَّ ذكر طريقه إلى هذا الكتاب وسائر كتب أبي مخنف، فقال: «**أخبرنا أحمد بن علي بن نوح، قال: حدَّثنا عبد الجبار بن شيران الساكن بنهر جطا (خطى)، قال: حدَّثنا محمد بن زكريا بن دينار الغلابي، قال: حدَّثنا عبد الله بن الضحاك المرادي، قال: حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي مخنف**»[٩٨].

وقد ذكره الطوسي (ت٤٦٠هـ) أيضاً في الفهرست، وذكر أنّ اسمه مقتل الحسين عليه السلام، ثمَّ ذكر طريقه إلى مصنفات أبي مخنف بما فيها كتاب المقتل، فقال: «**أخبرنا بها أحمد بن عبدون، والحسين بن عبيد الله جميعاً، عن أبي بكر الدوري، عن القاضي أبي بكر أحمد بن كامل، عن محمد بن موسى بن حماد، عن ابن أبي السري محمد، قال أخبرنا هشام بن محمد الكلبي، عنه...**»[٩٩].

ثمَّ جاء بعدهما ابن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ) فأكَّد لنا وجود هذا الكتاب في قائمة كتب أبي مخنف، فقال ـ بعد التعريف بأبي مخنف ـ: «**له كُتُب كثيرة في السير، كمقتل الحسين** عليه السلام»[١٠٠].

وممّن ذكره أيضاً الحموي (ت ٦٢٦هـ) في معجم الأدباء، وهو يذكر ذلك عن محمد بن إسحاق[١٠١].

فهذه أهمّ النصوص الأصيلة الموجودة في هذا المجال، وقد اخترناها من أشهر المصادر في عالم الفهارس ومعاجم المؤلفات، وجميعها صرحت بوجود كتاب لأبي مخنف في مقتل الحسين عليه السلام، وهناك نصوص أُخرى صرحت بوجود هذا الكتاب في قائمة أبي مخنف، ولكنّها بأجمعها تنهل من المصادر التي ذكرناها.

الأمر الثاني: ذهب بعض الباحثين إلى القول: بأنّ مقتل أبي مخنف هو أقدم المقاتل الحسينيّة وأسبقها.

قال محمد مهدي شمس الدين:

«**فكُتُب المقتل تصلح أن تكون موضوعاً لدراسة علمية واسعة وعميقة تشتمل على تاريخ نشوء هذا النوع من كتابة التاريخ وتطوره، ومنهجه ومحتوياته، ونوعيات المؤلفين، والأُسلوب الذي كتب به، وتطور هذا الأُسلوب خلال العصور، وعلاقة هذا الأُسلوب بلغة الكتابة في المجالات الأُخرى، واللغات التي كتبت بها (العربية، والفارسية، والتركية، والأردو، وغيرها) والمحتوى الشعري لهذه الكتب التي بدأت ـ فيما نحسب ـ بأبي مخنف ولم تنته بعد...**»[١٠٢].

وقال اليوسفي الغروي: «**وكذلك بقيت هذه الحادثة الأليمة في سنة ٦١هـ، أحاديث شجون تتناقلها الألسن نقلاً عن الذين كانوا قد شهدوا المعركة، أو الحوادث السّابقة عليها أو التالية لها، كسائر أحاديث المغازي والحروب في الإسلام... حتّى انبرى لها في أوائل المئة الثانية للهجرة أبو مِخْنف، لوط بن يحيى بن سعيد بن مِخْنف بن سليم الأزدي الغامدي الكوفي (ت ١٥٨هـ)، فجمعها من أفواه الرواة وأودعها كتاباً أسماه: (كتاب مقتل الحسين عليه السلام) كما في قائمة كُتبه. فكان أوّل كتاب في تاريخ هذه الحادثة العظمى على الإطلاق**»[١٠٣].

ونحن لا نوافق ما ذهب إليه هذان المحققان وغيرهما، فقد أثبتنا ـ في بحوثنا السابقة ـ أنّ أول مَن كتب في المقتل الحسيني هو الأصبغ بن نباتة، ثمَّ جاء بعده جابر بن يزيد الجعفي، ثمَّ جاء بعدهما عمّار الدهني، فلا يكون أبو مخنف هو أول مَن كتب في المقتل الحسيني، وإن جرى ذكر ذلك على بعض الألسن.

الأمر الثالث: إنّ مقتل أبي مخنف مفقود، ولم يصل إلينا منه إلا ما انتقل إلينا عِبر مطاوي الكتب، وفي ضوئه؛ فإنّ المقتل المتداول بين الناس والمنسوب لأبي مخنف، ليس

له بإجماع المحققين.

يقول السيد عبد الحسين شرف الدين: «**ولا يخفى أنّ الكتاب المتداول في مقتله عليه السلام، المنسوب إلى أبي مِخْنف قد اشتمل على كثير من الأحاديث التي لا علم لأبي مِخْنَف به، وإنّما هي مكذوبة على الرجل، وقد كثرت عليه الكذّابة وهذا شاهد على جلالته**»[١٠٤].

ويقول الشيخ عباس القمّي: «**وليعلم أنّ لأبي مِخْنف كُتُباً كثيرةً في التاريخ والسير، منها كتاب: مقتل الحسين عليه السلام الذي نقل عنه أعاظم العلماء المتقدِّمين واعتمدوا عليه... ولكن للأسف أنّه فُقد ولا يوجد منه نسخة، وأمّا المقتل الذي بأيدينا ويُنسب إليه، فليس له، بل ولا لأحد من المؤرِّخين المعتمدين، ومَن أراد تصديق ذلك، فليقابل ما في هذا المقتل وما نقله الطبري وغيره عنه حتّى يعلم ذلك، وقد بيّنت ذلك في نفس المهموم، في طرمّاح بن عدي، والله العالم**»[١٠٥].

ويقول اليوسفي الغروي: «**تتداول الأيدي والمطابع في هذه العهود المتأخّرة كتاباً في مقتل الحسين عليه السلام، نُسب إلى أبي مخنف، ومن المعلوم الواضح أنّه ليس لأبي مخنف، وإنّما هو من جمعِ جامعٍ غير أبي مخنف، ولا يُدرى بالضبط متى؟ وأين؟ وممّن وجد هذا الكتاب؟ ومتى طبع لأول مرّة؟**»[١٠٦].

أقول: ولكن صاحب الذريعة قد صرّح بأنّ الطبعة الأُولى لهذا المقتل كانت على الحجر في بمبئي منضمّاً إلى المجلد العاشر من (البحار) في سنة ١٢٨٧هـ[١٠٧].

ثمَّ أُعيدت طباعته على الحجر مرّتين: الأُولى في بمبئي عام ١٣٢٦هـ، منضمّاً إلى مثير الأحزان واللهوف، كما نصّ على ذلك التبريزي في مرآة الكتب[١٠٨]، والأُخرى في النجف الأشرف عام ١٣٥٣هـ، كما صرح بذلك الأميني في معجم المطبوعات

النجفيّة[١٠٩].

وللمقتل المتداول علامتان أساسيتان يمكن معرفته من خلالهما:

العلامة الأُولى: من خلال العنوان؛ حيث إنّ هذه النسخة عادة ما تُطبع بعنوان (مقتل الحسين عليه السلام ومصرع أهل بيته وأصحابه في كربلاء).

العلامة الأُخرى: من خلال الكلمات الأُولى فيه؛ حيث يبدأ بهذه الكلمات: «**قال أبو مخنف: حدَّثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي...**».

وهذه الكلمات هي أول مؤاخذة على هذا المقتل؛ فإنّ أبا مخنف هو شيخ هشام بن محمد وأُستاذه، فكيف يصح أن يحدِّث الأستاذ عن التلميذ؟ !

الأمر الرابع: أشرنا في الأمر السابق إلى أنّ الباحثين المحققين قد أجمعوا على ضياع مقتل أبي مخنف، وأنّه لم يصلنا منه إلّا ما نقله المؤرِّخون عن هذا المقتل، والمعروف بين المحققين أنّ أقدم نصٍّ نقل مرويات هذا المقتل هو كتاب تاريخ الرسل والملوك للطبري (ت٣١٠هـ).

يقول اليوسفي الغروي: «**وأقدم نصّ معروف لدينا ممّن نقل أحاديث هشام الكلبي في كتابه عن أبي مِخْنَف هو: تاريخ أبي جعفر محمّد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، وهو لمْ يُفرِد لها تأليفاً خاصّ اً، وإنّما ذكر الوقعة في أثناء تاريخه لحوادث سنة (٦٠ ـ ٦١هـ)**»[١١٠].

ويقول حسن غفاري: «**... أردت أن أجمع الأخبار الواردة في مقتل مولانا الشهيد أبي عبد الله الحسين ـ روحي له الفداء ـ بحيث كان كلّ مَن نظر فيه وتأمّل في مضامينه أغناه عن الرجوع إلى سائر المقاتل، وبينا أنا كنت مشغولاً بذلك بان لي أنّ من جملة المقاتل التي استندوا إليها ونقلوا عنها مقتل أبي مخنف المشهور بين الخواصّ والعوام، ونقل مهرة الفنّ**

عنه في زبرهم القديمة، كمحمد بن جرير الطبري في كتابه تاريخ الأُمم والملوك...»[١١١].

ويتكوّن مقتل أبي مخنف المستخرَج من تاريخ الطبري ـ بحسب ما حققه اليوسفي الغروي ـ من ٦٥ حديثاً مسنداً[١١٢]، رواها أبو مخنف بالمباشرة وبالواسطة عن ٣٩ راوياً، وقد وضع اليوسفي الغروي ستّ قوائم تفصيليّة بأسماء الرواة الوسائط بين أبي مخنف والأحداث، ووضع أمام اسم كلّ راوٍ منهم الحديث الذي رواه، فكانت هذه القوائم هي في حدّ ذاتها فهرستاً لأحاديث الكتاب أيضاً[١١٣]. وتتوّزع هذه الأحاديث المتناثرة في الطبري على حوادث المعركة وما قبلها وما بعدها، بشكل يغطّي أكثر التفاصيل، ويجيب على أغلب التساؤلات التي تشغل الباحث؛ ومن هنا أمكن إعادة تنسيقها وتشكيلها بحسب التسلسل الزمني للأحداث والخروج بمقتل متكامل أو شبه متكامل.

ولذا؛ قام المحققان الميرزا حسن الغفاري والشيخ اليوسفي الغروي بالتصدّي لإحياء مقتل أبي مخنف من خلال العمل على استخراج روايات أبي مخنف من تاريخ الطبري، ثمَّ تنسيقها بحسب تسلسل الأحداث ووضعها في كتاب مفرد يكون بديلاً للطبعة المتداولة بين الناس.

فكتب الأول مقتل الحسين عليه السلام، وكتب الثاني وقعة الطفّ، وكلاهما مستخرَجان من تاريخ الطبري.

طريق الطبري إلى مقتل أبي مخنف

طريق الطبري إلى مقتل أبي مخنف هو أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، الكوفي (ت ٢٠٦هـ).

ولا ريب في أنّ الطبري لم يتّصل بهشام بن محمد، فقد توفّي الأخير قبل ولادة الطبري بحوالي ١٨ عاماً، ومع ذلك نجد أنّ الطبري ـ في أحداث

سنتي ٦٠ ـ ٦١ هـ ـ يسند مروياته إلى هشام من دون أن يذكر الواسطة بينهما، ويمكن أن نتصوّر في هذا الخصوص ثلاث فرضيات:

الفرضية الأُولى: أن نقول بانقطاع السند بين الطبري وهشام الكلبي؛ وبالتالي سنحكم على مجموع روايات الطبري عن أبي مخنف بالإرسال؛ فتكون ضعيفة بحسب المقاييس الفقهية؛ لأنّنا نجهل الواسطة بينهما.

ولو أردنا أن نتكلّم بلغة مبسَّطة وواضحة للجميع نقول: بما أنّنا نجهل الواسطة التي نقلت مقتل أبي مخنف من هشام إلى الطبري، فلا يمكننا الجزم بنسبة هذا المقتل إلى أبي مخنف، فلا تكون قيمته التاريخية أفضل من المقتل المتداول.

الفرضية الثانية: ما ذكره اليوسفي الغروي ومفاده: أنّ الطبري كان يمتلك نسخة من مقتل أبي مخنف، فكان ينقل من الكتاب بشكل مباشر، وكان يعزز ذلك بمرويات من هذا المقتل، وردت إليه عن طريق تلميذه هشام، ولا يعيِّن لنا مَن حدَّثه عن هشام[١١٤].

وعلى ضوء هذه الفرضية؛ يكون دور هشام بن محمد دوراً هامشياً، والمصدر الأساسي الذي اعتمده الطبري هو كتاب مقتل أبي مخنف نفسه.

وممّا يعزّز هذه الفرضية، أنّ الطبري كثيراً ما يتجاوز هشام ويحدِّث عن أبي مخنف بالمباشرة، فيقول ـ مثلاً ـ: «**وقال: أبو مخنف**».

الفرضية الثالثة: ـ وهو ما توصلنا إليه في المقام ـ فنحن نرى أنّ طريق الطبري إلى هشام بن محمد معروف، فإنّ الطبري يروي عن الحارث بن محمد (ت ٢٨٢هـ)[١١٥]، عن محمد بن سعد صاحب الطبقات (ت ٢٣٠هـ)، عن هشام بن محمد، عن أبي مخنف.

وليس للطبري طريق إلى هشام غير ما ذكرنا، وقد صرَّح الطبري بذلك في ستّة موارد في الجزء الأول من تاريخه[١١٦]، وبعد أن صار طريقه

معروفاً إلى هشام بن محمد، بدأ يسند إلى هشام بن محمد بقوله ـ مثلاً ـ: «**حُدِّثتُ**». بصيغة المبني للمجهول، وهذه الطريقة في الاختصار تُسمى في علم الرجال بـ (التعليق)، وهي طريقة معروفة بينهم، لا سيما بين المتقدِّمين.

قال صاحب المعالم في منتقى الجمان: «**اعلم أنّه اتّفق لبعض الأصحاب توهم الانقطاع في جملة من أسانيد الكافي؛ لغفلتهم عن ملاحظة بنائه لكثير منها على طرق سابقة، وهي طريقة معروفة بين القدماء، والعجب أنّ الشيخ رحمه الله ربما غفل عن مراعاتها؛ فأورد الإسناد من الكافي بصورته ووصله بطرقه عن الكليني من غير ذكر للواسطة المتروكة؛ فيصير الإسناد في رواية الشيخ له منقطعاً، ولكن مراجعة الكافي تفيد وصله. ومنشأ التوهم الذي أشرنا إليه فقد الممارسة المطّلعة على التزام تلك الطريقة...**»[١١٧].

يقول جعفر السبحاني ـ حول طريقة الكليني في الإسناد ـ: «**... قد يحذف الكليني صدر السند في خبرٍ مبتنياً على الخبر الذي قبله، وهذا ما يُعبَّر عنه في كلام أهل الدراية بالتعليق، فمثلاً يقول في الخبر الأول من الباب: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن منصور بن يونس.. وفي الخبر الثاني منه: ابن أبي عمير، عن الحسن بن عطية، عن عمر بن يزيد. أو يقول في الخبر الأول من الباب: علي، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن أبي عبد الله صاحب السابري.. وفي الخبر الثاني منه: ابن أبي عمير، عن ابن رئاب، عن إسماعيل بن الفضل. وفي الخبر الثالث منه: ابن أبي عمير، عن حفص بن البختري، عن أبي عبد الله عليه السلام...**»[١١٨].

وعلى هذا الأساس ـ أيضاً ـ نفسِّر إسناد الطبري إلى أبي مخنف مباشرة؛

فإنّه لم يسند إليه إلّا بعد أن صار واضحاً أنّه يروي عنه بواسطة هشام.

وفي ضوء هذه الفرضية تتهاوى الفرضيتان السابقتان، وإن كنّا في الوقت نفسه لا نمانع من وصول كتاب مقتل أبي مخنف إلى الطبري، من خلال هذا الطريق عينه.

الأمر الخامس: أشرنا ـ فيما مضى ـ إلى أنّ أقدم نصٍّ تاريخي يحتوي على نقولات من مقتل أبي مخنف هو تاريخ الطبري، وهذا لا يعني أنّه النصّ الوحيد، فهناك العديد من النصوص التي اشتملت على مرويات من هذا المقتل، وهذه النصوص على أنواع:

النوع الأول: ما لم يكن طريقه إلى مقتل أبي مخنف يمرّ بالطبري، كالبلاذري (ت٢٧٩هـ) في أنساب الأشراف، وابن أعثم الكوفي (ت نحو٣١٤هـ) في الفتوح، والمسعودي (ت٣٤٥هـ) في مروج الذهب، وأبو الفرج الأصفهاني (ت٣٥٦هـ) في مقاتل الطالبيين، وغيرهم ممّن نقل عن أبي مخنف عن غير طريق الطبري.

ويمكن عدّ المفيد (ت٤١٣هـ) في الإرشاد، وسبط ابن الجوزي (ت٦٥٤هـ) في التذكرة منهم؛ فإنّهما لا ينقلان عن مقتل أبي مخنف عن طريق الطبري على ما يبدو، ففي هذه الكتب وأمثالها يجد الباحث شذرات مبثوثة من هذا المقتل يمكن اقتصاصها وإضافتها إلى مقتل أبي مخنف المستخرَج من الطبري.

النوع الثاني: ما كان معتمداً على نسخة الطبري من المؤرخين المتأخرين عنه، كابن الأثير (ت٦٣٠هـ) في الكامل في التاريخ، والذهبي (ت٧٤٨هـ) في تاريخ الإسلام، وابن كثير (ت٧٧٤هـ) في البداية والنهاية، وابن شهر آشوب (ت٥٨٨هـ) في مناقب آل أبي طالب؛ فإنّ لكلّ واحد من هؤلاء طريقه الخاصّ إلى تاريخ الطبري، وبعض هذه النسخ غير مطابقة لنسخة الطبري

المتداولة في بعض الموارد.

وبالتالي؛ فإنّ المتتبّع لا يعدم ـ من خلال المقارنة ـ من التقاط بعض العبارات الساقطة من تاريخ الطبري، وهي وإن كانت نادرة جداً إلّا أنّنا بحاجة إليها أيضاً، فلعل فيها سداً لثغرة مهمّة في التاريخ الكربلائي.

النوع الثالث: نسخ من مقتل أبي مخنف لا تتطابق مع نسخة الطبري، ولا مع الطبعة المتداولة، وأبرز نماذج ذلك نسختان:

١ـ نسخة القندوزي (ت١٢٩٤ هـ) في ينابيع المودّة:

فقد خصص الباب الحادي والستين من الجزء الثالث من كتابه لما أورده أبو مخنف، وعند المقارنة يتّضح للباحث عدم تطابق هذه النسخة مع النسخة الشائعة المتداولة ولا نسخة الطبري، كما اتّضح لنا عند التحقيق أنّ هذه النسخة لا يمكن أن تكون ملفّقة من النسختين لانفرادها بالعديد من الموارد، مع أنّه يقول في صدر الباب: «**الباب الحادى والستّون في إيراد ما في الكتاب المسمى بـ (مقتل أبي مخنف)، الذي ذكر فيه شهادة الحسين وأصحابه مفصلاً...**»[١١٩].

وهذا النصّ صريح بأنّه ينقل عن كتابٍ كان لديه اسمه (مقتل أبي مخنف)؛ فتكون هذه نسخة ثالثة من مقتل أبي مخنف ينبغي للباحثين والمحققين أن يلتفتوا إليها.

٢ـ نسخة إعجاز حسين النيسابوري الكنتوري (ت١٢٨٦ هـ):

قال في كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار: «**مقتل الحسين عليه السلام للوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف (بكسر الميم وإسكان الخاء المعجمة وفتح النون) بن سالم الأزدي الغامدي أوله: قال أبو منذر هشام بن السائب الكلبي: أخبرنا أبو عبد الله بن الجاسر، قال أخبرنا أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي إلخ**»[١٢٠].

ولا ريب في أنّ هذا المقتل الذي يتحدَّث عنه صاحب (كشف الحجب) غير المقتل المشهور؛ لأنّ أوله ـ كما مرَّ علينا ـ هكذا: «قال أبو مخنف: حدَّثنا أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي...».

وممّا لا بدّ أن يُشار إليه: هو أنّ صاحب (كشف الحجب) من العلماء المحققين والمنقِّبين في الآثار، حيث يقول عنه شهاب الدين الحسيني المرعشي النجفي: «واعلم أنّه سافر إلى العراق، وزار المشاهد المشرَّفة، واجتمع بعلمائها فأفاد واستفاد، وكثرت مجالسته مع العلّامة الحاج الميرزا حسين النوري شيخ مشايخنا في الرواية، وجمع هناك عدّة كُتب، ومن نفائس المخطوطات، فجاء بها إلى خزانة كُتب أخيه صاحب العبقات»[١٢١].

ولا يخفى أنّ عصر صاحب (كشف الحجب) هو عصر اكتشاف الأُصول المندثرة، وقد اكتُشفت في هذه الفترة العديد من الكتب التراثية المفقودة[١٢٢]؛ ولذا لا نستبعد أن تكون نسخة صاحب (كشف الحجب) من بين تلك الأُصول المكتشفة في تلك الفترة، ولكنّنا مع شديد الأسف لا نعلم شيئاً عن مصير تلك النسخة.

إنّ هاتين النسختين ـ نسخة ينابيع المودّة، ونسخة كشف الحجب والأستار ـ هما أبرز نماذج نسخ مقتل أبي مخنف، التي لا تطابق نسخة الطبري، ولا النسخة المتداولة، ويظهر من خلال التأمّل في منقولات صاحب أسرار الشهادة عن مقتل أبي مخنف، ومقارنتها بالمقتل المتداول، ونسخة الطبري، وجود نسخ متعددة لمقتل أبي مخنف، ويبدو أنّ الدربندي كان ملتفتاً إلى ذلك، حيث يقول في بعض تلك الموارد: «**وفي نسخة من نسخ كتاب أبي مخنف هكذا...**»[١٢٣].

فهذه العبارة تدلّ بوضوح على تعدد نسخ مقتل أبي مخنف، وأنّ صاحب أسرار الشهادة كان ملتفتاً إلى هذا التعدد.

وفي ضوء هذه الحقائق التي ذكرناها؛ فإنّنا نرى أنّه يمكن ـ مع مضاعفة الجهود ـ أنّ يُكتب مقتل أبي مخنف بحجم أكبر من المقتل المستخرَج من تاريخ الطبري.

خاتمة بأهم نتائج البحث

في ختام بحثنا ـ حول أبي مخنف ومقتله ـ نرى أنّه من تمام البحث أن نقوم بتلخيص أهمّ النتائج التي خرجنا بها:

١ـ إنّ أبا مخنف لوط بن يحيى الكوفي الأزدي هو من أعلام القرنين الأول والثاني الهجريين.

٢ـ كان أبو مخنف من كبار الأخباريين والمؤرِّخين في عصره، وقد اختصّ بتاريخ العراق والتشيّع في الفترة التي تلت رحيل النبي صلى الله عليه وآله إلى أواخر العصر الأُموي، وقد عُدَّ أعلم المؤرِّخين بتاريخ العراق والتشيّع فيما يخصّ هذه الفترة.

٣ـ كان أبو مخنف شديد الولاء والمحبّة لأهل البيت عليهم السلام، متجاهراً في نقل مخازي أعدائهم إلى الحدّ الذي أوهم بعض الباحثين بكونه إمامياً، مع أنّه لم يكن على مذهب أهل البيت عليهم السلام، ولكنّه لم يكن متعصباً.

٤ـ تكاد تتّفق كلمة الرجاليين منّا على توثيق أبي مخنف، وقبول مروياته، وفي المقابل تكاد تتّفق كلمة مخالفينا على ترك أبي مخنف وتضعيفه، ومع ذلك فقد أجمع المؤرِّخون من الفريقين على عدم الاستغناء عنه فيما يخصّ مروياته التاريخيّة.

٥ـ يُعتبر أبو مخنف من أهمّ مؤرِّخي واقعة الطف، ويُعتبر مقتله أشهر المقاتل الحسينيّة على الإطلاق، وقد جاءت هذه الأهمّية والشهرة ممَّا تضمنه هذا المقتل من تفاصيل تكاد تكون مفقودة في غيره، ومما سلكه من طريق علمي في جمع أخباره وتدوينها، وهو طريق الإسناد المعمول به بين المحدثين.

٦ـ مقتل أبي مخنف مفقود في هذا العصر، ولم يتبقَّ منه سوى ما نقله

المؤرِّخون المتأخرون عنه، وفي مقدمتهم الطبري في تاريخه الكبير، وأمّا النسخة المتداولة فهي منحولة عليه بإجماع المحققين.

٧ـ تمكنّا من العثور على الواسطة المفقودة بين الطبري وهشام بن محمد الكلبي راوي مقتل أبي مخنف، وبذلك سددنا الطريق على مَن أراد أن يطعن بمرويات هذا المقتل بكونها مراسيل، ولا أتصور أنّ أحداً من الباحثين والمحققين قد سبقنا إلى هذه النتيجة المهمّة.

٨ـ أثبتنا أنّ تاريخ الطبري ليس هو النصّ الوحيد المتضمِّن لمرويات أبي مخنف، وهذه النصوص بعضها لا يمرّ بالطبري، وينهل من أبي مخنف مباشرة، وبعضها ينهل من الطبري، ولكنّها تحتوي على زيادات غير موجودة في المطبوعة المتداولة، وبعضها عبارة عن نسخ من هذا المقتل لا تتطابق مع نسخة الطبري، والنسخة المتداولة؛ وبهذا نكون قد أعنَّا الباحثين والمحققين المختصّين في هذا الشأن على التوصل إلى إمكانية كتابة مقتل أبي مخنف بصورة أوسع من الصورة المستخرَجة من تاريخ الطبري.

الهوامش:

[١] القائني، محمد باقر، الكبريت الأحمر: ج١، ص٤٣.

[٢] هو مولى الرباب بنت امرئ القيس الكلبية زوجة الحسين عليه السلام، وقد صاحب الحسين عليه السلام من المدينة إلى مكّة ومن مكّة إلى كربلاء، ولم يُفارقه حتى قتل عليه السلام، ولكنه لم يوفّق لنيل الشهادة بين يدي الإمام الحسين عليه السلام، ولم يكن له دورٌ قتالي أصلاً، وبعد انتهاء المعركة وقع في الأسر، فعرضوه على ابن سعد، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا عبد مملوك. فخلّى سبيله، وأصبح بعد ذلك من رواة واقعة الطف، وقد حرص أبو مخنف على الاتّصال به والأخذ منه. هذا ما استفدناه من مواضع عدّة من تاريخ الطبري: ج٤، ص٢٦٠، وص٣١٣، وص٣٤٧.

[٣] روى عنها أبو مخنف خبراً واحداً حول التحاق زوجها زهير بالحسين عليه السلام، وهو يرويه عنها مباشرة. أُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج٤، ص٢٩٨.

[٤] أُنظر: المصدر السابق: ج٤، ص٢٨١. وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل: ج٢، ص٤٧٦: «جعفر بن حذيفة من آل عامر بن جوين بن عائذ بن قيس الجرمي، كان مع علي يوم صفين، روى عنه أبو مخنف لوط بن يحيى...»، وعدّه ابن حبان في الثقات. أُنظر: ابن حبان، ثقات ابن حبان: ج٤،

ص١٠٥.

[٥] أُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج٤، ص٣٠٤.

[٦] ويحيى هذا وإن كان أبوه من رموز الثورة وقياديها إلّا أنّ أُمّه روعة كانت أخت عمرو بن الحجاج، وكان مشدوداً إلى خاله، وكان معه في كربلاء في عسكر عمر بن سعد، وكان معه أيضاً في قتاله ضد المختار تحت إمرة عبد الله بن مطيع والي الكوفة من قِبَل ابن الزبير. أُنظر: المصدر السابق: ج٦، ص٣٣١، وص٥٠٤.

[٧] أُنظر: المصدر السابق: ج٤، ص٣١١، وص٣١٢، وص٣١٤، وص٣٢٦، وص٣٣٤، وص٣٤٠، وص٣٤١، وص٣٤٤، وص٣٤٥، وص٣٤٧.

[٨] وكانا مهتمّين بمتابعة أخبار النهضة، كما صرحا بذلك حيث قالا: «لما قضينا حجّنا لم يكن لنا همّة إلّا اللحاق بالحسين في الطريق لننظر ما يكون من أمره وشأنه». أُنظر: المصدر السابق: ج٤، ص٢٢٩.

[٩] أُنظر أخبارهما في تاريخ الطبري: ج٤، ص٢٨٩، وص٢٩٠، وص٢٩٩، وص٣٠٠، وص٣٠٢.

[١٠] هكذا ضُبط في أكثر المصادر من الفريقين. أُنظر: الكلبي، نسب معد واليمن الكبير: ج٢، ص٤٨٢. ابن سعد، طبقات ابن سعد: ج١، ص٧٨٧. الطبري، تاريخ الطبري: ج٤، ص٥٤٦. الطبري، المنتخب من ذيل المذيّل: ص٤٧. ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب: ج٨، ص٣٦٧٣. ابن عبد البرّ، الاستيعاب: ج٤، ص١٤٧٦. ابن حجر، الإصابة: ج٦، ص٤٦. ابن قتيبة، المعارف: ص٥٣٧. ابن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب: ج١، ص٥٢٩. ابن الأثير، أُسد الغابة: ج٤، ص٣٥٢. ابن حجر، تهذيب التهذيب: ج١٠، ص٧٨. العيني، بدر الدين، مغاني الأخبار: ج٣، ص٤٠٨. البابـاني، هدية العارفين: ج١، ص٤٤٤. حسن زاده آملي، أضبط المقال في ضبط أسماء الرجال: ص١١٩. القمّي، الكنى والألقاب: ج١، ص١٥٥.

[١١] كما في رجال النجاشي: ص٣٢٠، مع أنّه عدّ من كُتبه بعد ذلك: كتاب أخبار مخنف بن سليم؛ ولذا احتمل بعض الباحثين أنّه من تصحيف النسّاخ، وممّن تابع النجاشي في ذلك: العلّامة الحلّي في إيضاح الاشتباه: ص٣٥٩، والتفرشي في نقد الرجال: ج٤، ص٧٤.

[١٢] كما في معجم الأدباء للحموي: ج٥، ص٢٢٥٢، وتابعه على ذلك: ابن شاكر في فوات الوفيات: ج٣، ص٣٢٥. وعبد السلام عباس الوجيه في معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين: ص٢٦٢، وعمر كحالة في معجم المؤلفين: ج٨، ص١٥٧.

[١٣] ابن دريد، الاشتقاق: ص٤٩٣.

[١٤] أُنظر: السمعاني، أنساب السمعاني: ج١، ص١٨٠.

[١٥] الجوهري، الصحاح: ج٢، ص٦٤. مادة (شنأ).

[١٦] أُنظر: ابن الأثير، أُسد الغابة: ج٢، ص٣٩٧.

[١٧] أُنظر: ابن سعد، طبقات ابن سعد: ج٦، ص١٠٩.

[١٨] أُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج٧، ص١٨٣.

[١٩] أُنظر: الطوسي، رجال الطوسي: ص٥٨.

[٢٠] أُنظر: ابن داود، رجال ابن داود: ص١٨٧.
[٢١] أُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج٤، ص٥٢١.
[٢٢] أُنظر: المنقري، وقعة صفين: ص١١.
[٢٣] المصدر السابق: ص١٠٤ ـ ص١٠٥.
[٢٤] المصدر السابق: ص١٠٥.
[٢٥] أُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج٥، ص١٣٣.
[٢٦] أبو مخنف، وقعة الطف: ص٢٣، تحقيق محمد هادي اليوسفي الغروي.
[٢٧] الطبري، تاريخ الطبري: ج١، ص٨.
[٢٨] أُنظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب: ج١٠، ص٧٨.
[٢٩] أُنظر: الطبري، منتخب ذيل المذيّل: ص٤٧.
[٣٠] أُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج٥، ص١٣٣.
[٣١] أُنظر: البلاذري، أنساب الأشراف: ج٦، ص٣٨٩.
[٣٢] أُنظر: المصدر السابق: ج٦، ص٣٩٨.
[٣٣] أُنظر: المصدر السابق: ج٦، ص٤٢٩.
[٣٤] أُنظر: الطبري، تاريخ الطبري: ج٦، ص١١١ـ ١١٢. ابن الجوزي، المنتظم: ج٦، ص١٦٥.
[٣٥] أُنظر: الحموي، معجم الأدباء: ج٥، ص٢٢٥٢، وتابعه على ذلك: ابن شاكر، فوات الوفيات: ج٣، ص٣٢٥. عبد السلام بن عباس الوجيه، معجم رجال الاعتبار وسلوة العارفين: ص٢٦٢. عمر كحالة، معجم المؤلفين: ج٨، ص١٥٧.
[٣٦] لم يذكر الطوسي ذلك في ترجمة خاصّة ليحيي، وإنّما ذكره ضمن ترجمته لأبي مخنف، حيث قال ـ بعد أن ذكر أبا مخنف في طبقة أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام مجاراةً للكشي ـ: «وعندي أنّ هذا غلط؛ لأنّ لوط بن يحيى لم يلقَ أمير المؤمنين عليه السلام، وكان أبوه يحيى من أصحابه». الطوسي، رجال الطوسي: ص٥٧.
[٣٧] أُنظر: ابن شهر آشوب، معالم العلماء: ص١٢٩ـ ص١٣٠.
[٣٨] أُنظر ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ: الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج١٣، ص٣٤٢. الذهبي، تاريخ الإسلام: ج٩، ص٥٨١. ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال: ج٧، ص٢٤١. الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ج٣، ص٥٦٢.
[٣٩] الطوسي، رجال الطوسي: ص٥٧.
[٤٠] المصدر السابق: ص٧٠.
[٤١] ابن النديم، الفهرست: ص١٢٢.
[٤٢] يوليوس فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ترجمه عن الألمانية الدكتور عبد الرحمن بدوي: ص١١٣.
[٤٣] النجاشي، رجال النجاشي: ص٣٢٠.
[٤٤] أُنظر: الطوسي، رجال الطوسي: ص٥٧.

[٤٥] المصدر السابق: ص٧٠، وص٧٩.
[٤٦] أُنظر: النجاشي، رجال النجاشي: ص٣٢٠.
[٤٧] أُنظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج١٠، ص١٠١.
[٤٨] أُنظر: الصدوق، أمالي الصدوق: ص١٤٢. المجلسي، بحار الأنوار: ج٢٣، ص٤٩.
[٤٩] أُنظر: ابن النديم، الفهرست: ص١٢٢.
[٥٠] أُنظر: الذهبي، ميزان الاعتدال: ج٣، ص٤٢٠. الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج٧، ص٣٠٢.
[٥١] أُنظر: النجاشي، رجال النجاشي: ص٣٢٠.
[٥٢] أُنظر: ابن النديم، الفهرست: ص١٢٢.
[٥٣] أُنظر: الحموي، معجم الأدباء: ج٥، ص٢٢٥٣.
[٥٤] أُنظر: الصفدي، الوافي بالوفيات: ج٢٤، ص٣٠٦.
[٥٥] أُنظر: جليل تاري، حقائق السقيفة في دراسة رواية أبي مخنف، ترجمة أحمد الفاضل: ص١٣.
[٥٦] ومن تلك الروايات ما نقله أبو مخنف ـ لمّا خطب الحسين عليه السلام وسمع أخواته خطبته ـ «صحن وبكين، وبكى بناته فارتفعت أصواتهن، فأرسل إليهن أخاه العباس بن علي وعلياً ابنه، وقال لهما: أسكتاهن، فلعمري ليكثرن بكاؤهن. قال: فلمّا ذهبا ليسكتاهن، قال: لا يبعد ابن عباس. قال: فظننا أنّه إنّما قالها حين سمع بكاؤهن؛ لأنّه قد كان نهاه أن يخرج بهن...». الطبري، تاريخ الطبري: ج٥، ص٤٢٤.
[٥٧] ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ج١، ص١٤٧.
[٥٨] المصدر السابق: ج١، ص١٤٠ـ ص١٤١.
[٥٩] المامقاني، تنقيح المقال: ج٢، ص٤٤.
[٦٠] المفيد، الجمل: ص٢٢٥.
[٦١] أبو مخنف، وقعة الطف، تحقيق محمد هادي اليوسفي الغروي: ص٢٨.
[٦٢] المصدر السابق: ص٢٨.
[٦٣] الذهبي، تاريخ الإسلام: ج٩، ص٥٨١.
[٦٤] ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال: ج٧، ص٢٤١.
[٦٥] التستري، قاموس الرجال: ج٧، ص٤٧٧.
[٦٦] أُنظر: ابن قتيبة، المعارف: ص٥٣٧.
[٦٧] أُنظر: المصدر السابق: ص٦٢٤.
[٦٨] أُنظر: ابن النديم، الفهرست: ص١٢٢.
[٦٩] أُنظر: المصدر السابق: ص١٠.
[٧٠] النجاشي، رجال النجاشي: ص٣٢٠ ـ ٣٢١.
[٧١] أُنظر: الحلّي، خلاصة الأقوال في معرفة الرجال: ص٢٣٤.
[٧٢] أُنظر: التفرشي، نقد الرجال: ج٤، ص٧٥.

[٧٣] أُنظر: البروجردي، طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال: ج١، ص٥٦٦.
[٧٤] أُنظر: الخوئي، معجم رجال الحديث: ج١٥، ص١٤٢.
[٧٥] أُنظر: الشبستري، الفائق في رواة وأصحاب الإمام الصادق عليه السلام: ج١، ص٦٢٥.
[٧٦] قال ابن داود في رجاله: ص٢٩: «الجزء الأول من الكتاب في ذكر الممدوحين ومَن لم يضعفهم الأصحاب فيما علمته»، ويفهم منه أنّه يعمل بخبر الراوي المهمَل كما يعمل بخبر الراوي الممدوح.
[٧٧] النوري، خاتمة المستدرك: ج٣، ص١٤٧.
[٧٨] الشهيد الثاني، مسالك الأفهام: ج٧، ص٤٦٧.
[٧٩] النوري، خاتمة المستدرك: ج٣، ص١٤٧، نقلاً عن كتاب شرح الاستبصار المخطوط لحفيد الشهيد الثاني.
[٨٠] الإسترابادي، منهج المقال: ص١٧٤.
[٨١] أُنظر: الصدر، حسن، نهاية الدراية: ص٣٩٩.
[٨٢] أُنظر: ابن الجوزي، الضعفاء والمتروكون: ج٣، ص٢٨.
[٨٣] ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال: ج٧، ص٢٤١.
[٨٤] ابن كثير، البداية والنهاية: ج٧، ص٣٤٣.
[٨٥] المصدر السابق: ج٨، ص٢٢٠.
[٨٦] الربعي، تاريخ مولد العلماء ووفياتهم: ج١، ص٣٦٦.
[٨٧] الحموي، معجم الأدباء: ج٥، ص٢٢٥٢.
[٨٨] الذهبي، سير أعلام النبلاء: ج١٣، ص٣٤٢.
[٨٩] الذهبي، تاريخ الإسلام: ج٩، ص٥٨١.
[٩٠] الصفدي، الوافي بالوفيات: ج٢٤، ص٣٠٦.
[٩١] أُنظر: الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج١، ص٣١٢، ص٣٢٤، ص٣٢٧، ص٣٣١، ص٣٣٣، ص٣٣٥.
[٩٢] الزركلي، الأعلام: ج٥، ص٢٥٤.
[٩٣] عمر كحالة، معجم المؤلفين: ج٨، ص١٥٧.
[٩٤] الذهبي، ميزان الاعتدال: ج٣، ص٤٢٠.
[٩٥] البغدادي، إسماعيل، إيضاح المكنون: ج٢، ص١٧٨ ـ٢٨٩.
[٩٦] البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين: ص٨٤١.
[٩٧] أُنظر: ابن النديم، الفهرست: ص١٢٢.
[٩٨] النجاشي، رجال النجاشي: ص٣٢٠.
[٩٩] الطوسي، الفهرست: ص١٢٩.
[١٠٠] ابن شهر آشوب، معالم العلماء: ص١٢٩.
[١٠١] أُنظر: الحموي، معجم الأُدباء: ج٥، ص٢٢٥٣.

[١٠٢] شمس الدين، محمد مهدي، أنصار الحسين عليه السلام: ص٣٣.
[١٠٣] أبو مخنف، وقعة الطفّ: ص١٦ـ ص١٧. تحقيق: محمد هادي اليوسفي الغروي.
[١٠٤] شرف الدين، عبد الحسين، مؤلفو الشيعة في صدر الإسلام: ص٤٢.
[١٠٥] القمّي، الكنى والألقاب: ج١، ص٥٥.
[١٠٦] أبو مخنف، وقعة الطفّ: ص٣٢. تحقيق: محمد هادي اليوسفي الغروي.
[١٠٧] أُنظر: الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة: ج٢٢، ص٢٧.
[١٠٨] أُنظر: التبريزي، مرآة الكتب: ج١، ص٤٣٤.
[١٠٩] أُنظر: الأميني، معجم المطبوعات النجفيّة: ص١٣١.
[١١٠] أبو مخنف، وقعة الطف: ص١٨، تحقيق: محمد هادي اليوسفي الغروي.
[١١١] أبو مخنف، مقتل الحسين عليه السلام: ص٣٨٦، تحقيق: حسن الغفاري.
[١١٢] مرّ علينا عند الحديث عن مصنّفات أبي مخنف أنّ مروياته حول كربلاء تبلغ (١١٨)، وهذا الرقم بملاحظة تقطيع بعض الروايات، وعدِّ كلّ مقطعٍ روايةً، فالمسألة نسبية.
[١١٣] أُنظر: أبو مخنف، وقعة الطف: ص٤٠ ـ ٨١. تحقيق: محمد هادي اليوسفي الغروي.
[١١٤] أُنظر: أبو مخنف، وقعة الطف: ص١٨ـ ص١٩، تحقيق: محمد هادي اليوسفي الغروي.
[١١٥] الحارث بن محمد ابن أبي أسامة داهر التميمي: من حفّاظ الحديث، له (مسند) لم يرتّبه، ولد سنة ١٨٦هـ وتوفّي سنة ٢٨٢ هـ، سمع يزيد بن هارون وعبد الوهاب الخفاف والواقدي ومحمد بن سعد وغيرهم، وروى عنه أبو جعفر الطبري، وأبو بكر بن خلاد، وأبو بكر الشافعي وخلق كثير. وثّقه أكثر أهل الحديث، ومنهم الدارقطني، وهو راوي كتاب الطبقات عن أُستاذه محمد بن سعد. أُنظر ترجمته في: ابن حبان، ثقات ابن حبان: ج٨، ص١٨٣. الذهبي، المغني في الضعفاء: ج١، ص١٤٣. البغدادي، تاريخ بغداد: ج٩، ص١١٤. الذهبي، تذكرة الحفّاظ: ج٢، ص١٤٥. الذهبي، ميزان الاعتدال: ج١، ص٤٤٢. السيوطي، طبقات الحفّاظ: ج١، ص٢٧٦. الصفدي، الوافي بالوفيات: ج١١، ص٢٠٠. الزركلي، الأعلام: ج٢، ص١٥٧. عمر كحالة، معجم المؤلفين: ج٣، ص١٧٦. وغير ذلك من المصادر والمراجع.
[١١٦] أُنظر: تاريخ الطبري: ج١، ص١٢٠، ص١٢٧، ص١٥٢، ص١٦٠، ص٢٠٦، ص٢٠٩.
[١١٧] حسن (صاحب المعالم)، منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان: ج١، ص٢٤ـ ٢٥.
[١١٨] السبحاني، كليات في علم الرجال: ص٤٥٠.
[١١٩] القندوزي، ينابيع المودة: ج٣، ص٥٣.
[١٢٠] النيسابوري الكنتوري، كشف الحجب والأستار عن أسماء الكتب والأسفار: ص٥٤٥.
[١٢١] المصدر السابق (مقدمة الكتاب): ص٣.
[١٢٢] أُنظر: حبّ الله، حيدر، نظرية السنّة في الفكر الإمامي: ص٢٧٦.
[١٢٣] الدربندي، أسرار الشهادة: ج٣، ص٤٦٥.

من عبق الفكر والمعرفة

محمد سعدون المطوري
باحث / وزارة الثقافة والآثار العراقية

الغرب للّه.. الشرق للشيطان !

في تصورات بعض المستشرقين

في صدر الاسلام تبنى مجموعة من الرهبان وآباء الكنيسة الشرقية مهمة دراسة النصوص الاسلامية، وكانت الصورة التي كونوها عن الاسلام انه دين مزيّف وقرآنه محرّف عن المسيحية، وفي القرون الوسطى تم صناعة صورة الاسلام بوحي من كنيسة روما، وكان الاسلام في تلك الصورة عبارة عن هرطقة، وفي عصر النهضة وانتشار الجامعات الاكاديمية مزج المستشرقون مع كثرتهم وتنوع مرجعياتهم صورة الاسلام بطيف من رؤى وأفكار لا تعد ولا تحصى في الغالب كان الاسلام فيها غير منطقي ولا يلائم تغيرات الحياة، اما في الوقت الحاضر فتُصنع هذه الصورة في مراكز دراسات الشرق أوسطية، التي قرنت صورة الاسلام بالتطرف والارهاب.

النتيجة واحدة في جميع هذه المراحل، وهي ان يبقى الاسلام مشوهاً وقبيحاً، فالغرب تعلم درساً تاريخياً عن خطورة الثقافات الغريبة، وفي مقدمتها الثقافة الاسلامية، وتفاصيل هذا الدروس يتم ايضاحها للمجتمع الغربي من خلال الجامعات، كما يتم عرضها على جدران المتاحف للمعرفة والاستمتاع، ولكن بدراما تبين مدى الاختلاف واللاانتماء بين ثقافة الغرباء والثقافة الغربية، وتفيد تفاصيل اللاانتماء هذا بتفوق الغرب وصواب اختياراته الى حد الاطمئنان بأنّ الله معه وقد اوكل اليه قيادة العالم، بينما يكون نصيب الشرق والاسلام الفشل والجهل والظلامية؛ لأنّ الله اعرض عنهما بسبب وحشيتهما وبربريتهما !

انّ تصور الاسلام بوصفه عدواً شيطانياً له اولياته في فكر الاقليات الدينية في صدر الاسلام، الا ان الظروف لم تسمح لها بالاعلان عن تصوراتها بعد سيطرة قوانين الاسلام، وليس جزافا ان نفترض ان ابرز تلك الاقليات وهم النصارى لم يتخلوا عن التثقيف ضد الاسلام بالسر[1]. وان كان الاسلام ابدى اكتساحه للقوى والحضارات المجاورة فإنّ الاقليات المسيحية ابدت صمودا وتمسكا بدينهم وثقافتهم وهم تحت سلطة الاسلام ونفوذه، وقد جسد هذا الموقف الطبيب النسطوري جرجيس بن جبرائيل بن يختيشوع عندما رفض دعوة المنصور للدخول في الاسلام قائلا له: «رضيت حيث آبائي في الجنة او في النار»[2].

ان دور تلك الاقليات مع تاثيرها لم يشكل خطرا عميقا واستراتيجيا على نظرة شعوب المنطقة الى الاسلام، فمع بداياته كان الاسلام بسيطا، وشبه موحد، في حين تمكنت اوروبا في منتصف القرون الوسطى من النيل منه بعد ان اصبح مثقلا بتراكمات تراثية هائلة (مذاهب - فرق- فلسفة - مدارس الفقه- انقسامات سياسية..)،

تلك العوامل اصبحت مكشوفة للآخر الذي استغلها في تعميق الاختلافات بين المسلمين، وضرب مرتكزات الاسلام الاساسية الوحي - القرآن - النبوة - اصول الشريعة الاسلامية الى آخره من الموضوعات الحساسة.

اما مواجهات كنيسة روما للاسلام المنتصر فلم تعبر في البداية الا عن اليأس والاستسلام، وقرب النهاية الحتمية في نفوس رجال اللاهوت المسيحي، وليأسهم عادوا لمفهوم الغيب ودوره في الاخبار عن نهاية العالم، مع المقارنة بين تلك النهاية وبين دخول المسلمين الى ارضهم، معززين موقفهم باشاعة روايات نذر العهد القديم[٣]، ساعدت ردود الافعال هذه في قلب بعض الموازين، فكانت المكاسب الاولى تنامي مفهوم الجهاد وظهور حركة الاستشهاديين. ثم الانتقال الى مرحلة اعداد الموجات البشرية من جميع بلدان اوروبا روحا وقالبا للتصدي للشيطان المتمثل بالاسلام، وبالفعل تطوعت مجتمعات اروبا وبقناعة تامة لجهاد الكفار من المسلمين والدخول معهم في حرب طويلة الامد عرفت بالصليبية. ولنا ان نتصور في وقتها انطباع المجتمع المسيحي عن صورة الاسلام حتى يكون المقتول في المعركة ضده شهيدا حسب ما اعلنه اباء الكنيسة في روما[٤].

ويمكن ملاحظة ان رؤى القرون الوسطى وتصوراتها مستمرة مع مفكرين غربيين ومستشرقين الى وقتنا الراهن، وان كان منهج البحث التاريخي الحديث قد يشكل عقبة بالنسبة اليهم لاحتمال ان يكشف زيف تلك التصورات، لذلك اتجهت الابحاث الغربية مؤخرا نحو اهتمامات أُخر، وجدت ضالتها في تغذية الاسلام المتطرف واحتوائه. والعمل باستمرار على مقاربة الاسلام مع مصطلحات تهديمية ناقضة، الارهاب ـ التشدد..، اينما ذكر اسم الاسلام في الاعلام

والبحوث والمقالات.

وقد فرضت هذا الاهتمامات الجديدة ضرورات مرتبطة بالرؤية الغربية للاسلام المحملة بالمخاوف والترقب ادت الى تفضيل شرور الجماعات المتطرفة، على اخطار المد الثقافي الاسلامي، فتبنى الغرب توجيه هذه الجماعات وتسليحها على وفق خطط ومجهودات مكلفة، ففي النهاية سيكون اتساع هذه الجماعات واستقوائها على حساب سمعة الدين الاسلامي، وقد ثبت ان الدين الذي تمثله تلك الجماعات هو المفضل والممتع في قراءات مفكري الغرب ومستشرقيه في هذه الايام، في حين تختفي من اهتماماتهم صور مشرقة يجدها الباحث بسهولة في خُلق الامام علي بن ابي طالب، وجعفر الصادق وعلي بن موسى الرضا عليهم السلام وسلوكهم، ويجدها في فقهيات علماء الشيعة، وارشاداتهم، في مقابل التركيز على ابن تيمية، وشخصيات من الاخوان المسلمين وعلماء من نجد والحجاز[٥]

ان الاهتمام الراهن بالشرق اتجه نحو الاسلام السياسي والجماعات المسلحة، في معظم اعمال الباحثين الغربيين، واذا كان الغرب يرعى مشروع تحطيم الاسلام وانهاء وجوده الثقافي والحضاري فان هذا يعني اهمال أي جانب ايجابي يحمله الدين الاسلامي، ومضاعفة نسبة التجهل بالاسلام والتعتيم على حقيقته داخل المجتمعات الغربية بشكل متزايد مع كل مرحلة يكون فيها التطرف والجماعات المسلحة يمثلان الهموم الاولى للباحث الغربي.

ولا نكون مبالغين اذا حمّلنا غالبية المستشرقين او الباحثين الغربيين المسؤولية في صناعة الصورة السيئة عن الدين الاسلامي في اذهان المجتمعات الغربية، واستقرارها في ذاكرتهم، الى حد الثبات، ولالقاء بعض الاضواء على مسؤولياتهم تلك، تطرق هذا البحث الى ثلاث محطات من

تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، وقد يكون المستهدفون فيها هم المستشرقون حسب اصطلاح الاستشراق الكلاسيكي المعروف او من ينطبق عليهم سمات المستشرقين وافعالهم، كالشخصيات الدينية والسياسيين والصحافيين وغيرهم.

أولاً: صدر الاسلام ورهبان الكنيسة:

نال اصحاب الديانات الاخرى من الاقليات مكاسب وضمانات منحها لهم الرسول صلى الله عليه وآله، بموجب وثيقة المدينة المنورة، فاتيح لهم التحرك والتعبير عن ارائهم ومعتقداتهم بحرية في الوسط الاسلامي، وبعد عقود قليلة استغلوا هذه المزية في الدفاع عن عقيدتهم وتثبيت اركانها، لينتقلوا في مراحل لاحقة الى مهاجمة الدين الاسلامي واشاعة الكراهية ضده، عن طريق الرسائل والمجادلات والمناظرات، وتكمن خطورة هذه الاقليات بمعرفتهم للغة العربية، وقربهم واطلاعهم على واقع المسلمين.

من ابرز الشخصيات التي أسهمت بشكل مباشر في رسم صورة سيئة عن الاسلام مع بداية القرون الوسطى يوحنا الدمشقي (٦٧٥-٧٤٩م)، الذي امتلك المؤهلات التي رشحته للقيام بهذا الدور، فهو راهب يحظى بمكانه رفيعة بين المسيحيين، وأحد آباء الكنيسة النصرانية الشرقية، يمتاز بمعرفة وثقافة واسعتين، إذ وضع نحو مئة وخمسين مصنفاً كان ابرزها منهل المعرفة، وهو كتاب موسوعي له تاثير في التفكير الديني المسيحي، ولاحترام المسيحيين وتقديرهم له اطلقوا عليه لقب فم الذهب[٦]، أي: ان كلمته مسموعة ومقدسة في الوسط المسيحي.

كان يوحنا قريبا من السلطة الاموية ومطلعا على سياستها، كما هو الحال مع ابيه سرجون الرومي مستشار الدولة الاموية الذي لعب دوراً في تغيير مسارات مهمة من تاريخ الاسلام، فهو

من اشار على يزيد بتعيين عبيد الله بن زياد واليا على الكوفة عندما عزم الامام الحسين عليه السلام السير اليها[٧]، ان تواجد المثقف المسيحي قريبا من الحكام المسلمين تعبير عن رغبته في معرفة الاسلام ودراسته، وتحديد طبيعته ونقاط ضعفه. وقد وجد سرجون وابنه يوحنا ضالتهما في اتجاهات الدولة الاموية ورؤيتها في ادراة السلطة، فهذه الدولة ميالة نحو الاستبداد وفي صدد تشكيل امبراطورية واسعة الاطراف، لا تحمل ثقافة دينية ولا سمات اخلاقية، وهو ما يبعث على اطمئنان سرجون بحكم يزيد الذي اوصل سمعة الاسلام الى أسوء حالاتها، فمع استمرار يزيد في الحكم فان الاسلام لن يكون بخير ولن يشكل خطراً ثقافيا على الديانة المسيحية، بقدر خطورة الثقافة الدينية والانسانية التي يحملهما الامام الحسين عليه السلام واثرهما على المتلقي، ومن هنا فضل سرجون ان يكون مكانه في البلاط الاموي.

ان العلاقة الطيبة بين الامويين ورهبان الكنيسة وآبائها هي التي تفسر بقاء الاسلام على مستوى من الرمزية في دمشق، فوجود طوائف كبيرة من المسيحية لها مكانتها وثقلها الثقافي والاقتصادي هناك، وفر للمسيحيين عوامل البقاء والتعايش مع المسلمين وتاكيد وجودهم في ميادين الحياة، فقد تقاسموا معهم كاتدرائية القديس يوحنا في دمشق، وكذلك بقيت الكنيسة الكبيرة في حمص مكانا لاداء طقوس المسيحية والاسلامية لاربعة قرون[٨]، وما كان اطمئنان الامويين الى الجانب المسيحي الا تعبيراً عن الشراكه في المخاوف نفسها من الاسلام الذي يمثله الامام الحسين عليه السلام ومن سار على خطاه، والذي بدأ ينشط من جهة الشرق.

اتخذ منهج يوحنا لمواجهة الاسلام ثلاثة اتجاهات، كان الاتجاه الاول يعتمد على المناظرات والجدالات العلنية مع علماء

المسلمين، ثم توثيقها مع شيء من التصرف، وبثها بين عامة الناس ولا سيما المسيحيين، وتمثل الاتجاه الثاني في الرد على الكتب والمقالات التي تطعن بالعقائد المسيحية، اما الاتجاه الثالث فهو معني بنقد الاسلام بوصفه ديناً وعقيدة[٩]، وقد شكلت خطوات يوحنا تاسيسا مدرسيا سار عليه عدد من الرهبان من بعده، ليكون مع مرور الوقت سدا قويا امام هجرة عدد من المسيحيين الى الاسلام.

وفي نهاية القرن الثاني الهجري كان لعبد المسيح الكندي محاولات لضرب عقائد الاسلام ولا سيما القرآن الكريم، في سبيل الحد من تاثير الاسلام على المسيحية الشرقية، عمل عبد المسيح على اشاعة جهل المسلمين بقرآنهم ولغتهم، من خلال رسالة الى عبد الله بن اسماعيل الهاشمي في ايام المأمون العباسي عام ٢٧٤هـ، كانت رسالته عبارة عن دعوة صريحة الى اعتناق المسيحية، بعد ان يثبت كما يدعي الوهية المسيح عليه السلام، وعقيدة التثليث من القرآن، وكان دليله في تلك الدعوة هو ما ورد في القرآن الكريم عن قدرة عيسى على احياء الموتى، واما دعواه في اثبات التثليث فهي ما استخدمه القرآن باستمرار من الفاظ تدل على صيغة الجمع، كقوله تعالى (خلقنا، اهلكنا، جعلنا) الى اخره وهي اشارة الى اشتراك المسيح ومريم مع الله في جميع الافعال، لان الله لو كان واحدا لقال فعلت وامرت واهلكت[١٠]... ومع انكشاف اسلوب عبد المسيح امام العرب المسلمين، الا انه كان مصدر ثقة بالنسبة للمسيحيين، وكان سببا في ازدياد قناعتهم بالعقيدة المسيحية وتمسكهم بها.

وقد اكد المستشرق البريطاني وليم ميور في مقدمة الطبعة الثانية لرسالة عبد المسيح انها كانت متداولة على نطاق واسع بالنص الاصلي في الشرق، وترجمت الى لغة الهند العامية، ولهذا كان من الواجب ان يكون مضمونها

متاحا بالانكليزية لمبشرينا وآخرين مهتمين بالعمل، فضلاً عن البراهين التي تاسست عليها حجة اصالة الكتاب، ومن اجل ذلك اساسا صدرت الطبعة الحالية[١١]، أي: الطبعة الثانية من رسالة عبد المسيح الكندي، فبراهين عبد المسيح ذات مغزى وفائدة في الدفاع عن عقيدة المسيح بنظر ميور، وهي في الوقت نفسه تساعد في الرد على الاسلام من الآيات القرآنية، ومستشرق واعٍ بالحقائق مثل موير يعرف جيدا ان ادعاءات عبد المسيح واهية ولا قيمة لها في اساس اللغة العربية ومعاني القرآن الكريم، الا انها كانت فاعلة وبقوة بين جمهور المسيحيين في عصر عبد المسيح، وهي على الفاعلية نفسها في عصر موير لذا يرى الاخير ان طباعة هذه الرسالة بات من الضرورات.

استمرت مدرسة يوحنا في تخريج رهبان وقساوسة على قدر كبير من المعرفة بتاريخ الاديان، واساليب الرد على عقائدها، ومن ابرز هؤلاء عبد المسيح ابا نوح بن الصلط الانباري، الذي ألّف كتاباً بعنوان (تفنيد القرآن)، ومعاصره ابو الفضل بن الريان النصراني، الذي وضع كتابا بعنوان (كتاب البرهان) ينتقد فيه النبي ﷺ، والقرآن الكريم، وفي القرن الرابع الهجري ظهر كتاب بعنوان (كتاب الرد) للراهب النسطوري قرياقوس بن زكريا الحراني، و(كتاب الاقناع)، و(كتاب البرهان)، ليوحنا بن ابي السلط، الذي رد في الاول على اليهود، ورد في الثاني على الاسلام...[١٢].

ان جهود يوحنا ومدرسته تحاول ان تثبت عدم مشروعية الاسلام، وانه دين افتراء وتزوير لحقائق المسيحية، بل هو دين لم يأتِ الا للقضاء على المسيحية ومحو وجودها، وبذلك كانت هذه المدرسة هي التي تعبر عن الثقافة المسيحية.

ثانياً: مثقفو الغرب في منتصف القرون الوسطى:

ان صورة الاسلام المشوهة

والشيطانية التي بلغت ذروتها في اوروبا القرون الوسطى لم تتكون في مخيال المجتمعات المسيحية كما يرى سوذرن دفعة واحدة، بل عبر مراحل تاريخية كل مرحلة تضيف معلما الى الشكل الاولي لها حتى صارت كما هي[١٣]، ويرى نورمان كانتور ان البعد السيّئ لهذه الصورة جاء على خلفية عبور الاسلام حوض المتوسط، الذي اعاد للذاكرة الاوروبية غزوات البدو القاطنين في صحراء العرب منذ الالف الثاني قبل الميلاد. وهم اليوم امام غزو عربي جديد[١٤]، ولا يمكن تفسير مجيء العرب وهم يحملون دينا جديدا على انهم تخلوا عن فكرة الغزو، ولا يمكن لاوروبا ان تتفاعل ثقافيا مع غازيا مهما حمل معه من افكار أو ثقافة أو حضارة. هكذا هي الرؤية التي ملأت اذهان مثقفي اوروبا في القرون الوسطى، ولا يريد الغرب ان تتخلى اجياله عنها، لذلك تم التركيز على موضوع الصحراء في التعليم الابتدائي في الوقت الحاضر، فتثار عن العرب قصص البدو الرحل ودورانهم في الصحراء نفسها، ويتم تعريف البدوي بانه «عربي راحل من الصحراء»، يحمل صفات النقص الخلقي والعقلي والاقتصادي والمهني والوظيفي[١٥] من تلك الاجواء المشحونة بالعداء والكراهية للدين الاسلامي انطلق مستشرقو العصور الوسطى ببحوثهم ودراساتهم، مبدين عجزهم عن الافلات من اطار العلاقة المضطربة بين الشرق والغرب، ومعظم هؤلاء المستشرقين كانوا يدينون للكنيسة اما بدعم مادي، او توجيه معنوي او ديني في دراسة الاسلام واللغة العربية، ولم تكن الكنيسة ترضى بمنزلة لاي ديانة اخرى الا انها هرطقة ومروق عليها، واذا ما علمنا ان معرفة اوروبا للاسلام في بدايتها كانت اسبانية المنشأ[١٦]، فان فكرة الغزو تبقى تلوح في افق هذه العلاقة، ولا نجد لها ذكراً الا في ملفات الصدام والنزاع.

وقد عبر علماء اوروبا في القرون الوسطى عن مخاوفهم من المد الاسلامي، وكرههم لثقافته عندما قاموا باستبعاد مدنية الشرق من دروس التاريخ الرسمية في المدارسة الابتدائية، إذ لم توضع عنها الا صور قليلة وسطحية لا تكفي لافهام الشباب الاوروبي باهمية تحرك الشرق بثقله العلمي والثقافي في المنطقة، فهم غير مستعدين للاعتراف بتفوق المسلمين على الغرب، ومن مصلحة المجتمعات الغربية ان تبقى جاهلة بهذا الدين الجديد وثقافته لكي لا تفتن به[١٧]. كما سعى المبشرون في عصر الازدهار الاسلامي الذي شكل تهديداً لمعاقل المسيحية في كل مكان الى قيصر روسيا فلاديمير الذي بقي على الوثنية الى عام ٩٨٨م، لتحذيره من الاسلام، ونصحوه في اعتناق المسيحية، فاعتنقها واعلنها ديانة بلده[١٨] ومع طول مدة الصراع المسيحي الاسلامي واشتداده كثرت الاسئلة في اوروبا حول اصول الاسلام، لذلك قام المؤلفون اللاتينيون ـ كما اشار سوذرن ـ بإزاحة الستار عن حقيقة المسلمين، وقد اعتمدوا على الكتاب المقدس الذي يملك تاريخا لمستبقل تلك الاحداث فالقائمون بها، فالقائمين هم السرازانيين Sarazens ابناء هاجر زوج ابراهيم عليه السلام، المصرية التي طردت الى الصحراء مع ابنها اسماعيل عليه السلام، وعرف العهد القديم عن اسماعيل بانه كان شرسا رافعا يده على الجميع، وبما ان العرب ابناء اسماعيل عليه السلام وجاءوا من الصحراء فهم اناس شرسون وعدائيون، وبذلك تم ادخال المسلمين في تفسير العهد القديم[١٩]. وهي خطوة اتخذت منحى سيئاً ومؤثراً في الرؤية والاحكام المسيحية حول الاسلام، ويكمن سوءها من اكتسابها القوة والشرعية بعد مرورها بالكتاب المقدس، مما جعل خطوط الرجعة عن تلك الاحكام عسيرة، ومستحيلة على الاقل في ذلك الوقت.

وفي اسبانيا كانت اولى الصدامات مع الاسلام على يد اثنين من رجال

اللاهوت المسيحي، وهما يوجيليوس والفاروس في منتصف القرن التاسع الميلادي، يعد الاثنان في صدارة المثقفين واصحاب المعرفة في اسبانيا، وعلى عاتقهم تقع مسؤولية دراسة الاسلام ومراجعة تاريخه، غير ان طريقة معرفتهم عبرت عن جهلهم وعدم الفهم لما يدور حولهم، ولتعصبهم وبغضهم للاسلام لم يراجعوا تاريخه من مصادره المباشرة مثل القرآن والسنة وكتب التراجم والسير بل كان يوجيليوس يتحمل عناء البحث عن تاريخ الاسلام والنبي ﷺ، في النصوص اللاتينية الجامدة التي جلبها من اوروبا، وقادهما هذا التعصب في ما بعد الى مواجهات مباشرة مع المسلمين، حتى قتلا على ايديهم، ليكونا مشروعا استشهاديا، يقتدي به المسيحيون من بعدهم[٢٠]. واذا كانت مراجعات الفاروس ويوجيلويس من مصادر العلماء اللاتينيين، فهي الاخرى تخضع لرؤية العهد القديم المشوهة الى اصل العرب وطبيعتهم، من هنا فإنّ مشروع الاثنين في خلق مفهوم الجهاد ضد الشيطان القادم يؤتي ثماره بقوة في مثل ظروف تواجد المسلمين في اسبانيا مع ما يمثلونه من تباين واختلافات في نظر علماء اللاهوت. وقد اشار ستانلي بول الى ردة فعل نصارى الاندلس على برود المسلمين وتسامحهم إزاء الهجمات الاعلامية التي يقوم بها هؤلاء النصارى ضد الاسلام، وهو ما زاد في تعصبهم، وابداء رغبتهم في ان يعذبوا ويُضطهدوا كما اضطُهد القديسون من قبل، وكانوا يتشوقون الى الاستشهاد كاشتياق الظمآن للماء، بعد ان اكتشفوا ان هناك فرقا واسعا بينهم وبين المسلمين، فبينما هم كانوا يميلون الى الزهد والتوبة والبكاء والتطهير بالآلام، واماتة الجسد في سبيل احياء الروح، كان المسلمون يتقبلون مختلف لذائذ الحياة برضا واطمئنان، وقد صعدت اعمالهم

المتنافرة مع سيرة المسلمين من غضب عامة المسيحيين الذين احاطت بهم الابتلاءات والمأساة من كل صوب، وعلى اثر ذلك ظهرت حمّى حب الموت والاستشهاد في سبيل المسيحية في كل مكان[٢١].

وفي مراحل نزاع المسيحية والاسلام خلال القرون الوسطى تعاهد البابوات مسؤولية التعتيم على محاسن الاسلام، واظهار مساوئ المسلمين، في خطاباتهم وتوجيهاتهم، وقد تبنى البابا اوربان الثاني مشروع تحرير المسيحيين في الشرق بعد اخراج الاسلام من الاراضي الغربية، موحيا الى سامعيه بانه يتحدث باسم الرب، معتمدا في نشر ثقافته على دعاة البابوية، والمبشرين الشعبيين[٢٢].

قضى اوربان الثاني شطرا من حياته في التنقل من منطقة الى اخرى في سبيل نشر آرائه ومعرفته عن الاسلام بين الاوساط المسيحية، مركزا على اضطهاد المسلمين للمسيحيين في الشرق، وعمل مساعدوه على بث المعنويات في صفوف المقاتلين المسيحيين، كما عملوا على اشاعة المعجزات التي تدل على رضا الرب في حملتهم على الاسلام، كوفرة الحبوب والنبيذ في جميع البلاد المسيحية بفضل الرب، وذكرت مصادر تاريخية معاصرة ان السماء امطرت نجوما، وقد فسر بعض الاساقفة هذه الاشاعة على انها تعبير عن رضا الرب على مشروع القتال ضد الاسلام[٢٣]. ليحصد من مسيرته افواجا من الراغبين في تدمير الاسلام والقضاء على المسلمين وهم على قناعة تامة بان الرب معهم سيلحق الهزيمة بهذا العدو.

اما بطرس المبجل (١٠٩٢-١١٥٧م) رئيس دير كلوني، فيمكن اجمال تصديه الثقافي للاسلام بنقاط عدّة: اثبات ان الدين الاسلامي هرطقة، وان التصدي للاسلام ونبيه ﷺ لا يكون بسلاح اعمى، بل بسلاح المعرفة،

واول تلك المعارف ترجمة القرآن الكريم، وترجمة نصوص عن السيرة النبوية- ولكن برواية كعب الاحبار المشكوك فيها عند المسلمين-، ثم ترجمة النصوص المهمة والشائعة في الوسط الاسلامي، كترجمته لمخطوط في علم الكلام، وقد غطت اهتمامات بطرس المرحلة التاريخية من عصر الرسول صلى الله عليه وآله الى استشهاد الامام الحسين عليه السلام، ارسل بطرس مترجماته الى الاب برنهارد شريفو، مع خطاب الى رجالات الكنيسة يدعوهم الى جهاد كل اشكال الالحاد[٢٤]. على الرغم من ان بطرس قد اختار موضوعات محدودة لايمكنها ان تفي حتى بجزء قليل عن تاريخ الاسلام، فهو محكوم بظروف خاصة اذ لم يكن الوقت يسعفه لمعرفة المزيد، الا ان تلك الموضوعات التي قدمها لقومه كانت كافية لتحريك الواقع الثقافي المسيحي ضد الاسلام وتكفي في صناعة الصورة التي ارادها بطرس له.

بعد بطرس انطلقت مجموعة من حملات الترجمة لتراث الاسلام، وكانت ترجمة القرآن الكريم على قمة الاهتمامات، فقد شكلت ترجمته قلقا مستمرا خلال القرن الثالث عشر، لحصول اليقين لدى قادة اوروبا بان النضال ضد الالحاد عن طريق الوعظ والارشاد والحوارات الدينية تطلب الاهتمام بتعاليم الخصم والوقوف على حججه، فاعدوا مجموعة من المتعلمين لهذا الغرض، الا ان معارفهم بالقرآن الكريم اعتمدت ترجمات فيها اخطاء فادحة، فمعظمها كان معداً من قبل مسلمين من اصل اسباني، ويهود عاشوا في عصر ازدهار الدولة الاسلامية وسيادة لغتها وثقافتها، لذلك لم يمتلك هؤلاء المترجمون ثقافة ومعرفة دقيقتين باللغة اللاتينية، وحتى ان روجر باكون (١٢١٤-١٢٩٤م) انتقد هذه الترجمات مبديا عدم قناعته بها[٢٥]، فقد انتجت هذه الترجمات معرفة مبنية على المغالطات والشبهات لم يكن من السهل معالجتها فيما بعد سواء من قبل

المسلمين او من قبل علماء الغرب المعتدلين، وقد اشار احد المستشرقين في الوقت الراهن الى هذه الاشكالية بقوله: ان القرآن الكريم هو من الكتب الكلاسيكية القديمة التي يصعب فهمها، وان ترجمتها الى لغة غير العربية سيؤدي الى خسارة جسيمة، ولحل هذه المشكلة يقترح هذا المستشرق توفر ترجمات عديدة للقرآن[٢٦]

والى جانب الدور السيّئ الذي لعبته ترجمات الغرب للقرآن الكريم، كان هناك محور آخر عمل عليه بعض الرهبان، وهو اشاعة نتائج نصرهم في معركة الجدال العقائدي ضد المسلمين في العالم المسيحي، فالراهب الفرنسي ريكولدو دي مونتي كروسي (١٢٤٣-١٣٢٠م) قام بجولات واسعة في العالم الاسلام من فلسطين الى ارمينية الصغرى ثم العراق، داعيا اليعاقبة في الموصل والنساطرة في بغداد الى الانضمام الى كنيسة روما في حربها الثقافية ضد الاسلام، وقد تمكن خلال جولته من اقامة عددٍ من المجادلات مع المسلمين باللغة العربية، ثم وضع كتابا بعنوان «الجدال ضد المسلمين»، كما في مخطوط باريس، او بعنوان «ضد قرآن محمد صلى الله عليه وآله»، كما في مخطوط المتحف البريطاني، احتوى كتابه هذا على مجادلات من سبقه من المسيحيين مع المسلمين مضيفا اليها من عنده.، وطَبع كتاب ريكولدو في فرنسا واسبانيا وايطاليا واليونان[٢٧]، ليأخذ بعدا مهما في رؤية المجتمع المسيحي للاسلام بوصفه ديانة باطلة ومفتعلة لا يمكنها ان تصمد امام الحجج والبراهين التي يقدمها الرهبان المسيح.

وفي نهاية القرن الثالث عشر وبعد انتكاسات متتابعة في الحروب الصليبية وصمود الثقافة الاسلامية في وجهة دعاية البابوات والرهبان، راهنت البابوية على جذب المغول الى الديانة المسيحية، فبعد ان غزا المغول بلاد المسلمين ظنّ البابا انوسنت الرابع ان هناك جيوشاً تؤمن بالمسيحية وان لم

يلتقوا بها بعد، ففي غزوها لاراضي المسلمين بشارة انضمامها الى المسيحية، لذلك ارسل هذا البابا مبعوثا من قبله وهو الراهب الفرنسيسكاني فلهلم فون روبرك عام ١٢٤٥م الذي كان يمتلك حصيلة علمية عن تاريخ الديانات، وقد نظم الخان المغولي الاكبر في وقتها مناظرة عالمية بين الاديان، استمرت يوما كاملا، تضمنت المناظرة موضوعات عقائدية وفلسفية وغيرها، وقد كان لتقرير فلهلم حول المناظرة صدى في العالم المسيحي، اذ برهن فيه على الاعداد المنطقي الذي تتمتع به مدارس الغرب في ذلك الوقت[٢٨]. الا ان المفاجأة التي كانت تنتظر المسيحية هي ميل المغول الى الاسلام واعتناقهم له، وهو ما بدد امال البابا انونست.

ومنذ اطلالة عصر التنوير في اوروبا الى عصر الاستعمار تعاهدت البابوية ومبشروها تشويه صورة الاسلام وتسقيطه في عيون مجتمعاتهم، وقد كانت لاباء الكنيسة جرأة لا توصف في استخدام الكلمات الجارحة والفظّة للنيل من شخصية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله، لتصل ذروتها مع المؤرخ وعالم الانسانيات الفرنسي دومينيك بودييه الذي وضع كتاب بعنوان (التاريخ العام للاتراك ١٦٣٢م) يتهم الرسول صلى الله عليه وآله فيه بانه ماجن ولا يخجل من الاعلان عن ميوله الجنسية، وانه لم يكتفِ باقامة مبغى في الارض فاقام مبغى آخر في السماء[٢٩]. استمرت بشاعة تلك الرؤى في عدد من الاعمال الادبية والمؤلفات الغربية، خلال نهاية القرون الوسطى وبداية الحقبة الاستعمارية، وتلاقفتها الامة الامريكية الفتية التي اصبحت لها مصالح في الشرق الاوسط، فقد هاجم عدد من رجال الدين الامريكان من امثال كوتون ماثير Cotto Mather وجوناثان ادواردز Jonathan Edwards، الدين الاسلامي ونددوا به باعتباره

عقيدة باطلة، وكان صاموئل لانجدون Samuel Langdon، رئيس جامعة هارفرد، يرى ان محمداً ﷺ، من الانبياء الكذبة، بل الاسوأ انه رسول الشيطان، وقد ازداد هذا الانطباع السلبي رسوخا عن طريق الترجمات المغرضة للقرآن الكريم، فكانت ترجمة الكسندر روس alexsander ross المنشورة عام ١٦٤٩م، تهدف الى كشف المتناقضات والتجديف والكلام الفاحش والقصص الخيالية المضحكة فيه، حتى يتمكن المسيحي من معرفة اعدائه، فيستطيع التغلب عليهم، كما تهدف الترجمة التي وضعها المحامي جورج سيلز George Sales عام ١٧٣٤م، الى تمكين البروتستانت من مهاجمة القرآن بنجاح، وكانت اكثر كتب الحقبة الاستعمارية شعبية عن محمد ﷺ، هو الكتاب الذي الفه همفري بريدو Prideaux Humphrey عام ١٦٩٧م، وكان الغرض منه واضحا في عنوانه وهو: (فضح عقيدة المحتال)، وقد انعكست تلك الاعمال على النتاج الفني في امريكا فكانت اول قصة قصيرة كتبت عن العالم الجديد الذي عرفه الامريكان أي: الشرق، بعنوان: «رحلة حج بابا بومبو الى مكة»، عام ١٧٧٠م، بقلم فيليب فرينو Philip Freneau، وهي كوميديا ساخرة[٣٠].

ثالثا: العصر الراهن:

الى نهاية القرن العشرين كان هاجس الخوف من خطر الثقافة الاسلامية لا يبارح التفكير الغربي، تلك المدة المحسوبة لابداعات الحضارة الغربية، لم تلغ احتمالات عودة جديدة للاسلام كمنافس حضاري، والدليل على ذلك كتاب صدام الحضارات لهنتنغتون، الذي ادخله الغرب الى غرف السياسة، دافعا بالصراع الى مزيد من التعقيدات، وتكمن خطورة ما يطرحه هنتنغتون بافتعالاته عن طبيعة المعارك القادمة، فهي لن تكون بين طبقات اجتماعية

ولا عرقية ولا قبلية، وانما ستكون الحرب بين دول العالم على اساس التقارب الثقافي، كمساندة روسيا للصرب، مقابل مساندة ليبيا والسعودية وايران وتركيا للبوسنيين[٣١]. وهكذا سيظهر العالم بهيئة تكتلات وجبهات تعبر عن القرابات والانتماءات الثقافية.

وقد اثارت فكرة صدام الحضارات ردود افعال واسعة في العالم الاسلامي، اعاد المسلمون على اثرها قراءة تاريخ الصراع الغربي الاسلامي منذ القرون الوسطى الى الوقت الحاضر بحيوية واهتمام كبيرين، مستذكرين جميع الموضوعات: الدين والحروب الصليبية- الاستشراق والازمة الثقافية- الاستعمار وتهديده لوجود المسلمين - الغزو الثقافي وخطره على الهوية... في محاولة اكثر عمقا لاستكشاف حقيقة الرؤية الغربية إزاء الاسلام، الا ان تلك الرؤية واضحة ولم تتغير منذ القرون الوسطى إلى اليوم، فمع انتهاء المصطلحات القديمة التي وصف بها الاسلام كالتوحش والتبربر والهرطقة، اوجد الغرب تهمة عصرية وهي ان الاسلام يمثل حاضنة لافكار المتطرفين والارهابيين بل هو دين الارهاب بالدرجة الاولى.

ان جهود الغالبية من مفكري الغرب ومستشرقيه تضافرت على صناعة صورة الاسلام السيئة، ومع الزمن ازدادت هذه الصورة عمقا وترسخا في الوسط الثقافي الغربي، الى الحد الذي يفضل فيه المعتدلون الابتعاد عن ذكر انجازات الاسلام في وسطهم الثقافي خوفا على مكانتهم، فقد كان المستشرق الاسباني استبان كلدرون estebanez caldron (١٧٩٩-١٨٧٩) المتخرج من جامعة غرناطة، والمولع بنظم الاشعار وكتابة القصص من وحي الاسلام واللغة العربية، كان ينشر مقالاته عن العربية والاسلام باسم مستعار[٣٢]، خوفا على سمعته لانه يعيش في وسط معادٍ للثقافة الاسلامية، ومثال اخر أثارت كلمات المستشرقة الألمانية آنا ماري شيمل

كثيرا من الجدل، عندما انتقدت سلمان رشدي لكونه قد آذى مشاعر كثير من المؤمنين المسلمين، فقد وُجهت إليها اتهامات بتأييد الثورة الإسلامية في إيران، وهو ما أنكرته بقوة، لذا فإنّ بعض المستشرقين عندما يدعون إلى فهم أكثر تلونا لمآزق المسلمين ومواقفهم، يظلون عرضة للاتهام السياسي، وحتى بالعمى بخصوص الإسلام السياسي والحركات الإسلامية المقاتلة[٣٣]. ولهذه المخاوف جذورها في التاريخ الغربي، فقد كان النصارى يتحاشون التحدث جهرة عن اوضاع المسلمين في اسبانيا خوفا من ان تستريبهم مجالس التفتيش[٣٤].

لقد اعطى التراكم الهائل من قراءات المستشرقين للاسلام والمبنية على وتر التباين والاختلاف الثقافي، سياقات وانطباعات ظالمة بحق هذا الدين، لم يكن لها تاثير على رؤية الانسان الغربي الى الاسلام فقط، بل تعدى تاثيرها الى رؤية المجتمع الشرقي للاسلام، والى رؤية المسلمين لدينهم، وكلما اقترب بنا الوقت تزداد اكتشافات المستشرقين لصعوبات جديدة امام تصدي الاسلام لتغيرات العالم السريعة، ففي القرنين الأخيرين اهتمّ المستشرقون بتنقل طبيعة السلطة واختلافها في الاسلام بين عرب واتراك وايرانيين، وحللوا ابعاد الجانب الثقافي او الدعوي للاسلام وامتدادهما في عموم جغرافيات الشرق: افريقيا - اندنوسيا- الهند- باكستان- الصين... فكانت الحصيلة ان الاسلام دين له انعاكاسات سياسية وتمظهرات ثقافية مصطبغة ومتلونة بطبيعة الاقوام التي فرضت نفسها بوصفها سلطة شرعية في مرحلة ما، وكذلك متلونة بحضارات الشعوب وثقافاتها التي انضوت تحت لوائها، لتشكّل هذه التفرعات والتطورات في تاريخ الاسلام مصدر الهام لدراساتهم، وعاملا في اكتشاف مزيد من التناقضات، ومسرحا لافتعالها وترويجها، وهو ما نجده في دراسات

يوليوس فلهاوزن، وكارل بروكلمان، وتوماس ارنولد، وهاملتون جب.

وقد وصل تعسف المستشرقين الى الحد الذي نسبوا جميع المشاكل التي يعاني منها الشرق الى جوهر الدين الاسلامي[٣٥]، في مقابل جوهر الديانة المسيحية الذي انتج تطورا وحضارة في العالم الغربي[٣٦]، وتشاع مثل هذه النظرات في الصحافة الغربية بطريقة اكثر تعسفا، فبعد ان اوصى الصحافي الدنماركي فليمنغ روز بتنفيذ الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول صلى الله عليه وآله، في صحيفة يولاند بوستن، وضع الى جانبها نصاً يشرح فيه بأن الحداثة تلتصق بالمسيحية، فيما يجسد الاسلام الظلمات، منوها الى حتمية الصراع بين هذين القطبين[٣٧]. لذلك هناك اجماع غربي يعدّ الاسلام كبش فداء لكل ما لا يروق للغرب من انماط سياسية واجتماعية واقتصادية جديدة، فهو بالنسبة لليمين همجي، وبنظر اليسار ثيوقراطي، اما الوسط فيعدّه نوعاً من الغرائبية الممجوجة، وحسنته الوحيدة هي وقوفه في مرحلة مهمة بالنسبة للغرب بوجه الشيوعية[٣٨].

ومثل هذه النظرة يتبناها بقوة قطب من اقطاب الاستشراق وهو برنارد لويس، فقد كانت له محاولات لسحب الاسلام الى مناطق غريبة عنه، متهما اياه باستعارة مفاهيم من ديانات سماوية وارضية، فالصراع ضد الشر والظلام في الاسلام، كان مفهوما مستعارا من الزرادشتية والمانوية، وقد بقي هذا المفهوم في الفكر الاسلامي، ولم يتغير مع القرون الطويلة، ليظهر على ما يرى برنارد في خطابات بلدان اسلامية منها لبنان عند حزب الله، وايران بعد الثورة الاسلامية بمسمى (اعداء الله)، وكان المقصود بالاعداء هم الغرب وامريكا، وقد اكتشف برنارد ان تلك الخطابات يكررها باستمرار قادة هذه البلدان، وهي تتخطى المصالح السياسية لتصل الى مرحلة العداء بسبب الاختلاف الثقافي والتباين الحضاري[٣٩]، وهي النقطة

الرئيسية التي يريد برنارد ان يثيرها، فالخلاف الحضاري والثقافي يمثلان حالة الصراع الدائم، وكذلك يحملان كل مبررات التباعد وقطع الجسور، ولا توجد مصلحة في تحسين صورة العدو الثقافي او الاعتراف به، بمقدار الفائدة من تدمير تراثه وتشويش ذاكرته وسلب احساسه بالغيرية، وخلق ضرورات التحاقه بالغرب. وقد شعر الايرانيون كما اشار غارودي بالهجوم الغربي على ثقافتهم بوساطة الشاه، فوجهوا غضبهم لا على شخصية الشاه بل على رموز الثقافة الغربية، فانقضّوا على السينما الامريكية الممجدة لطريقة الحياة التي يسودها المال، وتم احراقها مع علب الليل، وجرى تحطيم جبال من قناني الويسكي، هكذا ولدت اول ثورة موجهة ضد الحضارة الغربية[٤٠].

لذلك لم يفتر برنارد عن تذكير الغرب بشرور الاسلام وتهديداته، وقد وصفه ادوارد سعيد بانه غارق لاذنيه في تقصي اثر الاصولية الاسلامية، من مساجد طهران الى حجرات الوعظ في لوس انجلس، ومن حسينيات الجنوب في لبنان الى طوق التتار التاريخي القديم في روسيا، مذكرا الغرب بعوارض الرعب والارهاب التي زرعها العثمانيون عند اسوار فيينا عام ١٦٣٨م[٤١]، متخذا دور الناصح والموجه للمستشرقين، في انتقاده لمناهج بعضهم عندما استخرجوا مقارنات بين التراث اليهودي - المسيحي، والتراث الاسلامي، وبحثوا عن معنى لكلمة ثورة في الاسلام، فالثورة - حسب برنارد - لا تستدعي في ذهن الانسان الغربي الا الثورة الامريكية، او الفرنسية، او الروسية، أي: لا معنى لثورة الامام الحسين عليه السلام في فكر الانسان الغربي، فهي حركة لها سياقاتها ومصطلحاتها في علاقاتها بتاريخها، وباعرافها، وبآمالها، فالثورات في الغرب تقوم على اسس اجتماعية وسياسية واقتصادية، وتضع لها خططا مستقبلية، في حين تقوم الثورات في العالم الاسلامي على ايدي اولياء الله،

ضد اعداء الله[٤٢]. اذاً المقارنات التي توصل اليها بعض المستشرقين مغلوطة بنظر برنارد، والدليل مصطلح اعداء الله الذي يجرد تلك الثورات من أي بعد اصلاحي على مستوى الاقتصاد او الاجتماع او غيره، معتبرا شعار تلك الثورات (اعداء الله) بدعة اسلامية، متناسيا ان الكنيسة من كبار المستفيدين من هذا المصطلح في حروبها المقدسة، وما زال معمولا به عند المسيحية المعاصرة، فما معنى كلمة البابا يوحنا بولس الثاني في عام ١٩٩٣، التي اعلن فيها ان الكنيسة جسد المسيح، وشعب الله وسط الامم[٤٣]، غير معنى واحد هو ان من يعادي الكنيسة فهو معادٍ لشعب الله، ومن ثم فهو معادٍ لله تعالى.

كما وجد بعض المستشرقين ان افضل طريقة لكسب الصراع الثقافي مع الاسلام هو البحث في النصوص المشوهة، والغريبة، واظهارها على انها تمثل الشريعة الاسلامية، ففي كتاب جورج تاكر (اقباط ومسلمون)، ركز المؤلف على نصوص تعود الى صدر الاسلام في خلافة عمر بن الخطاب، منها ما ورد في كتاب صبح الاعشى للقلقشندي والمتضمن خطاب اهل الشام الى عمر يؤكدون فيه التزامهم بالشروط، التي اقروا بها على انفسهم بعد فتح سوريا. اما هذه الشروط المذلة والتي لخصها القلقشندي فهي: على اهل الذمة دفع الجزية، وضيافة المسلمين، والانقياد لاحكامهم، والا يركبوا الحمير الا ويجعلوا ارجلهم من جانب واحد، وان ينزلوا المسلمين صدر المجلس وصدر الطريق، ولا يلبسوا لباس المسلمين، ولا يرفعوا جدران ما يبنونه على جيرانهم المسلمين، ولا يحدثوا كنيسة، وقد اضاف عمر الى تلك الشروط فقرة جديدة وهي: ان لا نضرب احدا من المسلمين شرطنا ذلك على انفسنا واهل ملتنا[٤٤]. وقد اورد هذا النص ابن عساكر في تاريخ دمشق[٤٥]، وبقيت الشروط التي اقرها النصارى على انفسهم نقطة ضعف أفاد

منها الامويون في توسيع مسجد دمشق في عهد الوليد بن عبد الملك[٤٦].

ماذا يعكس هذا النص الى الانسان الغربي، غير رؤية مشوّهة، لذلك يجب الكشف عن حقيقة هذه النصوص، وانقاذ الدين الاسلامي منها، فهي لم ترد في القرآن الكريم او السنة النبوية، وتحمل مغايرة واضحة لسيرة الرسول صلى الله عليه وآله مع اصحاب الديانات الاخرى، والدليل وثيقة المدينة المعروفة التي منحتهم حقوق المواطنة، ان هذه النصوص عندما تترجم من قبل مختص كجورج تاكر فمن المرجح انها تلقى ترحيبا واقتناعا لدى الناطقين بالانكليزية، فليس هناك شيء يمكن ان يعرفوه عن الاسلام غير ما يصلهم من مترجمات، لهذا كان دور المستشرق تاسيسي في صناعة التصور الغربي عن الاسلام، فالمجتمع الغربي يقرأ ما يتوفر امامه وبلغته، كما نفعل نحن بالضبط.

وفضلاً عمّا تعكسه مثل تلك النصوص لدى المجتمع الغربي من رؤية سيئة، يثير المستشرقون الى جانبها جهالة وضيق الافق عند المسلمين، فالكسي جرافسكي يرى ان المسلمين يجهلون قيمة الديانة اليهودية والمسيحية، وكيفية التعامل معها، فقد اقتصرت معرفتهم بهما من خلال القرآن والسنة النبوية، وبقوا جامدين ومتقيدين بها الى يومنا هذا، معتبرين انها الاكثر مصداقية وسعة حتى من معرفة اليهود والمسيح بأنفسهم، وكان احساس المسلمين بتفوق عقيدتهم ولغتهم قد ساعدهم في القضاء على هيمنة الرؤية العقائدية المسيحية في الشرق الادنى قبل ان يتمكنوا من ادراك جوهر هذه العقيدة[٤٧]، غير ان الواقع يشير الى خلاف ذلك، فالجزيرة العربية واليمن وبلاد الشام والعراق، كانت تضم اعدادا كبيرة من اليهود والنصارى واصحاب الديانات والاخرى، وكان العرب مطلعين على عقائدهم، ولم تشكل اهمية عندهم لارتباطهم الوثيق بتراثهم الوثني وما بقي

من اطلال الديانة الحنيفية، وعندما جاء الاسلام فضّلوه على عقائد اليهود والنصارى، لذلك ذُهل النصارى بعد الانتشار المفاجئ للاسلام في الجزيرة العربية وما حولها وشعروا بحصار ثقافي خانق، فوجدوا لهم متنفساً في افريقيا، فكانت اولى الرحلات التبشيرية المبكرة انطلقت الى هناك مع بداية ظهور الاسلام، وخلال القرن الاول والثاني للهجرة اجرى اهل البيت عليهم السلام مناظرات علمية مع علماء النصارى واليهود، اثبتوا فيها بطلان عقائدهم وتناقضها وعجزها من خلال علوم ومصادر النصارى واليهود انفسهم[٤٨]. وفي الوقت المعاصر ظهرت اعمال كثيرة لباحثين من العرب المسلمين تناولت تاريخ الديانات بما فيها اليهودية والمسيحية، اعتمدت فضلاً عن القرآن والسنة النبوية مختلف المصادر التاريخية بما فيها العهدين القديم والجديد[٤٩]. ان القارئ الغربي يجهل كل تلك الطرق التي تعامل بها الاسلام مع الثقافات الاخرى، ويعتمد مترجمات الباحث الغربي التي هي في اغلب الاحيان تعبر عن توجّهٍ معيّنٍ أو شبهٍ ما.

أما الآراء التي تصدر عن مراكز الدراسات الشرقية حول الاسلام فهي وسيلة من وسائل الحروب، تستمد رؤاها وعلميتها من المؤسسة السياسية الغربية، وعلى الاغلب تَسوق آراء تلك المراكز الى منطقة الشرق عن طريق الاعلام المرتبط بدول خليجية، تبدأ مؤامرة هذه المراكز في تلاعبها بالتسميات، إذ تمنح بعض القوى والجبهات سواء السياسية او العسكرية مسميات لا تنسجم مع سلوكها، كما يحصل مع داعش، فالاعلام الخليجي لم يكف عن تسميتها بالدولة الاسلامية، والناطقون باسم مراكز الدراسات الشرقية مقتنعون بنسبة عالية من تمثيلها للاسلام، وفي مقابل ذلك يتم حرمان بعض الدول والقوى من المسمى الاسلامي.

وآخر شيء يمكن ان يبرهن فيه

الغرب عن كرهه للاسلام هو تكريم سلمان رشدي صاحب الايات الشيطانية، و(تسليمة نصرين) التي دعت الى الغاء القرآن الكريم، مع ان المرء لا يجد في اعمالهم أي ابداع يستحق التكريم، ولو اساء هذين الشخصين الى أي ديانة اخرى كالهندوسية او البوذية لانهال عليهم القائمون على التكريم بالسب متهمين اياهم بالتعرض الى حرية الآخرين ومعتقداتهم.

ان هذه التوجهات تعبر عن مدى قبح الصورة التي يحملها الغرب عن الاسلام، والتي نجد لها وصفاً دقيقاً لدى سياسي امريكي بارز هو الرئيس الاسبق ريتشارد نكسون حيث يصف تصور الامريكيين حول المسلمين بأنّهم عبارة عن شعب غير متحضر، ودمويين، وغير منطقيين، ويعتقدون ان سيوف محمد صلى الله عليه وآله واتباعه هي السبب في انتشار الاسلام في آسيا وافريقيا، وحتى اوروبا، ولذلك ينظر كثير من الامريكيين الى المسلمين كأعداء، وليس هناك صورة اسوء في ذهن المواطن الامريكي وضميره من صورة العالم الاسلامي[٥٠].

الهوامش

[١] اشار القرآن الكريم في عدد من الآيات الى ما يضمره اليهود والنصارى من احساس سلبي إزاء الاسلام ونبيه الكريم صلى الله عليه وآله ففي سورة اية: ٨ قال تعالى: ﴿**كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّاً ولا ذمّة يرضونكم بافواههم وتأبى قلوبهم واكثرهم فاسقون**﴾.

[٢] فيبه، جان موريس، احوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة: حسني زينة، ط١، (دار المشرق بيروت، ١٩٩٠)، ص٥٥.

[٣] كان الحس الاوربي الوسيط مشبعا بترقب يوم القيامة، وكانت كتابات آباء الكنيسة المستندة الى بعض نذر العهد القديم ورؤيا يوحنا الدمشقي قد حددت امائر لذلك، وقد رأى شراح اللاهوت منذ القرن التاسع الميلادي ان النبي محمداً صلى الله عليه وآله والاسلام يدخلان فيها، وقد ظهرت رؤيا مبكرة عند المسيحيين ان النبي صلى الله عليه وآله هو المسيح الدجال، وكانت انتصارت الاسلام تغذي هذا التصور، وتطورت هذه الفكرة الى اعتبار النبي صلى الله عليه وآله والاسلام حقبة او دور نهايته النفخ في الصور. سوذرن، ريتشارد، صورة الاسلام في اوروبا في القرون الوسطى، ترجمة: رضوان السيد، ط٢، (دار المدار الاسلامي، فرنسا، ٢٠٠٦)،

ص١٣.

[٤] حول هذا الموضوع ينظر: رضا بك، احمد، وثائق عن الحروب الصليبية، ترجمة: محمد بو رقيبة –محمد الصادق الزمرلي، ط٢، (دار بو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ١٩٧٧)، ص٦٦-٦٧.

[٥] هناك مئات الدراسات الغربية عن الاخوان المسلمين، وفي العقود الاخيرة كان لمراكز الدراسات الامريكية الطليعة في تلك الدراسات، منها: دراسة ميشيل بابسون بعنوان تاريخ الاخوان المسلمين، ودراسة مشتركة لمجموعة من الباحثين الامريكان على راسهم اريك تراغر وهي بعنوان من هو وراء جماعة الاخوان المسلمين في مصر، ودراسة للايطالي لورنزو فيرنو بعنوان بغداد والغرب والاخوان المسلمين بعد الربيع العربي، ودراسة بعنوان الديمقراطية العربية والاخوان المسلمين لاسراء بولوت ايمات وهي بريطانية من اصل اسرائيلي، ودراسة مارك لينش بعنوان معضلة الاخوان المسلمين، ودراسة ونان جاك مع ايتمار ماركوس حول تطرف الاخوان المسلمين، ودراسة مشتركة لربورت ليكن وستيفن بروك حول اعتدال الاخوان المسلمين، ودراسة لاوليفيه غيتا بعنوان موجز سياسة الاخوان المسلمين، اما ابن تيمية فهو الاخر كان محط اهتمام كبير من قبل الباحث الغربي مع وجود اشارات في هذه البحوث على تطرف هذا الرجل وتصلبه في رؤيته الفقهية، ومن هذه الدراسات دراسة جون هوفر عن ابن تيمية وابن قيم الجوزية، ودراسة الايطالية كاترينا بوري عن ابن تيمية، ودراسة الاسرائيلية لفينات هولتزمان بعنوان الفكر اللاهوتي لابن تيمية، وكذلك للاسرائيلي يوسف رابوبورت دراسات متنوعة عن ابن تيمية. على حد علم الباحث ان هذه الدراسات معظمها غير مترجم الى العربية.

[٦] البعلبكي، منير، معجم اعلام المورد، ط١، (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢)، ص٥٠٨.

[٧] مسكويه، احمد بن محمد بن يعقوب، تجارب الامم وتعاقب الهمم، تحقيق: كسروي حسن، ط١، (دار الكتب اللبنانية، بيروت، ٢٠٠٢)، ج٢، ص٢٥.

[٨] فيليب فارج – يوسف كرباج، المسيحيون واليهود في التاريخ الاسلامي العربي والتركي، ترجمة بشير سباعي، ط١، (دار سينا، القاهرة، ١٩٩٤)، ص٢٧-٢٨.

[٩] ادلبي، ناوفيطوس، دراسات حول الكتاب العرب في علم اللاهوت، مجلة مسرة، العدد: ٨٠٥، ١٩٩٣، ص٩٣٥-٩٣٦.

[١٠] ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص٥٧٥.

[١١] رسالة الكندي مع تعليقات وليم موير، (لندن، ١٨٨٧)، ص٦.

[١٢] ادلبي، دراسات حول الكتاب العرب في علم اللاهوت، ص٩٣٧.

[١٣] سوذرن، صورة الاسلام في اوروبا في القرون الوسطى، ص٤١.

[١٤] كانتور، نورمان، التاريخ الوسيط قصة حضارة: البداية والنهاية، ترجمة: قاسم عبده قاسم، ط١، (عين للدارسات، القاهرة، ١٩٩٧)، القسم الاول، ص١٩٥.

[١٥] نصر، مارلين، صورة العرب والاسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، ط١، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥)، ص٢٧.

[١٦] سوذرن، صورة الاسلام في اوروبا في القرون الوسطى، ص٥٥.
[١٧] رضا بك، وثائق عن الحروب الصليبية، ص٢٢٤.
[١٨] الساموك، سعدون محمود، الاستشراق الروسي دراسة تاريخية شاملة، ط١، (دار المنهاج، عمان، ٢٠٠٣)، ص١٩-٢٠.
[١٩] سوذرن، صورة الاسلام في اوروبا في القرون الوسطى، ص٥١-٥٤.
[٢٠] سوذرن، صورة الاسلام في اوروبا في القرون الوسطى، ص٦٣.
[٢١] لين بول، ستانلي، قصة العرب في اسبانيا، ترجمة: علي الجارم، ط١، (مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة مصر، ٢٠١٤)، ص٦٣.
[٢٢] قاسم، عبده قاسم، الخلفية الاديولوجية للحروب الصليبية، ط٢، (ذات السلاسل، مصر، ١٩٨٨)، ص١٣٩-١٤١.
[٢٣] قاسم، الخلفية الاديولوجية للحروب الصليبية، ص١٤٢-١٤٣.
[٢٤] فوك، يوهان، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والاسلامية حتى بداية القرن العشرين، ترجمة: عمر لطفي العالم، ط٢، (دار المدار الاسلامي، بيروت، ٢٠٠١)، ص١٦-١٨.
[٢٥] فوك، تاريخ حركة الاستشراق، ص٢٤.
[٢٦] Laurence B. Brown. The Case for Islam as the Completion of Revelation. p. ٥.
[٢٧] بدوي، موسوعة المستشرقين، ص٣٠٦.
[٢٨] سوذرن، صورة الاسلام في اوروبا، ص٩١-٩٤.
[٢٩] اورين، مايكل، القوة والايمان والخيال امريكا في الشرق الاوسط منذ عام ١٧٧٦م حتى اليوم، ترجمة: آسر حطيبة، ط١، (كلمات عربية، القاهرة، ٢٠٠٨)، ص٦٠.
[٣٠] سوذرن، صورة الاسلام في اوروبا، ص٩١-٩٤.
[٣١] هنتنغتون، صامويل، صدام الحضارات اعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، ط٢، ١٩٩٩، ص٤٦.
[٣٢] بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ط٣، (دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٣)، ص٢٢.
[٣٣] كرباج، يوسف، تأملات في الشرق تقاليد الاستشراق الفرنسي والألماني وحاضره، ط١، (قدمس، بيروت، ٢٠٠٦)، ص٩٧.
[٣٤] رضا بك، وثائق عن الحروب الصليبية، ص٢٢٢.
[٣٥] كثيرة هي مقولات المستشرقين التي تنسب مشكلات الشرق والبلدان الاسلامية الى الدين الاسلامي منها ما قاله اللورد كرومر في كتابه (مصر الحديثة ١٩٠٨): «ان القرآن الكريم هو المسؤول عن تاخر مصر في مضمار الحضارة الحديثة»، او «لن يفلح الشرق ما لم يرفع الحجاب عن وجه المرأة ويغطى به القرآن»، نقلا عن كتاب زينب عبد العزيز، موقف الغرب من الاسلام محاصرة وابادة، (دار الكتاب العربي، دمشق، ٢٠٠٤)، ص٥٥.

[٣٦] اركون، محمد، الاسلام، اوروبا، الغرب، رهانات المعنى وارادة الهيمنة، ترجمة: هشام صالح، ط٢، (دار الساقي، بيروت، ٢٠٠١)، ص١٠.

[٣٧] تودوروف، تزفيتان، الخوف من البرابرة ما وراء صدام الحضارات، ترجمة: جان ماجد جبور، ط١، (هيئة ابو ظبي للثقافة (كلمة)، ٢٠٠٩)، ص١٤٢.

[٣٨] برنارد لويس- ادوارد سعيد، الاسلام الاصولي في وسائل الاعلام الغربية من وجهة نظر امريكية، ط١، (دار الجيل، بيروت، ١٩٩٤)، ص٧٢.

[٣٩] برنارد لويس- ادوارد سعيد، الاسلام الاصولي، ص١١-١٢.

[٤٠] غارودي، روجيه، الاصوليات المعاصرة اسبابها ومظاهرها، ترجمة: خليل احمد خليل، (دار عام الفين، باريس، ٢٠٠٠)، ص٦٧.

[٤١] سعيد، ادوارد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة، صبحي حديدي، ط١، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٦)، ص٥.

[٤٢] سعيد، تعقيبات على الاستشراق، ص٦-٧.

[٤٣] عبد العزير، زينب، تنصير العالم مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني، ط١، (دار الفاء، مصر، ١٩٩٥)، ص١٤.

[٤٤] تاكر، جورج، اقباط ومسلمون منذ الفتح العربي الى عام ١٩٢٢م، (مؤسسه هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، ٢٠١٢)، ص٤٨-٤٩.

[٤٥] لتفاصيل اكثر ينظر: ابن عساكر، ابي القاسم علي بن الحسن الشافعي، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: عمر بن غرامة العمروي، (دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥)، ج٢، ص١٧٤ وما بعدها.

[٤٦] ابن عساكر، ج٢، ص٢٥٠.

[٤٧] جرافسكي، الكسي، الاسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة، (المجلس الثقافي الوطني للفنون والاداب، الكويت) العدد ٢١٥. ص٣٣-٣٤.

[٤٨] القرشي، باقر شريف، حياة الامام الرضا عليه السلام، ط١، (منشوارت سعيد بن جبير، قم، ١٣٧٢هـ. ش)، ج١، ص٣٧-٣٨.

[٤٩] على سبيل المثال: دراسة رؤوف شلبي، الاديان القديمة في الشرق، (دار الشروق، بيروت،، ١٩٨٣)، ودراسة كمال سليمان الصليبي، التوراة جاءت من جزيرة العرب، (مؤسسة الابحاث العربية، لبنان، ١٩٨٦)، ودراسة عبد الوهاب عبد السلام طويلة، بشارات الانبياء بمحمد صلى الله عليه وآله، (دار السلام القاهرة، ١٩٩٠)، ودراسه احمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، (العربي للاعلان والنشر والطباعة، دمشق، ١٩٧٣)، غيرها. معظم هذه الدراسات اعتمدت على مصادر من خارج اطار القرآن الكريم والسنة والنبوية.

[٥٠] صورة الاسلام في التراث الغربي (دراسات المانية)، ترجمة: ثابت عيد، (نهضة مصر، القاهرة، ١٩٩٩)، ص٥.

حيدر حبّ الله[1]
تحرير وتنظيم: الشيخ سعيد نورا

إدارة الاختلاف في القرآن الكريم
بين منهجَي: الوصل والقطع

بين يدي البحث

يعتبر الاختلاف من الأزمات التي تواجهها البشريّة، منذ أن هبط الإنسان إلى الأرض إلى يومنا هذا، حيث ينقل القرآن الكريم قصّة ابنَي آدم، عندما اختلفا في موضوع القربان: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ولَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وذٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (المائدة: ٢٧ ـ ٣٠).

ويستمرّ هذا الخلاف عبر التاريخ إلى يومنا هذا، وصولاً إلى خلافات كثيرة في الأمّة الإسلاميّة نفسها بين التيّارات الدينيّة المتعدّدة، وهي الخلافات التي قد يكون الدين نفسه أحد موضوعاتها.

والسؤال المهمّ في هذا الصدد، هو أنّه كيف يمكننا أن ندير الاختلافات التي تقع داخل الدائرة الإسلاميّة، أو داخل الدائرة الإيمانيّة؟ وكيف يمكننا أن نختلف معاً، في الوقت الذي نشعر فيه بأنّ الموضوعات التي نختلف عليها، هي موضوعاتٌ أساسيّة في الدين، وقد تُبعد بيننا وبين الطرف الآخَر مسافاتٍ ومسافات؟

هل يمكن أن نسمح للطرف الآخَر أن يطرح ما يريد من الأفكار ونكتفي بالردّ عليه ردّاً علميّاً، باستخدام كلّ الوسائل العلميّة والبحثيّة والتثقيفيّة والتوعويّة والتعبويّة، أو أنّ هناك طرقاً أخرى للخلاف في الداخل الإسلامي، بإمكاننا أن نستخدمها أيضاً؟

سوف نحاول هنا الإجابة على هذه الأسئلة المهمّة قدرَ استطاعتنا، أملاً في أن يُكمل الآخرون هذا الطريق للوصول إلى الغاية المنشودة.

سوف نركّز في هذه الدراسة بالدرجة الأولى على القرآن الكريم؛ إيماناً منّا بدوره الكبير في الدراسات الفقهيّة، ولهذا خصّصنا الفصل الأوّل لتقديم إشارة عابرة عن الفقه القرآني ودور القرآن في الدراسات الفقهيّة، محيلين على ما درسناه مفصّلاً في كتابنا المتواضع «دراسات في الفقه الإسلامي المعاصر»[٢]، حيث بحثنا هناك عن الفقه القرآني ومعالمه.

وفي الفصل الثاني، سوف نحاول أن نكتشف البنيات التحتيّة لفكرة إدارة الاختلاف في القرآن الكريم؛ لنرى ما هي المبادئ الأساسيّة التي يفرضها هذا الكتاب الكريم، لتنظيم العلاقات بين المؤمنين؟ لأنّ هذه الأسس سوف تشكّل عنصراً محوريّاً، لتكوين صورةٍ مكتملة عن رؤية القرآن الكريم للخلافات الداخليّة في المجتمع الإسلامي، حتى نستطيع أن نضع في ظلّ هذه المبادئ العامّة حلولاً مناسبة لهذه الخلافات المتنوّعة، ولهذا سندرس هذه المبادئ في الفصل الثاني تحت عنوان «المبادئ الأساسيّة

القرآنيـــة لتنظـــيم العلاقـــات بـــين المـؤمنين»، ونقصـد بـالمؤمنين هنـا، الـذين آمنـوا باللـه ورسـوله بمختلـف مذاهبهم وطرق تفكيرهم.

ثـم ننتقـل للحـديث عـن الحـالات الاسـتثنائيّة التـي تخـرج عـن هـذه المبـادئ العامّـة، وهـي حالـة البغـي والظلم.

بعد ذلك سوف نخصّص قسماً مـن الحديث يمثّل مرحلة التطبيـق العملـي لهذه المبادئ العامّة على أرض الواقـع، عبـر عـرض الخطـوط العامّـة لإدارة الاخـــتلاف، حيـــث نقـــوم بدراســـة الاتجاهـات المختلفـة، ونقـدها علـى أسـاس تلـك المبـادئ العامّـة لنميّـز الاتجاه الصحيح عنغيره.

أوّلاً: دور القـــرآن الكـــريم في الاجتهاد والمعرفة الدينيّة

نتحدّث هنا عن إطلالة سريعة عن موقـع القـرآن المكـريم فـي التوجيـه العملـي للإنسـان، وذلـك علـى شـكل نقاط مختصرة وموجزة:

بدايات التوجّه القرآني العامّ

قبـل أن نشـرعَ بالحـديث عـن دور القرآن الكريم فـي الدراسـات الفقهيّـة، من المناسب أن نمهّد لـذلك بالحـديث عن الاهتمام القرآنـي الكبيـر والمتزايـد في العـالم الشـيعي فـي السـبعين سـنة الأخيرة، حيث شـهد العـالم الإسـلامي توجّهاً شيعيّاً كبيراً نحو القرآن الكـريم، وحـدثت نهضـةٌ يمكـن أن يقـال فـي حقّهـا: إنّهـا نهضـةٌ تاريخيّـةٌ بكـلّ مـا للكلمـة مـن معنـى، نهضـةٌ كبيـرة فـي مختلف شؤون القرآن الكريم من علـوم القرآن وتفسيره وقراءته وحفظه.

وقد ساهم في إيجاد هـذه النهضـة العظيمـة مجموعـةٌ مـن العلمـاء، مـن بينهم:

١ ـ العلّامـــة محمـــد حســـين الطباطبائي.

٢ ـ السيد محمود الطالقاني.

٣ ـ السيد محمد باقر الصدر.

٤ ـ السيد محمّد حسين فضل الله.

٥ ـ الشيخ محمد الصادقي الطهراني.

٦ ـ السيّد علي الحسيني الخامنئي.

وغيرهم من العلماء.

شهدنا في هذه الفترة الدعوة إلى حضور القرآن الكريم، في صدر الأبحاث العلميّة والدراسات الفقهيّة والأصوليّة بعد أن كان غائباً عن الدراسات العلميّة غياباً نسبيّاً.

وفي هذا الإطار، بدأ العلماء يتحدّثون عن اجتهاداتٍ جديدة في فهم القرآن، وفي الفقه، وفي فهم الشريعة، وتنوّعت الآراء فيما بينهم واختلفوا في طرق فهم الكتاب، لكن كانت هناك فكرةٌ تشتدّ يوماً بعد يوم في الساحة العلميّة، وهي فكرةُ مرجعيّة القرآن في الاجتهاد الديني عموماً، فأيّ اجتهاد نريد أن نقوم به دينياً، لابدّ أن نعرضه على القرآن الكريم لنرى هل يوافقه أو لا؟

إنّ هذه الفكرة ليست جديدة، بل نجد جذورها في عصر الأئمّة عليهم السلام، حيث كانوا يأمرون أتباعهم بلزوم عرض الأحاديث على الكتاب الشريف لمعرفة مدى موافقتها له، بل هناك نصوص عن النبيّ يأمر فيها بهذا الأمر، وقد تضاعف الاهتمام بمثل هذه النصوص خلال القرن الأخير.

فكرة مرجعيّة القرآن في الاجتهاد الديني

فكرة الرجوع إلى القرآن في تقويم الأحاديث، نشأت عن الروايات الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام، تأمر بالرجوع إلى القرآن الكريم لمعرفة مدى صحّة الروايات، ونشير هنا إلى بعض هذه الروايات إشارةً عابرة:

١ ـ خبر السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله|: إنّ على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ صوابٍ نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»[٣].

٢ ـ خبر هشام بن الحكم وغيره، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «خطب

النبي| بمنى، فقال: أيّها الناس، ما جاءكم عنّي يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله»[٤].

٣ ـ خبر أيوب بن راشد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما لم يوافق من الحديث القرآنَ فهو زخرفٌ»[٥].

وقد بحثنا هذا الموضوع مفصّلاً في كتابنا المتواضع «حجيّة الحديث»، فليراجع[٦].

موافقة الكتاب بين الحرفيّة والمضمونيّة

ثمّة جدلٌ كبير بين العلماء ـ خاصّةً المتأخرين ـ في معنى موافقة الكتاب ومخالفته؟

أ ـ الرأي المدرسي القائم على النسب الأربعة

إنّ الكثير من الفقهاء والأصوليّين تعاملوا مع هذه الروايات بذهنيّةٍ فلسفيّة ـ منطقيّة، ولذلك نجد فكرة النسب الأربعة حاضرةً في كلمات الكثير منهم[٧]، وعلى سبيل المثال نشير إلى كلام بعضهم في هذا الصدد، وهو ما ذكره السيّد الحكيم في تعريف هذه الموافقة: «ويراد بموافقة الكتاب أن يكون الحكم داخلاً ضمن إطار أحكامه العامّة أو الخاصّة، وبالمخالفة أن يصادمها على نحو التباين أو العموم والخصوص من وجه، أي في المواضع التي لا يمكن فيها الجمع العرفي أصلاً»[٨].

ويبدو لي أنّ هذا النوع من التفسير للنصوص الدينيّة، كان أحد الآثار السلبيّة لدخول الفلسفة اليونانيّة إلى الإسلام، حيث أثّر على كيفيّة الفهم العرفي للنصوص، وحوّلهَا إلى فهم تقعيدي أشبه بحلّ المعادلة الرياضيّة منه إلى فهم النصوص العرفيّة.

ب ـ الموافقة مع مزاج القرآن ومضمونه وروحه

ظهر اتّجاهٌ جديد في القرن الأخير، يرى أنّ المقصود بموافقة الكتاب، ليس الموافقة الحرفيّة، وإنّما هي

الموافقة مع المزاج العامّ والروح العامّة للقرآن الكريم. ومن أبرز شخصيّات هذا الاتجاه السيّد محمّد باقر الصدر، وهو يذكر مثالاً للمخالفة وآخر للموافقة:

أما مثال المخالفة، فهو خبر الكليني بسنده[٩] إلى أبي الربيع الشامي، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: «لا تشترِ من السودان أحداً فإن كان لابدّ فمن النوبة[١٠]، فإنّهم من الذين قال الله عز وجل: (ومن الذين قالوا إنّا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكّروا به)، أما إنّهم سيذكرون ذلك الحظّ وسيخرج مع القائم عليه السلام منّا عصابة منهم، ولا تنكحوا من الأكراد أحداً فإنّهم جنسٌ من الجنّ كشف عنهم الغطاء»[١١].

تنهى هذه الرواية عن شراء السودان من ناحية، ومن ناحية أخرى تمنع عن مناكحة الأكراد، وتصفهم بأنّهم جنسٌ من الجنّ كشف عنهم الغطاء. إنّ السيّد الصدر يقول: «فمثلاً لو وردت روايةٌ في ذمّ طائفة من الناس وبيان خسّتهم في الخلق أو أنّهم قسم من الجنّ، قلنا: إنّ هذا مخالفٌ مع الكتاب الصريح في وحدة البشريّة جنساً وحسباً ومساواتهم في الإنسانيّة ومسؤوليّاتها مهما اختلفت أصنافهم وألوانهم»[١٢].

إذن، ليست هناك آية في القرآن الكريم تخالف هذه الرواية مخالفةً حرفية، لكنّ المزاج العامّ للقرآن الذي يستفاد من خلال الآيات التي تتحدّث عن تساوي نوع البشر، أو تجعل معيار الإكرام هو التقوى أو العلم وغيرها من الآيات التي يستوحى منها تساوي الإنسان في الحقوق والوظائف.. يخالف هذه الرواية، فنطرح هذه الرواية جانباً أو نكِل علمها إلى أهلها. والآيات التي يستوحى منها هذا المزاج العام هي مثل قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ..**﴾ (الإسراء: ٧٠)، وكذلك قوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ**

﴿شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

وأما مثال الموافقة، فهي خبر الكليني بسنده[١٣] إلى أبي عبد الله عليه السلام، قال: «أنّه كان إذا أهلّ هلال شهر رمضان، قال: اللّهم أدخله علينا بالسلامة والإسلام واليقين والإيمان والبّر والتوفيق لما تحبّ وترضى»[١٤].

فهذه الرواية تحثّ على الدعاء عند رؤية الهلال، وهنا يقول الصدر: «وأمّا مجيء رواية تدلّ على وجوب الدعاء عند رؤية الهلال مثلًا فهي ليست مخالفةً مع القرآن الكريم، وما فيه من الحثّ على التوجه إلى اللّه، والتقرّب منه عند كلّ مناسبة، وفي كلّ زمان ومكان»[١٥].

إذن، نحن نشاهد خلال العقود السبعة الأخيرة، أنّ العلماء بدأوا يتّجهون نحوَ تأسيس مدرسة جديدة ومعمّقة، تؤصّل لمرجعيّة القرآن الكريم، دون أن تلغي قيمة المصادر المعرفيّة الأخرى كالسنّة والعقل وما شابه ذلك.

ثانياً: المبادئ القرآنيّة في تنظيم العلاقات بين المسلمين

ما نريد أن نفعله هنا، هو تأصيل مرجعيّة القرآن فيما يتعلّق بالقواعد الأساسيّة في علاقات المؤمنين ببعضهم؛ لنرى كيف يصوّر لنا العلاقات الداخل ـ إيمانيّة، أي بين المؤمن والمؤمن، سواءً كان المؤمنان من جماعتين أو تيارين أو حزبين أو عشيرتين أو قوميّتين أو لغتين أو مذهبين أو ما شابه ذلك؟

من هنا يجب أن نجمع كلّ ـ أو على الأقلّ أغلب ـ الآيات القرآنيّة التي تلتقي حول هذا الموضوع، ثمّ نحاول أن نفهمها فهماً عرفيّاً بعيداً عن التعقيدات، ونستخلص منها القواعد القرآنيّة في علاقات المؤمنين ببعضهم، ثم نذهب إلى سائر الأدلّة، من الحديث أو السيرة المتشرعيّة أو أيّ

شيء آخر، وفاءً لحقّ تقدّم القرآن على سائر المصادر الدينيّة.

وسأحاول أن استكشف المبادئ العامّة التي يفرضها القرآن لعلاقات المؤمنين ببعضهم، لنخرج بتصويرٍ واضح عن المزاج القرآني في قضيّة الاختلاف في الأمّة، ثمّ نعرض حياتنا على القرآن، لنرى هل نحن سائرون على نهج القرآن أو لا؟

المبدأ الأوّل: مبدأ عدم التنازع، والاحتكام إلى الله ورسوله

هذا المبدأ يؤصّله القرآن في قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ (الأنفال: ٤٦)، وهناك الكثير من الآيات القرآنيّة الأخرى، تؤكّد على هذا المبدأ، نشير إليها لاحقاً.

أ ـ التنازع في اللغة، وعدم شموله لمجرّد الاختلاف

حسب ما يستفاد من كتب اللغة، فإنّ أصل التنازع، هو التجاذب، ويُستخدم بمعنى التخاصم، وإليك نصّ كلماتهم في هذا السياق، حيث جاء في لسان العرب: «التنازُع: التخاصُمُ. وتنازَعَ القومُ: اخْتَصَمُوا»[١٦]. وفي المصباح: «و (نَازَعْتُهُ) فِي كَذَا مُنَازَعَةً ونِزَاعاً خَاصَمْتُهُ و(تَنَازَعَا) فِيهِ»[١٧]. وفي تاج العروس: «والتَّنازُعُ فِي الأَصْلِ: التَّجاذُبُ، كالمُنَازَعَةِ، ويُعَبَّرُ بِهِمَا عن التَّخاصُمِ والمُجَادَلَةِ، ومِنْهُ قَوْلُه عَزَّ وجَلَّ: ولَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا، وقَوْلُه تَعالَى: فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ»[١٨].

إذن، مجرّد الاختلاف في الآراء لا يسمّى تنازعاً في اللغة، فلو قال مجتهدٌ: يجوز النكس في مسح الرِجلين للوضوء، وقال الآخر: لا يجوز، فلا يكون هذا تنازعاً؛ لأنّ التنازع في اللغة يعني التخاصم، وهذا يتضمّن نوعاً من التصارع والقسوة المتبادلة.

وممّا يؤيّد هذا المعنى الذي ذكرناه، تعليل الآية لحظر التنازع بأنّه

يؤدّي إلى الفشل وإلى ذهاب السلطة والقوّة؛ لأنّ هذا التعليل يترتّب على التخاصم لا على الاختلافات العلميّة التي تدفع عجلة التقدّم إلى الأمام.

ب ـ التنازع وفشل الأمّة وذهاب ريحها

قد نفهم من هذه الآية الشريفة، أنّ ذهاب الريح هي الغاية من وراء تحريم النزاع في المجتمع الإيماني؛ حيث علّلت: ﴿فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾، وذهاب الريح كنايةٌ عن زوال القدرة والعزّة، وهذا أمر طبيعي؛ لأنّ النزاع يوقِع الفرقة والاختلاف بين أبناء الأمّة الإسلاميّة، حيث ينشغلون بالقضايا الداخليّة ويغفلون عن الأعداء، وبالتالي تضعف قواهم فيطمع الأعداء بهم.

فالنزاع يسبّب فشل الأمّة الإسلاميّة وضعفها، ويوجب زوال قدرتها وعزّتها، وكما هو المعروف، فإنّ العلّة تعمّم وتخصّص، فكلّ فعلٍ يؤدّي إلى هذين العنصرين، أمرٌ مرفوضٌ من قِبل الشريعة الإسلامية، وكذلك أيّ خلاف لا يؤدّي إلى هذين، لا يشمله هذا النهي.

ج ـ مرجعيّة الله ورسوله في حلّ المنازعات

يقدّم القرآن الكريم بعد النهي عن تحقّق النزاع، حلاً لفكّ النزاعات الداخل ـ إيمانيّة، وهو الرجوع إلى الله ورسوله عليهما السلام، حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمر مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء: ٥٩).

فإذا حصل التنازع في أيّ موضوع كان، يجب الرجوع إلى القرآن والسنّة والاحتكام إليهما؛ لنرى لمن أعطيا الحق، وعلى من فرضا واجباً وتكليفاً، فيعرف كلّ شخص المسؤوليّات التي عليه أن يقوم بها والحقوق التي له.

والنتيجة: إنّ المبدأ الأول في

علاقات المؤمنين هو حظر التنازع؛ لأنّه سوف يؤدّي إلى فشل الأمّة وذهاب قوّتها، فأيّ خلافٍ فكري أو عقائدي أو سياسي أو اجتماعي في الداخل الإيماني، مهما بلغ، يجب أن لا يصل إلى حدّ التنازع المُفضي إلى فشل الأمّة وذهاب قوّتها (فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) وإن كان الخلاف خلافاً حقّاً.

المبدأ الثاني: مبدأ الاعتصام الديني وعدم التفرّق

يُستلهم المبدأ الثاني من آيةٍ كريمة تأمر المؤمنين بعدم التفرّق معتصمين بحبل الله جميعاً، وهي قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولاَ تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**﴾ (آل عمران: ١٠٢ ـ ١٠٣).

تتحدّث هذه الآية عن مشهدٍ رائع، وكأنّ هناك حبلٌ ممدودٌ من السماء، وأبناء المجتمع الإيماني يتمسّكون بهذا الحبل، فالقاسم المشترك الذي يربط المؤمنين ببعضهم، هو حبل الله سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولاَ تَفَرَّقُوا**﴾ ينهى المؤمنين عن التفرّق والتمزّق، فمن حقّنا أن نختلف، لكن يجب أن تبقى الهويّة الجمعيّة أقوى من الهويّة الفئويّة، مهما اشتدّت الهوية الفئوية، يجب أن تكون الهوية الجمعيّة مستحكمة وقويّة بل هي الأقوى. ثمّة آيات كثيرة تتناول موضوع التفرّق من زوايا متعدّدة، وسوف أشير إلى بعضٍ منها:

أ ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في ظلّ النهي عن التفرّق

يتحدّث القرآن الكريم بعد النهي عن التفرّق مباشرةً، عن مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث قال: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى**

﴿الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

إنّنا نستوحي من هذا الترتيب أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يجب أن يجتمع مع وحدة الأمّة والمؤمنين، إذاً، لا ينبغي أن يكون إصلاح حال المسلمين قائماً على أساس تمزيق المسلمين وتفريقهم.

ب ـ العذاب العظيم للذين تفرّقوا واختلفوا

والآية التي تليها تنهى المؤمنين أن يكونوا مثل الذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البيّنات، واصفةً إيّاهم بالذين لهم عذابٌ عظيم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٦)، فهذه الآية أيضاً تؤكّد على الاعتصام الديني وعدم التفرّق بين المؤمنين.

ج ـ القطيعة التامّة بين النبيّ الأكرم والذين فرّقوا دينهم

من الآيات التي تؤكّد على مبدأ عدم التفرّق، قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنما أَمْرُهُمْ إِلى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٩).

إنّ عبارة ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ كنايةٌ عن البراءة منهم، يعني ليس هؤلاء من أمّة محمد عليهما السلام ـ إذا صحّ التعبير ـ لا هم من النبي عليهما السلام ولا هو منهم، وهذا تعبيرٌ عن تمام القطيعة بينهم وبين النبي، فكلّ من يعمل على أن يفرّق بين المؤمنين، ويجعلهم شيَعاً، فليس من رسول الله في شيء.

د ـ هدم المسجد الذي يفرّق بين المؤمنين

إنّ الإسلام اهتمّ بالمساجد كثيراً،

ولـذلك وضـع ضـوابطَ كثيـرة لحفـظ حرمتها، لكن نـرى فـي قضيّة مسـجد ضــرار الــذي أراد المنــافقون تفريــق المؤمنين من خلاله موقفاً ملفتاً، يفتقد فيه المسجد أهميّته فـي مقابـل وحـدة المسـلمين وحفـظ ديـنهم، فقـد شـبّهه القرآن الكريم قائلاً: ﴿.. أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ..﴾ (التوبـة: ١٠٩)، ويأمر نبيّـه بـأن لا يقـوم فيـه أبـداً ﴿لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً﴾.

وقد وردت قضيّة مسجد ضـرار فـي سورة التوبة هكذا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وكُفْراً وتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللهَ ورَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ولَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ ورِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ١١٠ ـ ١١٧).

هـ ـ التفريق نفسه يعتبر عذاباً عظيماً

عنـدما أراد اللـه سـبحانه وتعـالى أن يبـيّن قدرتـه علـى أنـواع العـذاب، قـال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً ويُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ وكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام: ٦٥ ـ ٦٦).

تشير هذه الآية الكريمة إلى أنواع العذاب:

١ ـ ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ كناية عن العـذاب النـازل مـن السـماء مثـل الصاعقة.

٢ ـ ﴿مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ كناية عن عذاب الأرض مثل الخسف والزلازل.

٣ ـ ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ أن يتحاربوا في ما بينهم، ويقتل بعضهم بعضاً، هذا عذابٌ اختاره الله لبعض الأمم.

تجعل هذه الآية تفريق الأمّة وتمزيقها، أحد أنواع العذاب، بحيث يعتدي بعضهم على بعض، وتنشأ الحروب الدامية بينهم، فالفرقة عذاب والوحدة نعمة، وقد يفوق هذا العذاب في آثاره السلبية أكثرَ الزلازل شدةً كما رأيناه في الحروب العالميّة، حيث أدّت إلى قتل الملايين من البشر، وخلّفت آثاراً شنيعة نجد بقاياها إلى الآن، فاختار الله سبحانه وتعالى لبعض الأمم هذا النوع من العذاب كما اختار لبعضٍ من الأمم السابقة عذاباً من السماء أو الأرض كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم.

وتفريق الدين عملُ المشركين

من الآيات التي تركّز على مفهوم الاعتصام الديني وعدم التفرّق بين أبناء المجتمع الإيماني، قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ولٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ واتَّقُوهُ وأَقِيمُوا الصَّلاَةَ ولاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٠ ـ ٣٢).

حيث تصف المشركين بالذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، ففي مجتمع المشركين كلّ فئة تفرح بالمنجزات الصغيرة التي تحقّقها بنفسها، وتنسى المجتمع الكبير الذي تعيش فيه وتتجاهله، فعلى أبناء الأمّة الإسلاميّة أن يهتمّوا بالأمّة بأكملها، ولا تنحصر اهتماماتهم بالمصالح الفرديّة أو الفئويّة، بل عليهم أن يفكّروا بعقليّة

الأمّة ويسعوا لتحقيق أهدافها.

ز ـ عدم التفرقة هي شريعة ثابتة من نوح إلى النبي الخاتم ﷺ

من الآيات التي تكرّس مفهوم عدم الفرقة بوصفها شريعة ثابتة للأديان السماوية، قوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً والَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ومَا وَصَّيْنَا بِهِ إبراهيم ومُوسَى وعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ويَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ومَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ولَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ**﴾ (الشورى: ١٣ ـ ١٤).

تقول هذه الآية القرآنيّة الشريفة: إنّ الحكم بإقامة الدين وعدم الفرقة، شريعة في الإسلام وهي ما أوصى به الله سبحانه وتعالى أنبياءه السابقين من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. وهم أولوا العزم، وهذا ما يخبر عن مدى أهميّة هذا المبدأ في الأديان السماويّة بأجمعها.

فعلى أبناء الأمّة الإسلاميّة أن يتمسّكوا بهذا المبدأ المهمّ، ويقيموا الدين ويتحرّزوا من الفرقة فيه، لا أن يجعلوا الدين نفسه مادّة للفرقة، كما نجده خلف الكثير من الخلافات في المجتمع الإسلامي، بينما وفق هذه الآية الكريمة يجب أن يكون الدين موجباً للالتئام والوحدة في الأمّة الدينيّة.

ثم تبيّن الآية أسباب هذه الفرقة، حيث تقول: ﴿**ومَا تَفَرَّقُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ**﴾، فمنشأ الفرقة إنّما هو البغي، استناداً إلى الحصر الموجود في الآية، وإن أخفى نفسه خلف أقنعة مختلفة دينيّة أو سياسيّة أو غير ذلك، إذاً ينحصر منشأ الخلافات بمختلف أنحائها في الانحراف الأخلاقي، الذي سمّاه القرآن الكريم بالبغي، فالأخطاء

الفكريّة والمعرفيّة لا تسبّب الفرقة في المجتمع الإيماني.

إذن، كلّ نشاط يسبّب الفرقة بين المؤمنين لابدّ أن يكون أصله وسببه البغي والانحراف الأخلاقي عن الصراط المستقيم، وعليه فيمكن أن نختلف في الاجتهادات الدينيّة والعلميّة؛ لأنّ الخطأ في الاجتهاد لا يبرّر التفرّق، أمّا الفرقة فهي ناتج البغي الذي يُخفي نفسه تحت عناوين متعدّدة، فعلى أبناء الأمّة الإيمانيّة أن يهذّبوا نفوسهم وأخلاقهم، كي لا يقعوا في شراك الشيطان من حيث لا يشعرون.

ح ـ سكوت هارون عن فعلة السامري حذراً من التفرّق

أشيرُ إلى قصّة ذكرها القرآن الكريم ربّما لا يُلتفت إليها كثيراً في هذا المجال، وهي قصّة هارون والسامري، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى قَالَ هُمْ أُولاَءِ عَلَى أَثَرِي وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ولٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هٰذَا إِلٰهُكُمْ وإِلٰهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلاَ يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ولاَ يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً ولاَ نَفْعاً ولَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمٰنُ فَاتَّبِعُونِي وأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ولاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي

﴿إِسْرَائِيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وكَذٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لاَ مِسَاسَ وإِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وانْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾ (طه: ٨٣ ـ ٩٧) [١٩].

لمّا ذهب النبي موسى عليه السلام إلى جبل الطور، لميقات ربّه تبارك وتعالى، وترك هارون مكانه، قال له: (وأصلح ولا تتّبع سبيل المفسدين) ثمّ حصل ما حصل في قصة السامري وعبادة العجل، فلمّا رجع النبي موسى عليه السلام كأنّما اندهش من الحالة حتى أخذ بلحية أخيه هارون وقال: ﴿يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلاَّ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾؛ لأنّ موسى عليه السلام وصّاه بأن يصلح ولا يتّبع سبيل المفسدين، وهنا يجيب هارون: ﴿يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ولاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ولَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

في هذه القصّة يَعتبر هارون خشية الفرقة بين الأمّة أهمّ من المخالفة الجادّة مع السامري وعبادة العجل، الأمر الذي يوحي لنا بأنّ السكوت والإغماض عن الأخطاء قد تكون ضرورةً حيث تتزاحم مع حفظ الجماعة والأمّة، كما فعل الأئمّة عليهم السلام خلال ٢٥٠ سنة حفظاً لوحدة المسلمين، فقد نحتاج إلى أن نغضّ الطرف أو نستخدم سياسةً غير مباشرة لمواجهة بعض الانحرافات الموجودة في المجتمع خشية حصول الفرقة بين المسلمين، وهذا ما يعلّمنا إيّاه القرآن الكريم في قصّة بني إسرائيل؛ لأنّ أيّ سياسة مباشرة كانت ستؤدّي إلى تمزّق بني إسرائيل، فبيّن لنا القرآن، كيف أنّ وصيّة موسى عليه السلام حُفظت فيما فعله هارون، وأنّ ما فعله من عدم التفرّق كان في الحقيقة إصلاحاً وعدم اتّباعٍ لسبيل المفسدين.

ولعلّ هذه القصّة تُفهمنا أنّ الأمّة الموحّدة إذا صدرت بعض مظاهر الشرك من بعض أبنائها، فإنّ وحدة الأمّة أولى من تمزّقها، لأجل تطهير الشرك العملي الخفيف الذي صدر هنا وهناك، ولعلّ في ذلك ما ينفع في تصحيح مسار وسلوكيّات بعض التيارات السلفيّة المعاصرة في تعاملها مع من تعتبرهم تورّطوا هنا وهناك في سلوكيات شركيّة مع انتمائهم لأمّة التوحيد.

ط ـ التفريق عمل المستكبرين مثل فرعون

من الآيات التي يمكن أن نستوحي منها نهي القرآن عن التفرّق، قوله تعالى: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الْأَرْضِ وجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ويَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٣ ـ ٤)، حيث يندّد فيها بفرعون؛ لأنّه علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً، الأمر الذي يشي بأنّ الله سبحانه وتعالى لا يرضى بالتفريق بين أفراد الأمّة، وأنّ سياسة التفريق هي سياسة المستكبرين في الأرض.

والنتيجة: هناك آياتٌ كثيرة تؤكّد على لزوم التماسك الإيماني بين المؤمنين بتعابيرَ مختلفة، قد أشرنا لبعضها، فعلى المؤمنين جميعاً الاهتمام بهذا التماسك والاحتراز عن التفرقة بين الأمّة.

المبدأ الثالث: مبدأ وحدة الأمّة

من المبادئ التي أصّلها القرآن الكريم في آياته الشريفة، مبدأ وحدة الأمّة.

يرى القرآن الكريم هذه الأمّة أمّةً واحدة تتمسّك بحبل الله المتين، حيث قال: ﴿**إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾ (الأنبياء: ٩٢)، وقال: ﴿**وَإِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ**﴾ (المؤمنون: ٥٢)، فهذه الآيات تقدّم

أمّةَ الرسل أمّةً واحدة، لكنّ أبناء هذه الأمم هم الذين اختلفوا فيما بينهم، وصار كلّ حزبٍ بما لديه فرِح، فابتعدوا عن رحمة الله تبارك وتعالى ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ (المؤمنون: ٥٣ ـ ٥٤).

إنّ اختلاف اللغات، أو القوميّات، أو العشائر، أو القبائل، أو البلدان، إنّما هي امتيازات اعتباريّة، نرضى بها ما لم تمزّق وحدة الأمّة المؤمنة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى وجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: ١٣).

المبدأ الرابع: مبدأ الولاية المتبادلة

تتحدّث بعض الآيات الكريمة عن علاقة خاصّة بين المؤمنين نسمّيها بالولاية المتبادلة، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة: ٧١)، وقال في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وهَاجَرُوا وجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ والَّذِينَ آوَوْا ونَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ والَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٧٢).

هذه الآيات تؤصّل مفهوماً جديداً في علاقات المؤمنين ببعضهم، حيث تثبت ولايةً متبادلة فيما بينهم، فيكون الكلّ مسؤولاً عن الكلّ. وفي مثل هذا المجتمع الإيماني تهمّني هموم الآخرين كما تهمّهم همومي اهتماماً

ناشئاً عن محبّة ومودّة راقية كما هي الحال بين الإخوة.

لا يوجد أروع من هذا التعبير في بيان العلاقة بين المؤمنين، والذي يشير إلى شدّة تلاحم الأمّة المؤمنة، وتبادل الحقوق والواجبات فيما بينهم.

المبدأ الخامس: مبدأ الألفة الإسلاميّة والرحمة الإيمانيّة

لا يغفل القرآن الكريم الجانب القلبي والعاطفي إضافةً إلى الجانب القانوني، فيركّز على الألفة الإسلاميّة والرحمة الإيمانيّة في المجتمع، كما يركّز على الولاية المتبادلة التي تمثّل الجانب القانوني، ويرى تأليف قلوب المؤمنين نعمةً إلهيّةً ينبغي الاهتمام بها، ويعتبر الرحمةَ بين المؤمنين من صفات أصحاب رسول الله عليهما السلام الحقيقيّين.

تأليف قلوب المؤمنين نعمة إلهية

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ولٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٢ ـ ٦٣).

تقع هذه الآية في سياق بيان نعم الله تبارك وتعالى لنبيه عليهما السلام، حيث يصف الله نفسه في البداية بـ: ﴿الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبِالْمُؤْمِنِينَ﴾، كما يصرّح بذلك في سورة آل عمران حيث يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً ولاَ تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

إنّ هذه العلاقة أعمق بكثير ممّا نراه اليوم في التكتّلات الإسلاميّة على الصعيد الدولي كجامعة الدول العربيّة أو منظمة المؤتمر الإسلامي؛ لأنّها في غاية الأمر اجتماعٌ لأجل المصالح

المشتركة، بينما يؤكّد القرآن الكريم على الجانب العاطفي والقلبي بين المؤمنين.

الرحمة بين المؤمنين من صفات أصحاب رسول الله

قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ومَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وأَجْراً عَظِيماً﴾ (الفتح: ٢٩).

لقد أعطانا القرآن الكريم ثنائيّة الرحمة والشدّة في العلاقة بين المؤمنين والكفّار، لكن للأسف قد ننسى هذه الثنائية ونتعامل بالشدّة فيما بيننا، ونتعامل بالرحمة مع الكفّار !

الودّ نعمة من الرحمن على العباد

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمٰنُ وُدّاً﴾ (مريم: ٩٦)، حيث تعتبر هذه الآية الشريفة المودّة عطية إلهيّة يعطيها للذين آمنوا وعملوا الصالحات، الأمر الذي يخبر عن مدى أهميّتها.

المبدأ السادس: الأخوّة الإسلاميّة

يركّز القرآن الكريم على مفهوم الأخوّة لتوصيف العلاقة بين المؤمنين في آيات عدّة، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ١٠)، وكذلك في النهي عن الغيبة يستخدم القرآن التعبير نفسه، حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ولاَ تَجَسَّسُوا ولاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ

أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

وعندما أراد أن يتحدّث عن أحكام اليتامى والاهتمام بهم وصفهم بالإخوان، حيث قال: ﴿فِي الدُّنْيَا والْآخِرَةِ ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ولَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٢٠).

وكذلك عندما يتحدّث عن توبة المشركين ودخولهم في المجتمع الإيماني يعتبرهم إخواناً في الدين، حيث قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاَةَ وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ونُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة: ١١).

وكذلك عندما تحدّث عن الأدعياء وعدم كونهم أبناءً حقيقةً، يصف آباءهم بالإخوان في الدين، حيث قال: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ومَوَالِيكُمْ ولَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ولٰكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الأحزاب: ٥).

ويستخدم نفس التعبير في قضية العفو عن القصاص أيضاً، فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ والْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ ورَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٨).

والظريف أنّ القرآن الكريم يركّز على مفهوم الأخوّة بدلاً من مثل علاقة البنوّة أو الأمومة، فلم يقل: إنّما المؤمنون أبناء وآباء أو أمّهات، لماذا؟

يقول بعض العلماء ـ مثل الشيخ جعفر السبحاني ـ في الجواب عن هذا السؤال: لأنّ مفهوم الأخوّة يتضمّن

التساوي، صحيحٌ أنّ علاقة الأمومة أو الأبوّة فيها محبّة وتواصل، لكنّ علاقة الأخوّة بالإضافة إلى المحبّة والمودّة تتضمّن التساوي بين الطرفين، فلا يشعر أحدهم بأنّه دون الآخر أو فوقه، هذا يعني أنّهم متساوون بينهم في الحقوق والواجبات.

ثمّ يستخدم القرآن الكريم أداة الحصر (إنّما)، لبيان هذه العلاقة بين المؤمنين، وكأنّه لا علاقة أخرى بينهم، فلا يوجد في المجتمع الإيماني إلا الأخوّة.

المبدأ السابع: مبدأ الإصلاح

قال تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ٩ ـ ١٠).

وقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلهِ والرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وأَطِيعُوا اللهَ ورَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ١).

وقال عزّ من قائل: ﴿لاَ خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ ومَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ (النساء: ١١٤).

المبدأ الثامن: مبدأ التعاون

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ولاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ ولاَ الْهَدْيَ ولاَ الْقَلاَئِدَ ولاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ ورِضْوَاناً وإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وتَعَاوَنُوا

﴿عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوَى ولاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ والْعُدْوَانِ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢).

ثالثاً: الحالات الطارئة والعناوين العارضة

في مقابل كلّ ما تقدّم من الأخوّة والمحبّة، ثمّة مبدأ واحد يستدعي عكس ذلك، لكنّه في إطار محدود جدّاً وهو مبدأ البغي، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إنما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الحجرات: ٩ ـ ١٠).

يأمرنا الله تبارك وتعالى في هذه الآية بلزوم الإصلاح بين طائفتين من المؤمنين إذا اقتتلوا فيما بينهم، ففي البداية علينا أن نقوم بالإصلاح، لكن إذا بغت طائفة على الأخرى، علينا أن نقاتلهم حتى يرجعوا إلى أمر الله تبارك وتعالى، فالإسلام مع شدّة اهتمامه بوحدة المؤمنين، لكنّه لا يرضى بالظلم، فيأمرنا بنصرة المظلوم.

واللطيف أنّ الله تبارك وتعالى بعد الحديث عن قتال الباغين، يتحدّث مباشرةً عن أخوّة المؤمنين، ويقيّد قتالهم بالرجوع والفيء إلى الله، ممّا يشير إلى عرَضيّة هذا الحكم.

والنتيجة: إنّه بعد استقراء الآيات القرآنيّة نستنتج أنّ المزاج القرآني العام هو: الأخوّة الإسلاميّة، والرحمة بين المؤمنين، والمودّة، والإصلاح في الأمّة الواحدة، ورفض التفرّق والتمزّق. فالنصّ القرآني من أوّله إلى آخره يؤسّس لبناء أمّة مؤمنة تعمّها الأخوّة والرحمة والمودّة مع حفظها لحقّ المظلوم إذا اعتدي عليه.

رابعاً: استراتيجيات إدارة الاختلاف في ضوء المزاج القرآني العامّ

بعد أن رسمنا المبادئ العامّة في

العلاقة بين المؤمنين في ضوء قراءة النصّ القرآني، ننتقل إلى السؤال الآتي: كيف ندير الاختلاف بين المؤمنين وفقاً لهذا المزاج القرآني العامّ؟ كيف نستطيع أن نحافظ على هذا المزاج القرآني العامّ في تلاحم المؤمنين وتواصلهم ومن ثمّ نتعامل مع ظاهرة الاختلاف والتعدّد؟

إنّ الاختلاف أمرٌ طبيعي في الحياة، سواء على صعيد الأبدان واللغات أم على صعيد العقائد والأفكار، من هنا يصبح السؤال الأهمّ: كيف نستطيع أن نجمع بين هذا التشدّد في تلاحم الأمّة الذي يستفاد من القرآن الكريم وبين هذا الاختلاف الطبيعي بين أبنائها؟

ثمّة اتجاهان في واقعنا المعاصر على مستوى التعاطي مع هذه القضيّة:

الاتجاه الأول: وأسمّيه «اتجاه القطع والتخاصم».

الاتجاه الثاني: وأسمّيه «اتجاه الوصل والتلاقي».

الاتجاه الأول: اتجاه القطع والتخاصم

يرى هذا الاتجاه نتيجةَ قناعته، أنّ الحلَّ الوحيد للخروج من هذا المأزق، هو القطع والتخاصم، فإذا واجهنا في واقعنا الإيماني انحرافاً سلوكيّاً، أو اجتماعيّاً أو فكريّاً أو ثقافيّاً أو سياسيّاً، فعلينا أن نستخدم معه في البداية الأسلوب الحسن، فإذا لم ينفع هذا الأسلوب فعلينا أن نرفع الوتيرة، فنستخدم أسلوب قطع الاتصال بينهم، فلا نفتح علاقات مع هذه الفئة الاجتماعيّة أو السياسيّة أو الفكريّة. إذاً، أول خطوة نخطوها هي قطع التواصل؛ لأنّ فيه حماية لنا، ومحاولة لإصلاح حالها.

فإذا اختلفنا مع أيّ تيار فكري أو سياسي أو ثقافي أو..، يجب علينا أن نستخدم معه أسلوب الحصار بكلّ الوسائل الممكنة، فنقوم بإقصاء أيّ شخصٍ نختلف معه، إلى حدّ عدم ذكره في المباحث العلميّة ووسائل

الإعلام كلّها، معتبرين ذلك الطريقة المثلى في مواجهة الخلاف وإدارة الأزمة، حالنا في ذلك حال باحث معاصر قدّم أُطروحة دكتوراه في موضوع «الدولة الإسلامية»، لكنّه لم يذكر لا في الهوامش ولا في المصادر إسم الإمام الخميني ! هل يعقل تدوين مصنّف كبير في هذا الموضوع مع تجاهل هذا الاسم/الرمز؟ نعم، إنّه منهج القطع والإقصاء والإلغاء من الوجود، بدل منهج الحوار. فلماذا لا أذكر آراء الخميني وأناقشها وأنتقدها إذا لم أكن موافقاً معها بدل سياسة الإقصاء والنفي هذه؟ !

وهكذا تصبح صورة الآخر المؤمن الذي أختلف معه في عقلي مشوّهة جدّاً، وذلك لأنّي لا أتواصل معه، وربّما إذا جلست معه مرّة أو مرّتين زال سبعون بالمئة من تلك الصورة البشعة الموجودة لديّ عنه.

نحن اليوم في لحظة تاريخية حَرِجة، وينبغي أن نعي أنّ أيّ قرار نتخذه في هذه اللحظة التاريخية سوف يترك تأثيراً على الأجيال اللاحقة، فكيف علينا أن ندير هذه الأزمة وكلّ يوم يظهر فريقٌ جديد وتيّار جديد؟ علماً بأنّنا لا نستطيع منعه من الظهور؛ لأنّ الدنيا صارت مفتوحة اليوم. فما العمل؟

هذا الاتجاه يقول: أحمي ذاتي، وأرفض المخالف وأحاربه بأيّة طريقة ممكنة، وهذا ما أمرني به الله والرسول|، وهناك روايةٌ يُستند إليها في هذا السياق وهي ما أورده الكليني في «الكافي» عن داود بن سرحان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا رأيتم أهل الريب والبدع من بعدي، فأظهروا البراءة منهم، وأكثروا مِن سبّهم، والقول فيهم، والوقيعة وباهتوهم؛ كيلا يطمعوا في الفساد في الإسلام، ويحذرهم الناس، ولا يتعلّموا من بدعهم، يكتب الله لكم بذلك الحسنات ويرفع لكم به الدرجات في الآخرة**»[٢٠].

يجب أن ندرس هذه الرواية بموضوعيّة تامّة بعيداً عن العواطف

والأحاسيس تجاهها أو ضدّها، تقول هذه الرواية: «**أكثروا من سبّهم**» و«**باهتوهم**»، أي تقول ـ وفقاً لبعض تفاسيرها ـ: عليكم بالبهتان والافتراء.

لقد استفاد هذا الفريق من هذه الرواية منهجَ القطع والتخاصم إلى درجة السبّ والبهتان مسندين إيّاه إلى الدين، لمواجهة كلّ التيارات العلمانيّة واليساريّة، بل والإسلاميّة التي يختلفون معها؛ لقطع مادّة الفساد في الأمّة.

أمّا هذه الرواية من حيث السند فهي روايةٌ صحيحة نُقلت عن الرسول عليه السلام، لكنّ بعض العلماء ـ مثل السيد السيستاني ـ يقول بأنّها تعارض القرآن الكريم، حيث قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ (المائدة: ٨)، فهذه الآية تصرّح بعدم الخروج عن جادّة العدالة في الخلاف مع الآخرين، فلا يحقّ لنا أن نسبّه أو نتّهمه بما لم يفعل، ونُسقطه من أعين الناس.

على أيّة حال، هذه وجهة نظر مطروحة للخروج من أزمة الاختلاف في الأمّة الإسلاميّة، وننتقل الآن إلى الاتجاه الثاني، وهو اتجاه الوصل والتلاقي.

الاتجاه الثاني: اتجاه الوصل والتلاقي

الاتجاه الثاني في مواجهة الاختلاف في الأمّة هو اتجاه الوصل والتلاقي، فلطالما يفتخر المذهب الإمامي بفتح باب الاجتهاد في مختلف العلوم الإسلاميّة من التفسير وعلم الحديث والفقه والأصول والتاريخ والعقيدة والفلسفه والتصوّف والعرفان. إنّ أحد الأعمدة الأساسيّة التي يفتخر بها المذهب الإمامي هو أنه يعلن فتح باب الاجتهاد ضمن معايير الاجتهاد الموضوعي والبحث العلمي.

إذن، ينبغي أن نعرف أنّ باب الاجتهاد مفتوحٌ، والاختلاف في

الاجتهـاد أمـر طبيعـي جـدّاً، وهـذا الاختلاف ليست نقمة، وإنّما هـو نعمـةٌ مَنّ الله بها علينا؛ لأنّـه بالاجتهـاد يـتمّ إثـراء العلـوم الإسـلامية، وهـو أمـرٌ ضروري لنهضة الحياة الفكريّة والعلميّة ولنهضة الوعي في الأمّـة. فـي البدايـة لم تكن الأمور على هذا الشـكل الـذي نراه اليوم من المكتبـات الضـخمة فـي مختلف العلوم الإسلاميّة وإنّمـا صـارت كذلك نتيجة التحـاور والنقـد المتبـادل عبر مئات السنين.

فسدّ بـاب الاجتهـاد كارثـة حقيقيّـة على الفكر الإسلامي، كمـا حـلّ بأهـل السنّة لمدّة قرون إلى أن اشـتغلوا علـى إعادة فتحه مجدّداً منذ النصـف الثـاني من القرن التاسع عشر. طبعاً ليس هـذا بمعنـى إلغـاء الضـوابط والمعـايير فـي العمليات الاجتهاديّة، بل هناك ضوابط محدّدة ضماناً لموضوعيّتها وسلامتها.

إنّ مبـدأ الاجتهـاد يجرّنـا إلـى مبـدأ ثانٍ وهو «معذوريّة الإنسـان الخـاطئ»، فإذا قبلنا بمشروعيّة الاجتهـاد، نعلـم أنّ المجتهـد قـد يخطـأ أحيانـاً، وهـذا أمـرٌ طبيعي جداً، لكنّه معذور فـي خطئـه إذا لم يكن مقصّراً، وهذا مـا يتبنّـاه جمهـور علماء المسـلمين، فـإذا خـرج المجتهـد بنتيجة فقهيّة معيّنة، ثمّ بعد فتـرة تبـيّن أنّه أخطأ، فليس هو بالمـذنب ولا الـذين اتّبعوه في هـذه النتيجـة؛ لأنّ إمكانـات الإنسان في الفهم محدودةٌ، وقد يخطأ وقد يصيب، فمادام المجتهد لـم يخـرج مـن المعـايير الموضـوعيّة فـي البحـث العلمي، ولم يقصّر، فهو معذورٌ عند الله.

كذلك الأمـر فـي سـائر المجـالات الفكريّـة والسياسـيّة والاجتماعيّـة والثقافيّة، فإنّ الاختلاف أمـرٌ طبيعـي، والمخطئ معذورٌ، فإذا اختلفنا مع الآخر يجب أن نحترم خطأه هذا، وفي الوقت نفسه نختلف معه في هذا الخطأ.

سأستشهد بـنصٍّ للإمـام الخمينـي لرفـع الاسـتغراب عـن بعـض الأفكـار، حيـث يؤسّـس بـه ـ رحمـه اللـه ـ رؤيـةً مختلفة في معذوريّة الإنسان الخـاطئ. ثمّة بحث في مطاوي مباحث المكاسب

المحرّمة حول الإعانة على الإثم، فإذا بعتَ شخصاً عِنباً وتعلم أنّه سيقوم بعصره ليجعله خمراً، هل يجوز أن تبيعه له؟ هناك بحث طويل في هذه القضيّة.

يبحث الإمام الخميني هذا الموضوع، وفي سياق الجواب على الاستدلال بسيرة المسلمين في بيع المطاعم من الكفار، يقول: «.. **لا لكون الكفّار غير مكلّفين بالفروع، فإنّ الحقّ أنّهم مكلّفون ومعاقبون عليها، بل لأنّ أكثرهم ـ إلّا ما قلّ وندر ـ جهّال قاصرون لا مقصرون. أمّا عوامّهم فظاهر؛ لعدم انقداح خلاف ما هم عليه من المذاهب في أذهانهم، بل هم قاطعون بصحّة مذهبهم، وبطلان سائر المذاهب، نظير عوام المسلمين، فكما أنّ عوامنا عالمون بصحّة مذهبهم وبطلان سائر المذاهب، من غير انقداح خلاف في أذهانهم لأجل التلقين والنشوّ في محيط الإسلام، كذلك عوامهم من غير فرق بينهما من هذه الجهة، والقاطع معذورٌ في متابعة قطعه، ولا يكون عاصياً وآثماً ولا تصحّ عقوبته في متابعته. وأمّا غير عوامّهم فالغالب فيهم أنّه بواسطة التلقينات من أوّل الطفوليّة والنشوء في محيط الكفر صاروا جازمين ومعتقدين بمذاهبهم الباطلة، بحيث كلّ ما ورد على خلافها ردّوها بعقولهم المجبولة على خلاف الحقّ من بدو نشوئهم. فالعالم اليهوديّ والنصرانيّ كالعالم المسلم، لا يرى حجّة الغير صحيحة وصادر بطلانها كالضروري له، لكون صحّة مذهبه ضروريّة لديه لا يحتمل خلافه. نعم فيهم من يكون مقصّراً لو احتمل خلاف مذهبه وترك النظر إلى حجّته عناداً أو تعصّباً، كما كان في بدو الإسلام في علماء اليهود والنصارى من كان كذلك. وبالجملة: إنّ الكفّار كجهّال المسلمين منهم قاصر، وهم الغالب، ومنهم مقصّر. والتكاليف أصولاً وفروعاً مشتركة بين جميع المكلّفين عالمهم وجاهلهم، قاصرهم ومقصّرهم. والكفّار معاقبون على الأصول والفروع لكن مع قيام الحجّة عليهم لا مطلقاً، فكما أنّ كون المسلمين**

معاقبين على الفروع ليس معناه أنّهم معاقبون عليها سواء كانوا قاصرين أم مقصّرين، كذلك الكفّار طابق النعل بالنعل بحكم العقل وأصول العدليّة»[٢١].

يعتبر الإمام الخميني في هذا النصّ أن أغلب الكفّار قاصرون، أمّا عوامهم؛ فلأنّهم يتربّون منذ نعومة أظفارهم على تعليمات مذهبهم، فلا يحتملون خطأها، ثم يشبّههم بعوام المسلمين، حيث يقطعون بصحّة مذهبهم من غير انقداح خلافها في أذهانهم، لأجل التلقين والنشوء في محيط الإسلام، فهم معذورون في اعتقادهم كمعذوريّة عوام المسلمين.

وأما غير عوامهم فهم أيضاً ـ في الغالب ـ لا يحتملون بطلان مذهبهم، وصاروا جازمين به بحيث كلّ ما ورد على خلاف مذهبهم يردّونه بعقولهم المجبولة على خلاف الحقّ منذ نشوئها. نعم فيهم من يكون مقصّراً لكنّها ليست الحالة الغالبة.

يبدو أنّ الإمام الخميني في نصّه هذا ينطلق من ذهنيّة فلسفيّة عرفانيّة أكثر من كونها فقهيّة أو تفسيريّة؛ لأنّه كان يسلك مسلك الفلاسفة والعرفاء، وهم كثيراً ما يؤمنون بهذا الاتجاه كالشيخ البهائي حيث كان يرى الرأيَ نفسه، ويقول: إذا بحث شخصٌ ولم يقصّر بينه وبين الله، ثم أخطأ، فهو معذور حتى في الاعتقادات.

هذا الكلام بالنسبة إلى غير المسلم، فكيف بنا إذا دخلنا دائرة المؤمنين، إذا اختلفوا فيما بينهم نتيجةَ فضائهم الاجتماعيّ أو السياسي، أو نتيجةَ العناصر التربويّة أو اختلاف الأعراف أو غير ذلك؟ !

من وجهة نظر الاتجاه الأوّل علينا أن نستخدم لغة البهتان، ونَصِف المخالف بأهل الضلال وأهل الغواية، أمّا من وجهة نظر الاتجاه الثاني فعلينا أن نتفهّم الآخر ونحترمه. هذا لا يعني أن نقف مكتوفي الأيدي، لا نفعل شيئاً، بل لابدّ من الإصلاح، لكن

يجب أن نتعامل معه من منطلق الرحمة والعطف متفهّمينه، دون أن يغيب عن بالنا أنّنا بأنفسنا من الممكن أن نكون مخطئين.

حسب التعبير المنقول عن السيد الصدر: نحن اليوم نعيش في عصرٍ يعمّه الشكّ النوعي، فلو جاء شابّ وشكّ في الإسلام، فهذه حالة طبيعيّة في ظلّ الغزو الثقافي من أقصى العالم إلى أدناه، فمن الطبيعي أن يقوم الشباب بنقاشات في قضايا فكريّة أو فقهيّة. لذلك نرى السيد الصدر يقول ـ فيما ينقل عنه ـ: هل إذا ارتدّ أحدهم يقام عليه الحدّ؟ إنّنا في عصر شكّ، ولسنا في عصر وضوح البيّنة، فهناك بعض الأمور بيّنة، لكنّ أموراً أخرى ملتبسة غامضة في ظلّ تسارع وتائر الحياة الفكرية والثقافيّة وغيرها.

إنّنا نجد اليوم في جامعاتنا، العديد من التيّارات الفكريّة والثقافيّة المختلفة، فكيف نستطيع أن نكلّف الشباب بعدم الخطأ؟ نعم، هناك فرقٌ بين أن أتعايش مع الخطأ، بأن أقبله وأرضى به، وبين أن أتفهّمه وأسعى لإصلاحه متفهّماً له، هذان مفهومان مختلفان تماماً.

خلافاً للاتجاه الأوّل الذي كان يتمسّك برواية السبّ والبهتان، يتمسّك أصحاب هذا الاتجاه الثاني بالنصّ القرآني، الذي هو محور الاجتهاد وعليه تعرض النصوص الحديثيّة كما قلنا مطلع كلامنا هنا، حيث يؤصّل القرآن لمبدأ الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، كما في قوله تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ (الإسراء: ٢٨٢).

يمكن أن نضيف إلى ذلك، المبدأ الذي تكلّمنا عنه في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مبدأ «حمل الهمّ الديني بطريقة وَسطيّة» دون غضبٍ أو انفعال. فهذا ما أكّد عليه

القرآن الكريم أيضاً في أكثر من موضع، وهو في الحقيقة قاعدة استراتيجيّة عامّة لإدارة الخلاف في الأمّة.

ليس المهمّ ردّة الفعل نفسها، بل الأهمّ من ذلك كيف تكون ردّة الفعل هذه؟ ما هو الأسلوب الذي يكون أكثر تأثيراً؟ يرجّح أصحاب الاتجاه الأوّل أن يُبعَد الاختلاف عبرَ الضجيج والطرد، بينما الاتجاه الثاني يرى لزوم دراسة الموضوع بالتأنّي والسعي لوضع حلول أكثر منطقيّة.

المشاريع الكبرى، بدل المساجلات، طريقاً للحوار المذهبي

أوّل خطوة علينا أن نقوم بها هو أن لا نخشى من طرح الأفكار، ضمن سياسةٍ هادئةٍ متوازنةٍ، هذا لا يعني أن نرضى بالأخطاء أو نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل على العكس تماماً علينا أن نتشدّد جدّاً في موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكنّ هذا لا يعني أن نستخدم أسلوب القمع والطرد، بل علينا أن ندرس المسائل من جميع الزوايا، ونختار أفضل الحلول الممكنة، والتي منها العمل على المشاريع الكبرى.

وأعرّج هنا ـ لتقديم بعض الأمثلة ـ على ذكر أنموذجين من هذه المشاريع الكبرى التي قام بها علماء الإماميّة، للجواب عن الإشكاليّات التي وجّهت إليهم من طرف الآخر المذهبي، وهما مشروع السيّد محسن الأمين العاملي (١٩٥٢م)، والآغا بزرك الطهراني (١٩٧٠م)، ومشروع النهضة القرآنيّة بعد السيد عبدالحسين شرف الدين (١٣٧٧هـ).

الأنموذج الأوّل: مشروع السيد محسن الأمين والآغا بزرگ الطهراني

قبل ثمانين سنة تقريباً كتب شخصٌ من علماء السنّة في الهند كتاباً وجَّه فيه تهمةً إلى الشيعة بأنّهم لا مصنَّف لهم ولا مصنِّف، شبهة كانت تثار سابقاً وإلى يومنا هذا تلوكها

الألسن، ففكّر بعض العلماء في النجف، للردِّ على هذه التهمة.. لقد كان بإمكانهم الظهور إعلاميّاً للإنكار عليهم، لكن بدلاً من ذلك قرَّروا استخدام الردّ الاستراتيجي:

حيث تكفّل الآغا بزرگ الطهراني بتأليف كتابٍ يجمع فيه أسماء مؤلّفات الشيعة من القرن الهجري الأوّل، وربّما لا يوجد في تاريخ الشيعة كتاب أطول منه تأليفاً، حيث بقي في تأليفه حوالي خمسين عاماً، كتابٌ سمّاه بـ «الذريعة إلى تصانيف الشيعة»، وهو أكبر كتاب يجمع أسماء كتب الشيعة (عشرات الآلاف)، وليس فقط أسماءها، بل يتحدّث أحياناً عن مخطوطاتها، وعلى سبيل المثال يقول: «وقد رأيت مخطوطة هذا الكتاب في مكتبة كذا».

لقد بذل جهوداً مضنيةً لتأليف هذا المشروع وسافر إلى مختلف بقاع الأرض، إلى الهند ومكّة والمدينة والعراق وإيران ليحصل على نسخ مخطوطات، وكان يجلس أحياناً في مكتبات الهند لأيّام وليالي فقط ليسجّل كلّ كتاب يرى أوّله ويرى آخره، لم يكن يستطيع أن يطبع الكتب؛ لأنّه يحتاج إلى أموال كثيرة وهو لم يكن مدعوماً من قبل الدولة أو.. وإنّما كان لوحده مع اثنين أو ثلاثة ممّن يعاونونه.

هل يجرؤ أحد اليوم بعد وجود هذا الكتاب الذي أعطى جواباً استراتيجيّاً بعيد المدى أن يقول: لا توجد مؤلّفات للشيعة أو..؟

أمّا السيد محسن الأمين، فألَّف كتاب «أعيان الشيعة»، وبقي فيه سنينَ طويلة، ورحل إلى مختلف البقاع، وجمع فيه سيرة وأسماء عشرات الآلاف من علماء الشيعة من القرن الأوّل حتى وفاته عام ١٩٥٢م.

هذه أجوبه استراتيجيّة بعيدة المدى، ونحن اليوم بحاجة لمثل هذه المشاريع، ليس فقط مشاريع تعليقيّة بأن نعلّق على ما حصل، بل مشاريع من هذا القبيل تستطيع أن تُثبت وجودنا.

الأنموذج الثاني: مشروع النهضة القرآنية بعد السيد عبد الحسين شرف الدين

هناك تهمة أخرى يوجِّهها السنّة إلى الشيعة بالنسبة إلى القرآن الكريم، بأنّهم لا يهتمّون بالقرآن ويقولون بتحريفه ولا يقرؤونه ولا يحفظونه، والسيد شرف الدين في كتابه «أجوبة مسائل موسى جار الله» ردّ على هذه الشبهة، محاولاً جمع أسماء بعض قرّاء القرآن من الشيعة المعروفين في العالم.

أمّا اليوم، فالسيد عبد الحسين شرف الدين ليس حيّاً ليرى عشرات الآلاف من حفّاظ القرآن في المشاريع الرائعة التي أُطلقت ببركة الجمهوريّة الإسلاميّة في إيران، وهذا جوابٌ عمليّ عن هذه الشبهة بأنّ الشيعة لا يهتمّون بالقرآن، حيث نجد خلال الستين أو السبعين سنة الأخيرة، عشرات الآلاف من حفّاظ القرآن وعشرات الآلاف من البرامج القرآنيّة ومئات من التفاسير الجديدة.

هذا النوع من الأجوبة العمليّة الدامغة أفضل بكثير من الادّعاءات أو الاتّهامات المتبادلة، عندما أقوم بتعريف نفسي للآخرين بطريقةٍ من هذا النوع، أستطيع أن أملك السّاحة على المدى البعيد.

كلمة أخيرة

نحن اليوم في لحظة تاريخيّة حَرِجة، حيث خرجنا من مرحلة الضعف إلى مرحلة القوّة، لكن ليس الخروج من مرحلة الضعف إلى مرحلة القوّة نهاية المشوار، وإنّما هي بدايته، هذا الخروج يضاعف المسؤولية على الإنسان. عندما نكون ضعافاً سنكون أقرب إلى الله ـ كما ذكر القرآن الكريم في قضيّة السفينة[٢٢] ـ ولكنّه عندما نخرج من الضعف نبتعد عن الله؛ لأنّ هناك عناصر دنيويّة تتدخّل في حياتنا وتبعدنا عن الله، وهذا هو الإنسان كما شرحه لنا القرآن الكريم.

ورد في قصّة موسى وبني إسرائيل،

أنّهم قالوا لنبيّهم موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).

﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هي مركز التحدّي والمسؤوليّة، سوف تدور الدائرة لكم وستملكون حرّية العمل، والقدرة، لنرى ماذا سيفعل بنو إسرائيل؟

نحن اليوم في مرحلة عزّة وقوّة وهيبة في العالم، نحن اليوم مطالبون بقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فعلينا أن نعي هذه اللحظة التاريخيّة، ونعرف كيف نعمل، ونبتعد عن الانفعالات والعصبيّات؛ لنقدّم تجربةً فريدة للعالم في كيفيّة تعاملنا مع بعضنا وإدارة اختلافنا، يمكن لها أن تكون أنموذجاً حيّاً إن شاء الله تعالى.

الهوامش:

[١] أُلقيت هذه المحاضرة في جامعة الزهراء في إيران، بتاريخ: ٢١ ـ ٤ ـ ٢٠١٣م، وقد قام الشيخ سعيد نورا بتقريرها وتحريرها، ثم راجعها المحاضرُ (الشيخ حبّ الله)، مجرياً عليها بعض التعديلات والتوضيحات.

[٢] راجع: حيدر حب الله، دراسات في الفقه الإسلامي المعاصر ٥: ٧ ـ ١٨٥، بحث (المدخل إلى الفقه القرآني).

[٣] الكليني، الكافي ١: ٦٩.

[٤] المصدر نفسه.

[٥] المصدر نفسه.

[٦] راجع: حيدر حبّ الله، حجيّة الحديث: ٢٧٩ ـ ٢١٣.

[٧] انظر ـ على سبيل المثال ـ: لطف الله الصافي، بيان الأصول ١: ٥١١، قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.

[٨] محمد تقي الحكيم، الأصول العامة في الفقه المقارن: ٣٥٤، قم، إيران، الطبعة الثانيّة، ١٤١٨هـ.

[٩] والسند هو: علي بن إبراهيم، عن إسماعيل بن محمد المكي، عن علي بن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن الحسين بن خالد، عمّن ذكره.

[١٠] النوبُ والنُوبَةُ أيضاً: جيلٌ من السودان، الواحد نُوبيّ (إسماعيل بن حمّاد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ١: ٢٢٩، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ).

[١١] الكافي ٥: ٣٥٢.

[١٢] محمّد باقر الصدر، بحوث في علم الأصول ٧: ٣٣٤، بقلم: محمود الهاشمي، قم، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ.

[١٣] والسند هو: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن إسماعيل بن مرار، عن يونس، عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام.

[١٤] الكافي ٤: ٧٤.

[١٥] الصدر، بحوث في علم الأصول ٧: ٣٣٤.

[١٦] محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، لسان العرب ٨: ٣٥٢، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

[١٧] أحمد بن محمد الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ٢: ٦٠٠، منشورات دار الرضي، قم، إيران، الطبعة الأولى.

[١٨] محبّ الدين الواسطي الزبيدي الحنفي، السيد محمّد مرتضى الحسيني، تاج العروس من جواهر القاموس ١١: ٤٧٦، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

[١٩] كذلك وردت هذه القصة في سورة الأعراف، حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاَثِينَ لَيْلَةً وأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وأَصْلِحْ ولاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ولَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي ولَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ واتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ ولاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وكَانُوا ظَالِمِينَ ولَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ ورَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا ويَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ولَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ ولاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي ولِأَخِي وأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأعراف: ١٤٢ ـ ١٥١).

[٢٠] الكافي ٢: ٣٧٥.

[٢١] روح الله الخميني، المكاسب المحرّمة ١: ٢٠٠ ـ ٢٠١، قم، إيران، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

[٢٢] وهي ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ (الإسراء: ٦٧)، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام: ٦٣).

أ. عباس ذهيبات
باحث وأكاديمي/ العراق

البناء النفسي للعقيدة

إنَّ لكلِّ عقيدة أثرا في نفس صاحبها، يدفعه إلى نوع من الأعمال والتصرفات، ولقد كانت لعقيدة الإيمان باللّه في المسلمين آثار في النفس عميقة، كان لها نتائجها العملية في الحياة العامة، يمكن الإشارة إليها ـ إجمالاً ـ في النقاط التالية: ـ

أولاً: طمأنينة النفس: _____

إنّ الإنسان المتدين يجد في العقيدة اطمئنانا على الرغم من عواصف الأحداث من حوله، فهي تدفع عنه القلق والتوتر، وتخلق له أجواء نفسية مفعمة بالطمأنينة والأمل، حتى ولو كان يعيش في بيئة غير مستقرة أو خطرة.

وتاريخ الإسلام يحدثنا بما لا يحصى من مصاديق ذلك، فعلى الرغم من ان المسلمين الأوائل كانوا يعيشون ظروفا صعبة، حيثُ الحروب المتوالية التي أثارتها قريش وحلفاؤها، وما صاحبها من مقاطعة اقتصادية وعزلة اجتماعية وضغوط نفسية، إلاّ أنّهم كانوا يتمتعون بمعنوية عالية، ويندفعون للقتال بنفس مطمئنة إلى ثواب اللّه ورحمته.

عن أنس أنّ رسول اللّه ﷺ قال يوم بدر: «**قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض، فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنّة عرضها السّماوات والأرض؟ ! قال: نعم، قال: بخ بخ ! لا والله يا رسول الله، لا بدَّ أن أكون من أهلها، قال: فإنّك من أهلها**»، فأخرج تميرات من قرنه فجعل يأكل منهنَّ، ثم قال: لئن حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها حياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثمّ قاتل حتى قتل.

فالبيئة التي يتواجد فيها هذا المجاهد كانت خطرة، فهو يعيش أجواء حرب بدر، ولكن بيئته النفسية كانت سعيدة، حيثُ يأمل العيش في جنّة عرضها السماوات والأرض فالمسلم بفضل عقيدة الإيمان باللّه تعالى يشعر بالرضا والاطمئنان بما يقع في محيطه من أحداث، ويوطّن نفسه على قضاء اللّه وقدره، فالمصيبة التي تصيبه في حاضره، قد تتحول إلى بَرَكة، والقرآن الكريم يُنمّي هذا الاحساس في نفس المؤمن قال تعالى: ﴿.. **وعَسى أن تكرهُوا شيئا وهو خيرٌ لكُم وعسى أن تُحبُّوا شيئا وهو شرٌّ لكُم والله يعلمُ وأنتم لا تعلمونَ**﴾.

وأحاديث أهل البيت عليهم السلام تعمّق هذا الشعور في نفوس المسلمين، فقد بعث أمير المؤمنين عليه السلام كتابا إلى ابن عباس، وكان ابن عباس يقول: ما انتفعت بكلام بعد كلام رسول اللّه ﷺ كانتفاعي بهذا الكلام: «**أمّا بعد، فإنّ المرء قد يسرّه درك ما لم يكن ليفوته، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه، فليكن سرورك بما نلت من آخرتك، وليكن أسفك على ما فاتك منها**».

صحيح أنّ الإنسان العادي بطبعه يمتلكه اليأس والقنوط عند المصائب، كما أشار القرآن صراحة لذلك بقوله: ﴿**... وإن مسَّهُ الشرُّ فيئُوسٌ قنُوطٌ**﴾.. ﴿**ولئن أذقنا الإنسانَ مِنَّا رحمةً ثمَّ نزعناها منهُ إنَّهُ ليئوسٌ كفورٌ**﴾، ولكن الإنسان المؤمن

المتسلح بالعقيدة وقور عند الشدائد، صبور عند النوازل، لا يتسرب الشك إلى نفسه: ﴿.. **لا ييئسُ من رَوحِ الله إلاّ القومُ الكافِرُونَ**﴾.

يصف مولى الموحدين عليه السلام أولياء اللّه فيقول: «.. **وإن صُبّت عليهم المصائب لجؤوا إلى الاستجارة بك، علما بأنّ أزمّة الأُمور بيدك، ومصادرها عن قضائك**».

والملاحظ أنّه في الوقت الذي يركّز فيه أمير المؤمنين عليه السلام في توصياته على عدم اليأس من رَوح اللّه، فإنّه يؤكد في تعاليمه التربوية العالية على اليأس عما في أيدي الناس، لكي يكون الإنسان متكلاً على ربّه، ولا يكون كلاًّ على غيره، يقول عليه السلام: «**الغنى الأكبر اليأس عمّا في أيدي الناس**».

أساليب العقيدة في مواجهة المصائب:

ضمن هذا السياق، تخفف العقيدة في نفوس معتنقيها من الضغوط والأزمات النفسية التي يتعرضون لها، فتصبح ضعيفة الأثر والأهمية، ضمن أساليب عديدة، منها:

أ ـ بيان طبيعة الحياة الدنيا التي يعيش فيها الإنسان: وهذه المعرفة سوف تظهر بصماتها واضحة في وعيه وسلوكه، فالعقيدة من خلال مصادرها المعرفية تبين طبيعة الدنيا وتدعوا إلى الزهد فيها.

يقول الإمام علي عليه السلام: «**أيُّها الناس، انظروا إلى الدنيا نظر الزاهدين فيها، الصادفين عنها، فإنَّها عما قليل تُزيلُ الثاوي الساكن، وتفجعُ المترف الآمن.. سرورها مشوب بالحزن..**».

وقال أيضا:... «**وأُحذركم الدنيا، فإنّها دارُ شخوص، ومحلَّةُ تنغيص، ساكنها ضاعن، وقاطنها بائن، تميدُ بأهلها مَيَدان السفينة..**».

وكان من الطبيعي والحال هذه أن تحذّر العقيدة من التعلق بأسباب الدنيا الفانية الذي ينتج آثارا سلبية تنعكس على نفس المسلم، فعن علقمة، عن

عبداللّه، قال: نام رسول اللّه ﷺ على حصير فقام وقد أثّر في جنبه، فقُلنا: يا رسول اللّه، لو اتخذنا لك وطاءً؟ فقال ﷺ: «**ما لي وللدُّنيا، ما أنا في الدنيا إلاّ كراكب استظل تحت شجرة ثمَّ راحَ وتركها**»

ويقول وصيه الإمام علي عليه السلام: «**وأُحذركُم الدنيا فإنّها منزلُ قُلعة، وليست بدار نُجعة، قد تزيّنت بغُرورها، وغرَّت بزينتها، دارُها هانت على ربِّها، فخلط حلالها بحرامها، وخيرها بشرها وحياتها بموتها، وحلوها بمُرِّها لم يُصفها الله تعالى لأوليائه، ولم يضنَّ بها على أعدائه، خيرُها زهيد وشرُّها عتيد. وجمعها ينفدُ، ومُلكها يُسلب، وعامرُها يخربُ. فما خيرُ دار تنقضُ نقضَ البناء، وعُمر يفنى فيها فناء الزَّاد، ومُدَّةٍ تنقطعُ انقطاع السير..**».

يقول الشيخ الديلمي: ما عبر أحد عن الدنيا كما عبر أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**دارٌ بالبلاءِ محفوفة، وبالغدر معروفة، لا تدوم أحوالها، ولا تسلم نزالها، أحوالها مختلفة، وتارات متصرفة، والعيش فيها مذموم، والأمان فيها معدوم، وإنّما أهلها فيها أغراض مستهدفة، ترميهم بسهامها، وتفنيهم بحمامها...**».

وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الادراك العميق للدنيا إلى حذر شديد منها، ويكفينا الاستدلال على ذلك: سأل معاوية ضرار بن ضمرة الشيباني عن أمير المؤمنين عليه السلام، فقال: أشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه، قابض على لحيته، يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: «**يا دنيا ! يا دنيا ! ! إليك عني، أبيَّ تعرّضتِ؟ ! أم إليَّ تشوّقتِ؟ ! لا حان حينك، هيهات غرّي غيري، لا حاجة لي فيك، قد طلّقتك ثلاثا، لا رجعة فيها، فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير، آه من قلّة الزّاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد**».

ومن جملة تلك الشواهد، نجد أنّ العقيدة تكشف طبيعة الدنيا وعاقبة من ينخدع بها أو يركن اليها، وتبين قصور رؤية من ينشد الراحة التامة فيها، عن الصادق عليه السلام أنّه قال لأصحابه: «**لا تتمنّوا المستحيل، قالوا: ومن يتمنى المستحيل؟ ! فقال عليه السلام: أنتم، ألستم تمنّون الراحة في الدّنيا؟ قالوا: بلى، فقال عليه السلام: الرّاحة للمؤمن في الدنيا مستحيلة**».

ب ـ إنّ المصائب تستتبع أجرا وثوابا: الأمر الذي يخفف من وقع المصائب على الإنسان، فيواجهها بقلب صامد، ونفس مطمئنة إلى ثواب اللّه ورحمته، فلا تترك في نفسه أثرا أكثر مما تتركه فقاعة على سطح الماء.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**المصائب مفاتيح الأجر**».

وكتب رجلٌ إلى أبي جعفر عليه السلام يشكو إليه مصابه بولده، فكتب إليه عليه السلام: «**أما علمت أنّ الله يختار من مال المؤمن ومن ولده ونفسه ليأجره على ذلك**».

جـ ـ إلفات نظر المسلم إلى المصيبة العظمى: وهي مصيبته في دينه، مما يهوّن ويصغّر في نفسه المصائب الدنيوية الصغيرة، وهي حالة امتصاص بارعة للضغوط النفسية تقوم بها العقيدة، ويحتل هذا التوجه مركز الصدارة في سيرة أهل البيت التربوية، روي أنّه رأى الصادق عليه السلام رجلاً قد اشتدّ جزعه على ولده، فقال عليه السلام: «**يا هذا جزعت للمصيبة الصغرى، وغفلت عن المصيبة الكبرى، لو كنت لما صار إليه ولدك مستعدّا لما اشتد عليه جزعك، فمصابك بتركك الاستعداد له، أعظم من مصابك بولدك**».

وكان أبو عبداللّه عليه السلام يقول عند المصيبة: «**الحمدُ لله الذي لم يجعل مصيبتي في ديني، والحمدُ لله الذي لو شاء أن يجعل مصيبتي أعظم ممّا كانت، والحمدُ لله على الأمر الذي شاء أن يكون فكان**».

من جميع ما تقدم، نخلص إلى أنّ العقيدة تصوغ نفوسا قوية مطمئنة، تواجه عواصف الأحداث بقلب صامد ومطمئن إلى قضاء اللّه وقدره، وترسم العقيدة للإنسان خطّ سيره التكاملي، وعليه فالإنسان بلا عقيدة كالسفينة بلا بوصلة، سرعان ما تصطدم بصخور الشاطئ فتتحطم.

ثانيا: تحرير النفس من المخاوف:

مما لا شكَّ فيه، أنّ الخوف يبدد نشاط الفرد، ويُشل طاقته الفكرية والجسمية، وكان الإنسانُ الجاهلي في خوف دائم من أخيه الإنسان ودسائسه، ومن الطبيعة المحيطة به وكوارثها، ومن الموت الذي لا سبيل له إلى دفعه، ومن الفقر والجدب، ومن المرض وما يرافقه من آلام، وتخفف العقيدة من وطأة الاحساس بتلك المخاوف التي تشلُّ طاقة الإنسان عن الحركة والانتاج، وتجعله غرضا للهموم والهواجس.

الموت تحفة !

ينبّه القرآن الكريم إلى حقيقة أزلية، على الإنسان أن يوطّن نفسه عليها، وهي: ﴿**كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ**﴾.

وعليه فلا بدَّ مما ليس منه بد، والموت لا بدَّ أن يدرك الحي يوما ما، كما أدرك مَنْ قبله، وهو شيء لا عاصم منه.. قال تعالى: ﴿**أينما تكُونوا يُدرككُم الموتُ ولو كُنتُم في بُروجٍ مشيَّدة..**﴾. وقال: ﴿**قُلْ لَّن ينفعكُم الفرارُ إن فررتُم من الموتِ..**﴾

فالقرآن ـ إذن ـ يؤكد أنّ الموت لا بدَّ منه، ثم أنّه أمرٌ منوط بإذن اللّه تعالى وليس بيد غيره، وهذه حقيقة لها انعكاسات إيحائية على نفس الإنسان، بأنَّ أي قوة أرضية أو سماوية لا تستطيع ـ مهما أُوتيت من قوة ـ أن تسلب الحياة عن الإنسان قال تعالى: ﴿**ما كان لنفسٍ أن تموتَ إلاَّ بإذن الله كتابا مُؤجَّلاً..**﴾.

ولقد بيّن القرآن الكريم زيفَ مزاعم اليهود الذين كانوا مع حرصهم الشديد على الحياة يتصورون أنهم أولياء اللّه دون غيرهم، فكشف عن زيف مزاعمهم بهذا التحدّي الذي يخاطب دفائن النفوس، ذلك أنَّ المؤمن باللّه حقا لا يخشى الموت إذا حلَّ بساحته، فالموت هو انتقال من دار فانية إلى دار باقية، واليهود بما يمتازون به من نزعة مادية طاغية، يخشون الموت ويتشبثون بالحياة، ومن هنا واجههم القرآن الكريم بهذا التحدي البليغ قال تعالى: ﴿**قُل يأيُّها الَّذين هادُوآا إن زعمتم أنّكُم أولياءُ لله من دُونِ النّاسِ فتَمنَّوا الموتَ إن كنتم صادقين * ولا يتمنَّونه أبدا بما قدَّمت أيديهم والله عليمٌ بالظالمين**﴾.

ويقول الإمام علي عليه السلام: «... **فما ينجو من الموت من خافه، ولا يعطى البقاء من أحبّه**». والمثير في الأمر أنّ العقيدة في الوقت الذي تخفف من خوف الإنسان من الموت، تصوّر الموت للمؤمن كأنه تحفة ! ينبغي الإقدام عليه، وفي ذلك يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**تحفة المؤمن الموت**» وإنّما قال هذا لأنَّ الدنيا سجن المؤمن، إذ لا يزال فيها في عناء من رياضة نفسه ومقاساة شهواته ومدافعة الشيطان، فالموت إطلاق له من العذاب، والإطلاق تحفة في حقّه لما يصل إليه من النعيم الدائم.

وقال الإمام أبو عبداللّه الحسين عليه السلام لأصحابه يوم عاشوراء: «صبرا يا كرام ! فما الموت إلاّ قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضّراء إلى الجنان الواسعة والنّعيم الدائم، **فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر؟..**».

من جانب آخر، تدعو مدرسة آل البيت عليهم السلام إلى ضرورة معرفة الموت، فإنّ معرفة الشيء قد تبدّد المخاوف منه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**إذا هبت أمرا فقع فيه، فإنَّ شدَّة توقّيه أعظم مما تخاف منه**»، وقد روي عن

الإمام علي بن محمد الهادي عليه السلام أنّه قال لمريض من أصحابه، عندما دخل عليه فوجده يبكي جزعا من الموت: «**يا عبد الله، تخاف من الموت لأنّك لا تعرفه، أرأيتك إذا اتسخت وتقذّرت، وتأذيّت من كثرة القذر والوسخ عليك، وأصابك قروح وجرب، وعلمت أنّ الغسل في حمام يزيل ذلك كلّه، أما تريد أن تدخله، فتغسل ذلك عنك أو تكره أن تدخله فيبقى ذلك عليك؟ قال: بلى يا ابن رسول الله، قال** عليه السلام: **فذاك الموت هو ذلك الحمام، وهو آخر ما بقي عليك من تمحيص ذنوبك، وتنقيتك من سيئاتك، فإذا أنت وردت عليه وجاوزته، فقد نجوت من كلِّ غمٍّ وهمٍّ وأذى، ووصلت إلى كلِّ سرور وفرح**»، فسكن الرجل واستسلم ونشط، وغمض عين نفسه، ومضى لسبيله.

ضمن هذا الاطار، قيل للإمام الصادق عليه السلام: صف لنا الموت، قال عليه السلام: «**للمؤمن كأطيب ريح يشمّه، فينعس لطيبه، وينقطع التّعب والألم كلّه عنه، وللكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشدّ..**».

هكذا تقدم العقيدة إشعاعا من الأمن يخفف من وطأة الموت، فإنّه للمؤمن تحفة وراحة. قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**شيئان يكرهما ابن آدم: يكره الموت فالموت راحة للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال وقلة المال أقل للحساب**».

والأئمة عليهم السلام يؤكدون على الاكثار من ذكر الموت، لما فيه من آثار تربوية قيّمة، فهو يميت الشهوات في النفس، ويهوّن مصائب الدنيا التي تعصف بالإنسان مثل ريح السموم، يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**أكثروا من ذكر الموت فإنّه يمحّص الذنوب، ويزهّد في الدنيا**».

ويقول الإمام علي عليه السلام: «**أكثروا ذكر الموت، ويوم خروجكم من القبور، وقيامكم بين يدي الله عزَّ وجل تهون عليكم المصائب**».

ومن وصايا أمير المؤمنين لابنه

الحسن عليه السلام: «**يا بُنيَّ أكثر من ذكر الموت، وذكر ما تهجُمُ عليه، وتُفضي بعد الموت إليه، حتى يأتيك وقد أخذت منه حذرك، وشددت له أزرك، ولا يأتيك بغتة فيبهرك**». وقال عليه السلام أيضا: «**من أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير**».

ونعود لنقول إنّ العقيدة تحرر النفوس من شبح الخوف من الموت من خلال التأكيد على أنّه حقيقة لا بدَّ منها، يجب التسليم بها، والتسالم معها عبر معرفة حقيقة الموت، وأنّه للمؤمن راحة، وبدلاً من نسيانه أو تناسيه، يجب أن نديم ذكره لما في ذلك من معطيات إيجابية قد أشرنا إليها فيما سبق.

الرّزق مضمون لطالبه:

هناك خوف ينتاب الإنسان، وينغّص عليه حياته، وهو الخوف من الفقر، لكن العقيدة تبدد هذا الخوف من خلال التأكيد على حقيقة واضحة كالشمس في رابعة النهار، وهي أنّ مقادير الرزق بيد اللّه تعالى، وقد ضمنها لعباده، وعليه فلا مبرّر لهذه المخاوف، ومن يقرأ القرآن يجد آيات كثيرة، تحثُّ على إزالة أسباب الخوف من الفقر التي أدّت بالجاهلي إلى قتل أبنائه قال تعالى: ﴿**إنَّ الله هوَ الرّزَّاقُ ذو القوّةِ المتينُ**﴾. وقال تعالى: ﴿**ولا تقتُلُوا أولادَكُم خَشيةَ إملاقٍ نحنُ نرزُقُهُم وإياكُم**﴾.

وجاءت أحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وآل بيته الأطهار عليهم السلام على هذا المنوال، قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**أبواب الجنة مفتَّحة على الفقراء والمساكين، والرحمة نازلة على الرحماء، والله راضٍ عن الأسخياء**».

ويقول وصيه الإمام علي عليه السلام: «.. **عياله الخلائق، ضمن أرزاقهم، وقدّر أقواتهم..**».

من جهة أُخرى، قاموا بتصحيح مفهوم الناس عن الرّزق، صحيح أنّ اللّه تعالى قد ضمن أرزاق عباده، ولكن لا يعني ذلك أنّه يشجعهم على التواكل

والكسل، والقعود والابتعاد عن العمل، وإنّما ربط تعالى تحصيل الرزق بشرط السعي والطلب، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**اطلبوا الرّزق فإنّه مضمون لطالبه**».

وكان أمير المؤمنين عليه السلام يضرب بالمرّ ــ أي المسحاة ــ ويستخرج الأرضين، وأنّه أعتق ألف مملوك من كدِّ يده.

وكان عليه السلام يسقي بيده لنخل قوم من يهود المدينة حتى كلّت يده، ويتصدّق بالأجر، ويشدّ على بطنه حجرا.

فلم يكن من عمله الشاق هذا، حريصا على جمع المال لذاته، فالإمام علي عليه السلام لا تغرّه بيضاء ولا صفراء، بل كان يطلب الرّزق الحلال من حِلِّه وينفقه في محله.

«ولما كانت النفوس مشغوفة بالمال، مولعة بجمعه واكتنازه، فحريٌّ بالمؤمن الواعي المستنير، أن لا ينخدع ببريقه، ويغتر بمفاتنه، وأن يتعظ بحرمان المغرورين به، والحريصين عليه، من كسب المثوبة في الآخرة، وإفلاسهم مما زاد عن حاجاتهم وكفافهم في الدنيا، فإنّهم خزّان أمناء، يكدحون ويشقون في ادّخاره ثم يخلّفونه طعمة سائغة للوارثين، فيكون عليهم الوزر ولأبنائهم المهنى والاغتباط».

هكذا تستأصل العقيدة من النفوس جذور الخوف من الفقر، وتجعله يسعى بكلِّ اطمئنان لضمان متطلبات عيشه الكريم.

المرض يمحو الذنب.. ويستدعي الثواب !

من جانب آخر لطّفت العقيدة من مخاوف الإنسان الدائمة من المرض من خلال التأكيد على حقيقة بديهية، هي إنّ كلَّ جسم معرّض للسقم، يقول الإمام علي عليه السلام: «**لا ينبغي للعبد أن يثق بخصلتين: العافية والغنى. بينما تراهُ معافى إذ سقم، وبينما تراهُ غنيا إذْ افتقر**».

كما أكدت على أنّ المرض يسقط الذنب، يقول الإمام السجاد عليه السلام: «**إنَّ المؤمن إذا حمَّ حمى واحدة، تناثرت الذُّنوب منه كورق الشجر..**». وعن أبي عبداللّه عليه السلام قال: «صداع ليلة يحطُّ كلُّ خطيئة إلاّ الكبائر».

وإضافة لذلك فإنّ فيه الثواب الجزيل ما يخفّف من وطأته على النفوس، يقول الرسول صلى الله عليه وآله: «**عجبتُ من المؤمن وجزعه من السقم، ولو يعلم ما له في السُّقم من الثواب، لأحبّ أن لا يزال سقيما حتى يلقى ربّه عزَّ وجل**».

ويحدّد الإمام الرضا عليه السلام فلسفة المرض بقوله: «**المرض للمؤمن تطهير ورحمة، وللكافر تعذيب ولعنة، وإنَّ المرض لا يزال بالمؤمن حتى لا يكون عليه ذنب**».

ونعود لنقول بأنَّ اللّه لم يجعل المرض عبثا، بل جعله وسيلةً لامتحان الإنسان ومعرفة صبره على النوازل، لذلك امتحن به أنبياءه والصالحين من عباده، فأيوب عليه السلام ـ كما هو معروف ـ كان ابتلاؤه في جسده: (ولم يبقَ منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر اللّه عزَّ وجل بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكر للّه في ليله ونهاره وصباحه ومسائه، وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأُخرج من بلده، وانقطع عنه الناس، ولم يبقَ أحد يحنو عليه سوى زوجته التي كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها.. ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلاّ صبرا واحتسابا وحمدا وشكرا، حتى إنّ المثل ليضرب بصبره). فكان نتيجة هذا الصبر والاحتساب أن ردَّ اللّه تعالى إليه كلّ ما أخذ منه كرما وإحسانا.

والعقيدة في الوقت الذي تأمر المسلم بالتزام الصبر، تنصحه بعدم الشكوى من المرض، فالشكوى تعني ضمن ما تعنيه، اتّهام اللّه تعالى في قضائه، كما أنّها تحطّ من قدر الإنسان في نظر الناس، وتبعث على الشماتة به

أو الـتهكم عليه، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**كان لي فيما مضى أخ في الله، وكان يعظّمه في عيني صغر الدّنيا في عينه.. وكان لا يشكو وجعا إلاّ عند بُرئه..**».

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنّ العقيدة في الوقت الذي تبدّد غيوم المخاوف في نفس الإنسان، تنمّي فيه شعور الخوف من اللّه تعالى وحده باعتباره السبيل للتحرّز من جميع المخاوف، وتحذّر من عصيانه، وتلوّح بشدّة انتقامه، والقرآن الكريم في آيات كثيرة يعمّق من شعور النفس بالخوف من اللّه تعالى، منها: ﴿**قُل إنّي أخافُ إن عصَيتُ ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ**﴾. وقال تعالى: ﴿**وأمّا من خافَ مقامَ ربِّهِ ونهى النَّفسَ عَنِ الهوى * فإنَّ الجنَّة هي المأوى**﴾.

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله: «**ما سلط الله على ابن آدم إلاّ من خافه ابن آدم، ولو أنّ ابن آدم لم يخف إلاّ الله ما سلّط الله عليه غيره..**».

وقال صلى الله عليه وآله أيضا: «**طوبى لمن شغله خوف الله عن خوف الناس**».

وبطبيعة الحال إنّ لهذا النوع من الخوف آثارا تربوية مهمة تعود لصالح الفرد، وفي هذا الصدد، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا**».

وتترتب عليه آثار اجتماعية أيضا حيثُ إنّه يدفع الفرد إلى مدِّ يدِّ العون إلى الآخرين، قال تعالى: ﴿**ويُطعمونَ الطعامَ على حُبّهِ مسكِينا ويتِيما وأسيرا * إنَّما نُطعمكُم لوجهِ الله لا نُريدُ منكُم جزآءً ولا شُكورا * إنّا نخافُ مِنْ ربّنا يوما عبُوسا قمطريرا**﴾.

وصفوة القول، لقد غيرت العقيدة النفوس، وفتحت لها آفاقا واسعة بتحريرها من مخاوفها، كما أوصلت حبلها بخالقها، وأشعرتها بنعمائه، وخوفتها من أليم عقابه.

ثالثا: معرفة النفس

من معطيات العقيدة، أنها تدفع الإنسان المسلم إلى معرفة نفسه، فلا يمكن السمو بالنفس دون معرفة طبيعتها، وهذه المعرفة هي خطوة أولية للسيطرة عليها وكبح جماحها، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «.. **لا معرفة كمعرفتك بنفسك..**».

ثم إنَّ هناك علاقة ترابطية وثيقة بين معرفة اللّه ومعرفة النفس، فمن خلال معرفة الإنسان لنفسه وطبيعتها وقواها، يستطيع التعرف على خالقها ويُقدّر عظمته، ففي الحديث الشريف: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه وبالمقابل فإنّ نسيان الله تعالى يؤول إلى نسيان النفس: ﴿ولا تكُونُوا كالَّذينَ نسُوا اللهَ فأنساهُم أنفُسَهُم..﴾**».

دور العقيدة في تعريف الإنسان بنفسه:

مما لا شكّ فيه أنّ العقيدة ـ عبر مصادرها المعرفية ورموزها ـ قامت بدور كبير في الكشف عن طبيعة النفس، وشخّصت بدّقة متناهية أمراضها والآثار الناجمة عنها.

فالقرآن الكريم يقرُّ صراحة بأنّ النفس أمارة بالسوء: ﴿**وما أُبرّئُ نفسي إنَّ النفسَ لأمَّارةٌ بالسُّوءِ إلاَّ ما رحمَ ربي..**﴾.

كما يقرُّ القرآن أيضا، بأنّ النفس شحيحة قال تعالى: ﴿**.. وأُحضرتِ الأنفسُ الشُّحّ..**﴾، وقال: ﴿**.. من يُوقَ شُحَّ نفسهِ فأُولئكَ هُمُ المُفلحُون**﴾.

وهناك طائفة من الأحاديث تسلط الضوء على طبيعة النفس، وتقدّم الرؤية العلاجية لأمراضها، منها: ما كتبه الإمام علي عليه السلام إلى الاشتر النخعي لمّا ولاّه مصر، وجاء فيه: «.. **وأمرهُ أن يكسر نفسهُ من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإنَّ النفس أمّارة بالسَّوءِ، إلاّ ما رحم الله..**».

ومن خطبة له عليه السلام ضمّنها مواعظ للناس، جاء فيها: «.. نستعينه من هذه النّفوس البطاء عمَّا أُمرت به،

السِّراع إلى ما نُهيت عنه..».

ويقول عليه السلام أيضا: «**النفس مجبولة على سوء الأدب، والعبدُ مأمور بملازمة حسن الأدب، والنّفس تجري بطبعها في ميدان المخالفة، والعبدُ يجهد بردّها عن سوء المطالبة، فمتى أطلق عنانها فهو شريك في فسادها، ومن أعان نفسه في هوى نفسه فقد أشرك نفسه في قتل نفسه**».

على هذا الصعيد لا بدَّ من الاشارة إلى أنّ الأمراض النفسية إذا لم تُعالج، فإنّها قد تؤدي إلى عواقب وخيمة، فعلى سبيل الاستشهاد نجد أنّ الفتنة الكبرى التي حصلت للمسلمين في السقيفة، عندما أُقصيت القيادة الشرعية عن مركز القرار، كانت جذورها نفسية، ويكفينا الاستدلال على ذلك بكلام أمير المؤمنين عليه السلام لبعض أصحابه وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقُّ به؟ فقال عليه السلام: «**... أمّا الاستبداد علينا بهذا المقام ونحن الأعلون نسبا، والأشدّون برسول الله صلى الله عليه وآله نوطا، فإنها كانت أثَرَة شحّت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، والحَكَم الله**».

فالشحُّ الكامن في نفوس البعض كان السبب الأساس في أول وأعظم انحراف شهدته المسيرة الإسلامية بعد ساعات قليلة من رحيل الرسول صلى الله عليه وآله. لذلك كان أئمة أهل البيت عليهم السلام مع عصمتهم المحققة، يلجؤون إلى اللّه تعالى بالدعاء لكي يقيهم هذا المرض النفسي الخطير، فعن الفضل بن أبي قرة قال: رأيت أبا عبداللّه عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو يقول: «**اللهمَّ قني شحَّ نفسي**، فقلتُ: جعلتُ فداك ما سمعتك تدعو بغير هذا الدعاء؟ قال عليه السلام: **وأيُّ شيءٍ أشدُّ من شُح النفس**، إن اللّه يقول: ﴿**ومن يوقَ شُحَّ نفسهِ فأُولئكَ هُمُ المُفلِحُونَ**﴾».

رابعا: السيطرة على النفس

منهج العقيدة في تربية النَّفس، أنّها تدعو إلى عدم كبت رغباتها لأنّ

الكبت يقتُل حيويتها، ويُبدد طاقتها، فلا تعمل ولا تنتج، وفي الوقت ذاته لا تشجع العقيدة على إطلاق رغباتها بلا ضوابط، بل تحثُّ على اتّباع سياسة حكيمة معها، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**سياسة النفس أفضل سياسة**».

وعملية السيطرة على النفس تتحقق من خلال ضبط رغباتها وتوجيه نزواتها نحو الاعتدال، وتتحقق أيضا من خلال محاسبتها، قال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «**ليس مِنَّا من لم يحاسب نفسه في كلِّ يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى، وإن عمل سيئة استغفر الله تعالى منها وتاب إليه**».

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنّ العقيدة لا تحبذ اتّباع الوسائل الملتوية من أجل السيطرة على النفس، فعن طلحة قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرّغ في الرمضاء، وكان يقول لنفسه: ذوقي، وعذاب جهنّم أشد حرّا، أجيفة بالليل بطّالة بالنّهار؟ !

قال: فبينا هو كذلك إذ أبصره النبيَّ صلى الله عليه وآله في ظل شجرة فأتاه، فقال: غلبتني نفسي، فقال له النبيَّ صلى الله عليه وآله: «**ألم يكن لك بدٌّ من الذي صنعته؟**».

من هذا التوجه النبوي، نجد أنّه في الوقت الذي تشجّع فيه العقيدة كلّ محاولة صادقة من الإنسان للسيطرة على نفسه، نجد أيضا أنّها لا تُحبّذ اتّباع الأساليب غير العقلانية للسيطرة على النفس، فالنفس تحتاج إلى صبر وسياسة طويلة ورياضة خاصة لتقلع عن ضراوة عاداتها، كتلك الرياضة التي أقسم أمير المؤمنين عليه السلام على اتّباعها مع نفسه: «**... وأيم الله ـ يمينا أستثني فيها بمشيئة الله ـ لأروضنَّ نفسي رياضة تَهشُ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما، وتقنع بالملح مأدوما...**».

وإنّ الإنسان ليقف مبهورا أمام قدرة الإمام عليه السلام في السيطرة على نفسه، رغم أنّ الأموال كانت تجبى إليه من مختلف بلدان الخلافة

الإسلامية أيام خلافته، ولقد أبرَّ بقسمه الذي قطعه على نفسه، عن حبة العرني قال: أُتي أمير المؤمنين عليه السلام بخوان فالوذج فوضع بين يديه ونظر إلى صفائه وحسنه فوجى باصبعه فيه حتى بلغ أسفله ثمَّ سلّها ولم يأخذ منه شيئا، وتلمّظ اصبعه وقال: «**إنَّ الحلال طيّب، وما هو بحرام، ولكنّي أكره أن أعوّد نفسي ما لم أعوّدها، ارفعوه عنّي فرفعوه**».

وكان عليه السلام يجعل جريش الشعير في وعاء ويختم عليه، فقيل له في ذلك، فقال عليه السلام: «**أخافُ هذين الولدين أن يجعلا فيه شيئا من زيت أو سمن**».

الخوف والرجاء:

مما يمكن التأكيد عليه أنّ في النفس خطان متقابلان هما الخوف والرجاء، والعقيدة تعمد إلى كلا الخطين، فتبدد عن النفس كل خوف باطل وكل رجاء منحرف، وبدلاً من ذلك تُنمّي الخوف من اللّه من جانب، ورجاء ثوابه من جانب آخر قال تعالى: ﴿... **يحذرُ الآخرةَ ويرجُو رحمةَ ربهِ**...﴾، فليست نظرتها أحادية الجانب كأن تركز على جانب الخوف فتؤيس الإنسان من رحمة اللّه، أو تركز ـ بالمقابل ـ على الرجاء فتضعف في نفسه الخشية من اللّه.

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: «**لو تعلمون قدر رحمة الله لاتّكلتم عليها وما عملتم إلاّ قليلاً، ولو تعلمون قدر غضب الله لظننتم بأن لا تنجوا**».

ويقول وصيه الإمام علي عليه السلام: «**إنّ استطعتم أن يشتدَّ خوفكم من الله وأن يحسن ظنّكم به، فاجمعوا بينهما، فإنّ العبد إنّما يكون حسن ظنّه بربّه على قدر خوفه من ربّه، وإنّ أحسن الناس ظنّا بالله أشدهم خوفا لله**».

وتجدر الاشارة إلى أنّ الناس «**يختلفون في طباعهم وسلوكهم**

اختلافا كبيرا، فمن الحكمة في إرشادهم وتوجيههم، رعاية ما هو الأجدر بإصلاحهم من الترجّي والتخويف فمنهم من يصلحه الرجاء، وهم العصاة النادمون على ما فرّطوا في الآثام، فحاولوا التوبة إلى الله، بيد أنهم قنطوا من عفو الله وغفرانه، لفداحة جرائمهم، وكثرة سيئاتهم، فيعالج والحالة هذه قنوطهم بالرجاء بعظيم لطف الله، وسعة رحمته وغفرانه.

أما الذين يصلحهم الخوف: فهم المردة العصاة، المنغمسون في الآثام، والمغترون بالرجاء، فعلاجهم بالتخويف والزجر العنيف، بما يهددهم من العقاب الأليم، والعذاب المهين».

وكان لأتباع مدرسة أهل البيت عليهم‌السلام الذين سكن خوف اللّه تعالى في نفوسهم وانعكس على جوارحهم، وزرع رجاؤه في قلوبهم، أروع الامثلة في هذا المجال، فروي عن أبي ذر رحمه‌الله أنّه بكى من خشية اللّه حتّى اشتكى بصره، فقيل له لو دعوت اللّه يشفي بصرك؟ !، فقال: إنّي عن ذلك مشغول، وما هو أكبر همّي. قالوا: وما شغلك عنه؟ ! قال: العظيمتان: الجنة والنار.

من جانب آخر يُنمّي روّاد هذه المدرسة الإلهية شعور الرّجاء في النفوس، فمن وصايا أمير المؤمنين لابنه الإمام الحسن عليهما السلام: «**أي بُنيَّ، لا تؤيّس مذنبا، فكم من عاكف على ذنبه خُتم له بخير، وكم من مقبل على عمل مفسد من آخر عمره، صائر إلى النار، نعوذ بالله منها**».

د. حيرش بغداد محمّد
باحث متخصّص في الفلسفة الغربية، من الجزائر.

القراءات المعاصرة للتراث
وأزمة التنوير في العالم العربي

التمهيد

الانطلاق من واقع المجتمعات العربية الإسلامية يجعل أيّ باحث يدرك بعمق مدى حاجة الإنسان العربي إلى العلم والإيمان بمبادئه من جهة، وإلى ممارسته السياسية المبنية على أُسس ديمقراطية يختار من خلالها المجتمع نمط حياته. في المقابل يدرك مدى ترسخ المعتقدات الأُسطورية والخرافية، وقد عبّر الجابري عن هذه الحالة "باستقالة العقل". من أجل فهم هذه الوضعية لا بدّ من العودة إلى الأُصول التي تشكل بنية الثقافة والمتمثلة خاصة في النص الديني (القرآن الكريم).

إننا نجد أن مختلف التيارات الفكرية والاتجاهات السياسية تحاول امتلاك الفهم الحقيقي له، وهذه الرغبة ليست خاصة بالخطاب الديني، بل كذلك ميزة خاصة بالخطاب الفلسفي المتجسد في القراءة النقدية. بعد أربعة عشر قرناً من ظهور الإسلام، ما زال النص الديني يستحوذ على اهتمام المفكرين مشكلاً مركز

أبحاثهم ومنطلق تفكيرهم. هذا الاهتمام متجه إما إلى إعادة تكريسه في الواقع، وإما إلى جعله نصاً مثل بقية النصوص الأُخر، لفتح المجال أمام التفكير العقلاني وإعادة الاعتبار للإنساني والتاريخي.

إنّ غاية النص أولاً وأخيراً هي الإنسان، فلا يمكن بأيّ حال من الأحوال التضحية بهذا الأخير. وفي حين أن هناك تيارات تراهن على الانفتاح المستمر للنص على مختلف التأويلات؛ لأنه لا أحد يمكنه أن يعرف مقصد المتكلم (الله)، هناك من يراهن على إمكانية معرفة كل مقاصد المتكلم؛ لارتباط النص بالظروف التاريخية التي أحاطت بإنتاجه، وفي هذه الحالة يكفّ النص على أن يكون المرجع الأساسي لحياة الإنسان. مما يفسح المجال لبروز الفعالية العقلية.

أوّلاً ـ التراث والقراءة النقدية

يقول نصر حامد أبو زيد: «**كأنّ العربي قد كتب عليه دون البشر كافة أن تسير قدماه إلى الأمام بينما يلتفت رأسه إلى الخلف**»[1]. هذا القول يشخص الانفصال الموجود في الوعي العربي بين الماضي والحاضر أو بين حركة الأفكار وحركة الواقع، ولا يطرح القول النظرية المادية القائلة بتحكم المادة في الفكر، أو النظرية المثالية القائلة بتحكم الفكر في المادة؛ لأن في كلتا النظريتين هناك اتصال ما بين الفكر والمادة. هذا القول يعبر عن نوع من اللامبالاة، بينهما تجعل كلاً منها قادراً على أن يتخذ مساراً مخالفاً للآخر. هذا يبرهن كذلك على الاهتمام اللامحدود بالماضي وبالتراث، ليس كما يشتغل المؤرخ على حوادث تاريخية ماضية، يعود إليها فقط لأن ميدان تخصصه يحتم عليه ذلك.

إنّ العودة إلى التراث هي من صميم الوجود الاجتماعي؛ لأنّ وعي الحاضر أو "الأزمة" يستلزم الإحاطة

والمعرفة بطبيعة الذات منذ اللحظات الأولى لتأسيسها وتكونها. هذه الذات التي ما زالت فاعلة في الحاضر ومؤثرة في طريقة التفكير ومحددة لنوعية العلاقة مع الغير، كما أن هذا التراث بما يتضمنه من قيم دينية وأخلاقية واجتماعية هو جوهر الهوية التي يتمسك بها كل عربي مسلم في حالة الحرب كما في حالة السلم، في حالة الانحطاط كما في حالة الازدهار.

ربما يرجع التمسك بالتراث إلى أنه ما زال إلى الآن لم يعرف التاريخ العربي الإسلامي حدثاً مؤثراً وهاماً غير ظاهرة الوحي، الظاهرة الدينية بامتياز، والتي أنتجت الخطاب القرآني الذي تتمحور حوله كل الخطابات. النص الديني يشكل إذاً جزءاً جوهرياً من التراث، بالإضافة إلى البطولات التاريخية لبعض الشخصيات التي تعتبر المثل الأعلى والنموذج، كشخصية النبي محمد وشخصية الصحابة والتابعين. لقد استطاع هؤلاء اعتماداً على الوحي نقل المجتمع من حالة البداوة إلى حالة الحضارة، ولم يترددوا في أن يعرفوا الشعوب الأُخرى بالإسلام، من خلال الفتوحات بفضل تمسكهم بتعاليم الوحي واقتدائهم بشخصية النبي وسننه الحميدة.

إنّ التراث يجلب في كل لحظة كل هذه التصورات، وكل هذا التاريخ بطريقة عفوية مليئة بالشحنات العاطفية، مما ولد مجموعة من الأفكار:

١ ـ التراث واحد فهو تراث الاتفاق والتجانس.

٢ ـ التراث والدين لا يعنيان إلا شيئاً واحداً.

٣ ـ استرداد التراث للإجابة على كل مشكلات الحاضر.

أمام هذه الأفكار والاعتقادات ظهرت الحاجة إلى ممارسة القراءة النقدية للذات منذ تأسيسها؛ لأنّ ظاهرة الوحي لم تكن مليئة بالمعاني الإلهية المقدسة، بل كذلك بالمعاني

الإنسانية؛ لأن الإنسان هو الذي كان دائماً يقرأ الوحي عبر فترات تاريخية مختلفة. كان يفهمه وفق ما تتيحه له قدراته العقلية، وهو الذي كان يفسره ويؤوله بما يتلاءم مع أغراضه الإيديولوجية.

إنّ القراءة النقدية للتراث هي قراءة نقدية للإنسان الذي صنع التاريخ، بالشكل الذي أظهره مليئاً بالانتصارات في لحظات ما، ومليئاً بالهزائم في لحظات أُخر. تبقى هذه القراءة النقدية محاولة للإجابة عن السؤال "النهضوي": لماذا تقدم الغرب وتأخر العرب؟ وبالتالي محاولة تحديد شروط النهضة العربية الإسلامية.

أ - مفهومنا للتراث

يعرفه الجابري بالقول: «**التراث هو كل ما هو حاضر فينا أو معنا من الماضي، سواء ماضينا أم ماضي غيرنا، سواء القريب منه أم البعيد**»[٢]. يُظهر هذا التعريف التراث منفتحاً على الثقافات الأجنبية، فلم ينشأ التراث بفعل عوامل داخلية فقط، بل تأثر بالتراث العالمي القريب منه والبعيد، فقد تأثرت الحضارة الإسلامية بالفلسفة اليونانية، وتأثرت كذلك بـ "الغنوصية" أو "الهرمسية"، وقد عملت اليهودية والمسيحية على إقحام بعض أفكارهما في الدين الإسلامي، مما استدعى ظهور علم الكلام من أجل الدفاع عن العقائد الدينية.

من الناحية الزمنية فإنّ الجابري يرجع التراث إلى الماضي البعيد، بدون أن يحدد إلى أين يمكن أن يصل هذا التراجع في الزمن، ربما لأنّ التفاعل الثقافي بين الشعوب راسخ في لاشعور المجتمعات، وفاعل في الثقافة. يشير الجابري كذلك إلى أنه لا واحد من مشتقات (و، ر، ث) كان يستعمل قديماً للدلالة على الموروث الثقافي، بل يستعمل فقط للدلالة على ما يتركه الأب للابن من تركة مادية، ولكن أثناء اليقظة العربية الحديثة فقد حمل هذا

المفهوم دلالة ثقافية وروحية بالإضافة إلى دلالته المادية.

إنّ هدف الجابري يتمثل في تحقيق ما يسميه بـ "القراءة العصرية للتراث" ضد كل من "القراءة التراثية للعصر" التي ترى في العصر حقلاً لتكرار النماذج التاريخية القديمة التي تحققت أو لم تتحقق، وضد ما سماه كذلك بـ "القراءة التراثية للتراث"، أي القراءة التي تنظر إلى التراث كوحدة متجانسة، يرجع تكونه إلى عناصر إسلامية خالصة، مما يؤدي إلى تقديس التراث واستبعاد كل ممارسة نقدية له، وما يميز هذه القراءة أنّ التراث يحتويها وهي لا تحتويه. في حين أنّ التراث يمكن أن يكون موضوعاً لنا، ونمارس سلطتنا عليه بدلاً أن نكون خاضعين له. القطيعة مع التراث في الأصل هي القطيعة مع «الفهم التراثي للتراث»، ثم القطيعة مع عصر الانحطاط وامتداداته. هذا الانحطاط يرجع إلى اختلاط المنظومات المعرفية الثلاث والمتمثلة في "البرهان"، و"البيان"، و"العرفان".

إنّ الجابري يصف قراءته بأنها تعتمد على خطوتين أساسيتين: الفصل والوصل، فهدف "الفصل" هو جعل التراث معاصراً لنفسه، وهدف "الوصل" هو جعله معاصراً لقارئه، بمدى قدرته على إيجاد الإجابات التي تحقق "العلم"، "العقلانية"، "التقدم". يقترح الجابري ـ هنا ـ منهجاً قائماً على الحوار الجدلي بين القارئ والمقروء، معتمداً على "المعالجة البنيوية"، أي محورة المادة التراثية حول إشكاليات محددة ومركزية، وهذا ما فعله في المجال السياسي الذي محوره حول " العقيدة" و"الغنيمة" و" القبيلة"، وما فعله كذلك عندما حدد بنية العقل العربي القائمة على أساس " البرهان" و"البيان" و"العرفان".

يعتمد الجابري كذلك على منهج التحليل التاريخي، حيث يشترط العودة إلى الظروف الاجتماعية والاقتصادية

لإنتاج الخطاب، وأخيراً يعتمد على الطرح الإيديولوجي، أي البحث عن الوظيفة الإيديولوجية التي يؤديها الخطاب. الهدف من هذه القراءة هو فصل "اللامعقول" عن "المعقول". يقول الجابري: «**ما تبقى من تراثنا الفلسفي أي ما يمكن أن يكون فيه قادراً على أن يعيش معنا عصرنا لا يمكن أن يكون إلا رشدياً**»[٣]. ويمثل هذا انتقالاً من المشرق العربي الذي كرس التصوف، إلى المغرب الذي يمثل فلاسفته اللحظة التنويرية في تراثنا.

يتحدث الجابري عن "تجديد العقل العربي" كما يتحدث حسن حنفي عن "تجديد التراث". ويقول حنفي في تعريفه للتراث: «**هو كل ما وصل إلينا من الماضي داخل الحضارة السائدة، فهو إذاً قضية موروث، وفي نفس الوقت قضية معطى حاضر على عديد من المستويات**»[٤]. ويرتكز "مشروع تجديد التراث" على إعادة الاختيار بين البدائل، أي اختيار "الاتجاه الاعتزالي" بدلاً من "الاتجاه الأشعري"، وبذلك يتم القضاء على معوقات التطور والتمهيد لكل تغيير جذري. بخلاف الجابري يبقى حنفي داخل الفضاء المشرقي، لكن كلاهما يحاول الانتظام داخل التراث لا خارجه، لإيجاد العقلانية والبحث عنها في التراث العربي الإسلامي لا في التراث الغربي، والوقوف موقفاً نقدياً ضد القديم الموروث، وضد الجديد المنقول بهدف نقل العصر من مرحلة التمركز حول الله، وهي المرحلة القديمة إلى مرحلة تسمح بالتمركز حول الإنسان وهي المرحلة الجديدة.

يرى حنفي أنّ التوحيد ـ كتنزيه في عصرنا ـ ليس في خطر، بل الإنسان والأرض هما الضائعين، وهما اللذين يجب إنقاذهما.

هناك خلاف آخر بين الجابري وحنفي، فبينما يرغب الثاني في توحيد العلوم كعلم أصول الفقه والدين

والتصوف والفلسفة على أساس التكامل بين الدين والعقل، ومن أجل المحافظة على المصلحة العامة، فإنّ الثاني يؤكد على الانفصال والتمايز وخاصة الموجود بين الفلسفة والدين، فلا يمكن دمج أحدهما في الآخر، فلكل منهما مقدماته وأُصوله، بحيث يجب فقط تطوير كل منهما من الداخل بما يتلاءم مع مقدماته. إنّ محاولة الدمج بينهما راجعة في نظره إلى النضال السياسي والاجتماعي والثقافي ضد إيديولوجيا الدولة السنية، كما يظهر في الحركة الإسماعيلية. يقول الجابري: «**أما أن تكون وسائل إخوان الصفا تخدم بشكل مباشر، وفي آن واحدة الدعوة الدينية والأهداف السياسية والوسائل التنظيمية لحركة سرية ثورية تهدف الإطاحة بالدولة العباسية وإقامة دولة " الحق والعدل " دولة الشيعة الإسماعيلية، فهذا ما لا يمكن الشك فيه**»[٥].

إنّ محاولة الجابري عامة تهدف إلى تجاوز "عصر التدوين"، العصر الذي تم فيه تجميع العلوم (القرنين الثاني والثالث الهجريين)، هذا التدوين الذي كان غرضه الأساسي تحصين الذات وحمايتها. التكلم عن التراث يجعل الكثيرين يعودون إلى ذلك العصر، وكأن العلوم نشأت واكتملت فيه، كالنحو مع سيبويه وأُصول الفقه مع الإمام الشافعي... في حين أنّ المغرب (الأندلس) عرف لحظة تاريخية جديدة أو ما يسمى "عصر التدوين الجديد"، فُتح المجال فيه لممارسة العقلانية. يقول الجابري: «**والملاحظ أنّ هناك فترات تزاوج بين نظامين معرفيين: البياني والبرهان، وإبعاد النظام الغنوصي، وهذا ما فعله ابن رشد وابن خلدون. وهذا التزاوج بلغ بالثقافة العربية قمة التطور**»[٦]. فبدلاً من حصر التراث في فترة زمنية محددة وضيقة، عمل الجابري على توسيع هذه الفترة الزمنية لتشمل عصر

التدوين الجديد وامتداداته إلى الماضي القريب، مما يزيد من إمكانية إيجاد الاتجاهات العقلانية داخل هذه الفترة الزمنية الواسعة. هذا ما عبر عنه جابر عصفور بـ "إعادة إنتاج التراث" فنحن لا نلتقي مع التراث كشيء ومعطى جاهز، بل نعيد إنتاجه بما يتلاءم مع اتجاهات الحاضر المختلفة.

إنّ قراءة نصر حامد أبو زيد تدخل في نفس اتجاه التجديد. أي قراءة التراث قراءة نقدية، والوصول بهذه القراءة إلى غاية مشروع النهضة، واستكمال النقد ليمس القراءة الأكثر معاصرة، سواء لأصحاب المشاريع كحسن حنفي ومحمد أركون أو غيرهم كأدونيس أو زكي نجيب محمود... وهذا يدل فعلاً على أنّ التراث يصل إلى الماضي القريب ولا ينحصر في فترة زمنية ضيقة.

ب - القراءة النقدية والفلسفة

يقول نصر حامد أبو زيد: «إنّ **الإنسان المنتج للعلم والتكنولوجيا هو الإنسان الذي تم تكوينه منذ مرحلة الطفولة بتدريبه على أهمية إثارة الأسئلة، وتقليب الاحتمالات الممكنة، والتفكير في الأجوبة قبل اختيار أحدها**»[٧]. يتم الربط هكذا بين القدرة على إنتاج العلم، وبين ما يكتسبه الإنسان من قدرات عقلية تمكنه من ممارسة التفكير الفلسفي بأشكاله المختلفة بإثارة الأسئلة، وفحص الأجوبة، وعدم قبول الحلول الجاهزة. في غياب ذلك، يسود التقليد الذي يمثل حاجزاً أمام الأفكار الجديدة، وبالتالي ينعكس ذلك على حالة إنتاج العلم والتكنولوجيا. في رأي أبو زيد فإنّ الإنسان في الحضارة العربية المعاصرة، أصبح مقلداً لتراثه الماضي أو لتراث غيره (لحظة التنوير الأوروبي)، ولم يبق له ما يعيشه في الحاضر سوى التبعية المادية للغرب، وهذا ما يخلق لديه الوعي الزائف. هذه كلها أحكام يصرح بها أبو زيد في كتابه

"النص، السلسلة، الحقيقة"، فكيف يمكن والحالة هذه ممارسة التفكير الفلسفي في الثقافة العربية؟ ليس من الضروري في نظر أبو زيد الربط بين الفلسفة وإنتاج العلم، أو بين النظرة النقدية وبين إنتاج التكنولوجيا؛ لأنّ نمو الوعي "التكنوقراطي" يمكن أن يكون عائقاً أمام الفلسفة، لذلك فإنّ الحضارة الغربية المعاصرة عادت لتطرح من جديد أهمية الفلسفة، والدور الذي يمكن أن تقوم به، وخاصة بعد تطور العلوم التقنية وظهور العلوم الإنسانية واستقلالها تدريجياً عن الفلسفة. يطرح يورغن هبرماس مثلاً التساؤل الآتي: «**والواقع أننا نتساءل هنا بعد أن وصلنا إلى ما وصلنا إليه، إذا لم تكن الفلسفة قد أفرغت نفسها من جوهرها في سياق التطور الذي قادها إلى النقد والنقد الذاتي، وإذا لم تكن في نهاية المطاف، وبعكس الفكرة التي تقدمها كنظرية نقدية تتناول المجتمع، نوعاً من التفكير حول الذات يجعلها عاجزة عن رسم أي سبيل متناسق لتقدم فكري منتظم، وإذا كان الحال على هذا النحو فهل تزال للفلسفة فائدة ما؟**»[٨].

إنّ التطور الذي عرفته الفلسفة جعلها تنتقل بعد هيجل من فلسفة نسقية تقدم إجابة متكاملة ومترابطة حول قضايا الوجود والموجود، إلى فلسفة لا نسقية تجلت على مستوى الكتابة الفلسفية وخاصة مع نيتشه، حيث أصبحت تتميز "بالمقطعية"، وتنتقل من موضوع إلى آخر بطريقة عفوية لا يضبطها نظام خاص. كما أصبحت الفلسفة نوعاً من التفكير حول الذات، وهذا ما يظهر مثلاً عند مشال فوكو، فالفيلسوف يمارس ذاته في جسد الفلسفة، ويعيد إنتاج نفسه كتحفة فنية، خارج نظام المعايير الاجتماعية، واضعاً "الإتيك" مقابل"الأخلاق". كما ظهر كذلك "الفيلسوف الرحالة" الذي له في نظر جيل دولوز رحلات ثلاث:

رحلة في الماضي الإغريقي، ورحلة في الحاضر الغربي الديمقراطي، ورحلة في المستقبل نحو أرض جديدة لم تكتشف بعد. لقد أثرت هذه التحولات التي عرفتها الفلسفة على الفكر العربي المعاصر الذي وجه نقداً إلى المشاريع الفكرية الضخمة، وخاصة من طرف علي حرب الذي يرى أنّ المفكر لا يجب عليه التعلق بفكرة معينة، بالعكس عليه أن يمارس فعاليته بالانفكاك من الالتزامات العقائدية والمشاريع الفكرية، ويتحول هو بدوره إلى رحالة.

إنّ المفكر العربي لا يرى أنّ وظيفته تختلف عن وظيفة المفكر الغربي، فهو كذلك رحالة يرتحل إلى الماضي العربي، ويواجه في نفس الوقت أُفول الوعي الديني مقابل ما نشأ من جماعات دينية متطرفة، وعليه كذلك مواجهة السلطة السياسية لعدم تمثلها لأُسس الممارسة الديمقراطية، مما يجعله يراها أحياناً حليفاً للفكر الديني ضد الفكر الحداثي المستنير. هذا ما يفسر اختيار نصر حامد أبو زيد للقراءة النقدية وبالتحديد للقراءة التأويلية. يقول علي حرب: «**والتأويل كفيل بتحقيق هذه المهمة النقدية، ذلك أنه من المنظور التأويلي يفلت النص من الحصر والتقييد. ويستعص على محاولات القولبة والاحتواء**»[٩]. فالقراءة التأويلية تشكل إستراتيجية للاختلاف، بإنتاجها لمعنى مختلف أو التفكير بطريقة مغايرة، لا بإعادة "طلاء" أو "تلوين" الأفكار القديمة لتظهر جديدة؛ لأنه فلا فلسفة بدون موقف نقدي يعيد النظر في المفاهيم وأنماط التفكير بطريقة خلافية، مشككاً في البديهيات وكاشفاً عن الأفكار المسبقة. إذا كان المثقف يستخدم قلمه للدفاع عن الحريات فإنه يقتحم المناطق المستبعدة من نطاق التفكير، كي يجعل الممتنع ممكناً.

ج - التراث والدين

يمارس نصر حامد أبو زيد القراءة

النقدية بغرض التجديد، وذلك بجعل الأفكار الجديدة تحل محل الأفكار القديمة، وقد تأثر في ذلك بالشيخ الخولي. يقول: «**لذلك ذهب الشيخ الخولي رحمه الله إلى أنّ منهج التجديد لا يستقيم إلا بعد قتل القديم بحثاً؛ لأن التجديد دون فحص القديم فحصاً نقدياً، من شأنه أن يضيف أفكاراً إلى أفكار، فتتجاور الأفكار القديمة والأفكار الحديثة دون أن يزحزح الجديد القديم ويحل محله**»[١٠]. القراءة النقدية ليست قراءة قائمة على تجميع الأفكار بشكل ركامي، ولكنها قراءة قائمة على الجرأة على الاختيار بين البدائل، وهذا الاختيار لا يتم إلا بعد القيام بالفحص النقدي لكل الأفكار. هناك كثير من الأفكار اكتسبت قداسة في تراثنا بفعل ما حصلت عليه من الترديد والتكرار، وهذه الأفكار لا بد أن تُردّ إلى سياقها التاريخي، مما يسمح للأفكار الجديدة من مناقشتها على ساحة الفكر وليس على أرض العقيدة؛ لأنّ ما أنتجه الفكر يمكن أن يناقش بما أنتجه فكر آخر.

إنّ الممارسة النقدية هكذا لا تنصب على الإسلام ولا على الدين؛ لأن الإسلام في نظر نصر حامد ليس عائقاً أمام التقدم، وإنما العائق كامن في التفاسير والتأويلات التي قدمها البشر، وطريقة فهمهم للإسلام الراجعة إلى الشروط التاريخية التي أحاطت بهم، ومطامعهم الدنيوية. يقول: «**وفهم الإسلام مشروط بالدرس النقدي للتاريخ والتراث، الدرس الذي يكف عن النظر إلى التاريخ بوصفه تاريخ ملائكة أبرار...**»[١١]. وفي كتابه " نقد الخطاب الديني" يؤكد على الفصل بين الفكر الديني والدين، أو بين فهم النصوص والنصوص ذاتها، ويعتبر أن التوحيد بين الفكر والدين، هي أحد طرائق وآليات الخطاب الديني الذي يرى أصحابه أن الدين فكر، والفكر لا يجب أن يكون إلا ديناً، بالإضافة إلى

المماهـاة بـين الحيـاة الاجتماعيـة والسياسـية والـدين، وبالتـالي التوحيـد التام بين الدين والتراث.

في رأي نصر حامد فإن التوحيد بين التراث والدين قد حصل عندما بدأ إدماج السنة النبوية بالمعنى الواسع، أي سنة الوحي وسنة العادات في الدين، في حين أنّ أهل الرأي يميزون بين سنة الوحي وسنة العادات. التراث أوسع من الدين؛ لأنه يتضمن اتجاهات "رجعية" كالاتجاه الأشعري واتجاهات تقدمية كالاتجاه الاعتزالي، أما الدين فيعني "الشريعة". يقول: «**إنّ الدين في التداول القرآني لفظ يدل على الشريعة بصفة عامة سواء كانت تلك الشريعة وضعية أم كانت منزلة من السماء... في عصر ما قبل الإسلام: ترد كلمة "الدين" بمعنى "طريقة الحياة"...**»[١٢].

إذن، التراث يشير إلى الماضي، أما الدين فيشير إلى طريقة الناس في الحياة، ما عدا القرآن الذي تأسس كدين وكتراث في نفس الوقت، أي ماضياً وحاضراً. المشكلة هنا أنّ هذا الحاضر، أي طريقة الناس في الحياة يتحول إلى ماض ويدخل ضمن التراث، ولكن في هذه الحالة لا يكون التراث كله، بل جزءاً منه.

يرى عبد الله العروي أنّ هناك اختلافاً بين مفهوم التراث و"السنة"؛ لأنّ مفهوم التراث يشير إلى جملة الأعمال والإنجازات الثقافية في فترة تاريخية ما، وهي لذلك تتميز بالثبات والجمود، أما السنة التي تتجاوز المعنى المحدود المستعمل في الفقه الإسلامي؛ لأنّ هناك سنة شيعية، وسنة زيدية، وسنة إباضية... فهي تمثل منطق الثقافة ومجرى الحياة، كما أنها أحكام واختيارات تتعلق بجماعات وأشخاص عكس منجزات التراث التي لا تنسب لأحد، مثل العادات والأخلاق والآداب. يقول العروي: «**يستعمل الغربيون كلمة "تراديسيون" في علم الاجتماع وعلم**

الكلام. تعني في المجال الأول كل ما هو موروث في مجتمع معين من الأجيال الغابرة، ... هذا المعنى هو بالضبط ما تؤديه كلمة تراث... أما في المجال الثاني، وخاصة في تاريخ الكنسية، فإن الكلمة تعني الاتجاه الفكري الذي اختارته وسارت عليه منظمة معينة. حينئذ تكون الكلمة المقابلة لـ "تراديسيون" هي كلمة "سنة"»[١٣]. ويرى العروي أخيراً أنّ المفهوم الذي يبحث فيه مشترك بين كلمتي التراث والسنة.

يمكن التكلم عن التراث كطبقات متفاعلة كما فعل محمد أركون، بحيث يشمل أولاً القاعدة الثقافية والتقاليد العربية السابقة على الإسلام، وثانياً التاريخ المعروف المتمثل في القوانين الإسلامية، وثالثاً وأخيراً القوانين التشريعية الوضعية الحديثة. التراث نتاج فعالية البشر عبر التاريخ سواء كان ذلك بواسطة تفاعلهم مع الوحي أو نتيجة اجتهاداتهم السابقة على الوحي أو التالية له. في هذا التراث الواسع والضخم يظهر التراث الديني بشكل بارز محاولاً السيطرة على باقي الميادين، وهنا يظهر الصراع بين الفقهاء وبين المختصين من علماء التاريخ، والاجتماع، وعلم النفس لممارسة "الأستاذية العقائدية".

يرى أركون أنّ القطيعة مع التراث العلمي قد حصلت بدءا من القرن ١١م حيث يقول: «**بدءاً من القرن (١١) الميلادي راحت الأخطار تحدق بحياة المدن وتهددها ولكي يقاوموا عملية استرجاع إسبانيا والحملات الصليبية على فلسطين وهجمة العشائر التركية والمغولية على منطقة إيران ـ العراق لزم عليهم أن يتجمعوا حول إسلام أورتوذكسي ودغمائي صارم...»**[١٤]، ويضيف إلى أنه مع ظهور الحركة السلفية حوالي سنة ١٨٣٠م حصلت قطيعة تامة مع التراث العلمي، والملاحظ هنا أنّ العودة إلى التراث الديني كانت تحصل دائماً للحفاظ على

الهويــة وحمايتهــا ضــد الهجمــات العدائية.

يلاحظ برهان غليون أنّ ما يمثل الصحوة الإسلامية كمحاولة لحل مشكلات النهضة والتقدم تحدث تطابقاً كلياً عن وعي أو عن غير وعي بين التراث والدين، فالعودة إلى التراث هي العودة إلى الدين، فقد شكل التراث من جهة ميكانيزما في الخطاب النهضوي العربي الحديث للارتكاز على الأصول في نقد الحاضر والماضي القريب. من جهة أُخرى كانت الدعوة للرجوع إلى الأصول رد فعل ضد التهديد الخارجي الذي مثلته تحديات الغرب، فالغرب لم يكن دائماً حاملاً للقيم العقلانية والإنسانية، بل يظهر في التاريخ بمظهر عدواني من خلال الغزو الاستعماري. يرى نصر حامد أن الإسلام تحول من دين إلى هوية في مواجهة الغرب المسيحي، وفي هذا السياق يتم استدعاء "الحروب الصليبية" باعتبارها نموذجاً متكرراً يشكل أساس علاقتنا مع الغرب.

إن الربط بين التراث والدين يرجع إلى أسباب تاريخية، ومهمة القراءة النقدية هي الفصل بين الديني والإيديولوجي والتاريخي المرحلي، ففي واقعنا يظهر الديني ويغيب الإنساني والتاريخي. ينتقد نصر حامد (حسن حنفي) صاحب "الخطاب اليساري"؛ لأنه اعتمد على عملية التحويل الدلالي لبعض المفاهيم ليضفي عليها أبعاداً إنسانية وتاريخية، وهذه المفاهيم موجودة في "علم الكلام". يقول: **«وواضح أنّ الهاجس المسيطر على هذا الطلاء الجديد لعلم الكلام هاجس البحث عن البعدين المفقودين في واقعنا: الإنسان والتاريخ؛ ولأنّ هذين البعدين مطمورين في علم الكلام القديم بسبب اغتراب الإنسان في الإلهيات، واغتراب التاريخ في السمعيات، فإنّ الكشف عنهما وإزاحة ما يخفي وجودهما لا تتحقق بمجرد عملية**

التحويل الدلالي المعتمدة على علاقة التجاور والمشابهة. إنّ الإلهيات لا تصبح إنسانيات ولا النبوات تتحول إلى تاريخ بمجرد الرغبة في ذلك بالتماس أوجه سطحية صورية للمشابهة. إنّ الكشف عن الخفي المطمور لا يتحقق إلا بالقراءة التأويلية التي تصل إلى المغزى عبر الدلالة لا وثوباً عليه»[١٥].

إن هاجس التجديد عند حسن حنفي، يجعله إذاً يصبغ أو يقوم بعملية طلاء المفاهيم القديمة؛ لكي تبدو جديدة، لتعبر بذلك عن طموحات الإنسان وتحقق ما هو ضائع في واقعنا المعاصر. يكتفي حسن حنفي بوضع المفاهيم القديمة بين قوسين، وهذه العملية تدخل ضمن ما يسميه بـ" تجديد اللغة ". يقول: «**ولا يتم التجديد بطريقة آلية، بإسقاط لفظ ووضع لفظ آخر محله مرادفاً أو شبيهاً، بل بطريقة تلقائية صرفة يرجع فيها الشعور من اللفظ التقليدي إلى المعنى الأصلي الذي يفيده، ثم يحاول التعبير من جديد عن هذا المعنى الأصلي بلفظ ينشأ عن اللغة المتداولة كما كان اللفظ التقليدي متداولاً شائعاً في العصر القديم**»[١٦]. وإمكانية ذلك راجعة إلى اتساع معاني ألفاظ اللغة العربية التقليدية الناشئة عن الوحي، وبالتالي قدرتها على استيعاب الألفاظ الجديدة الناشئة عن تطوير الحياة الاجتماعية، ويرى كذلك أنّ هذا التجديد لا يمس جوهر الفكر، ولا مضمونه، بل صورته.

إنّ الفرق الكامن بين حنفي ونصر حامد أنّ نصر حامد يرى أنّ التاريخ والإنسان مختفيين في تراثنا القديم بفعل عوائق حالت دون ظهورهما، أما حنفي فهو يثبت وجودهما في التراث القديم، وأنّ المشكلة بالنسبة إليه تكمن فقط في التعبير اللغوي. إنّ طريقة فهم أبو زيد للتراث، ودعوته للثورة على القديم، قوبلت برفض كبير من مؤسسة الأزهر الدينية، التي

بتعاونها مع الجهات القضائية أصدرت في حقه حكم التكفير، الذي شكل بالفعل عائقاً بالنسبة لأبي زيد.

ثانياً ـ حضور عائق التكفير في نص أبو زيد وتأثيره

قضية أبو زيد وتأثير المحاكمة على خطابه "التثويري"

منذ أن تعرض أبو زيد لحكم "التكفير" بطريقة غير مباشرة من طرف اللجنة العلمية للجامعة، والتي قامت بقراءة منتجاته العلمية سنة ١٩٩٢م، وبطريقة مباشرة من طرف محكمة استئناف القاهرة يوم ١٤يونيو/ تموز ١٩٩٥م، وأيدته محكمة النقض في ٥ أغسطس/ آب ١٩٩٦م. منذ ذلك الوقت وعائق التكفير حاضر في نص أبو زيد بثلاثة أشكال مختلفة:

أ ـ من خلال التكلم عنه في مقدمات مؤلفاته التي تلت الحكم، والتطرق إليه على أنه مشكلة خاصة، حالت مثلاً دون حصوله على الترقية المهنية التي كان يرغب فيها، وهي درجة "الأُستاذية". كما أنّ حكم الفصل بينه وبين زوجته المترتب على حكم تكفيره خلق له صعوبات كثيرة، كما أنّ حالة الغربة التي أصبح يعيشها في الهجرة حالت بينه وبين مكتبته الخاصة.

ب ـ عائق التكفير حاضر من خلال ممارسة العائق لتأثير سلبي على فكر المؤلف، بدل طريقة تكفيره عن وعي أو عن غير وعي، مما جعله يتراجع إلى حد ما عن مشروعه التنويري. لقد تسلل الخطاب النقيض إلى تفكيره، وقد شعر أبو زيد بذلك، حيث صرح في كتابه "الخطاب والتأويل" قائلاً: «**لكنّ هذا الشيء، وتسلل "الخطابية" إلى كتاباتي شيء آخر. لذلك توقفت عن الكتابة لبعض الوقت. حين تأملت الأمر أدركت أنّ الخطاب النقيض يحاول أن يغزوني من داخلي بالتأثير السلبي على بنية خطابي، وهو خطاب يمكن أن يتمدد تمدداً سرطانياً ليصيبه بالشلل**»[١٧]. والمقصود

بالخطابية علوّ نبوة الصوت والتنغيم، كما يفعل خصومه أمثال محمد عمارة عندما يخاطبون الجمهور، في حين أنّ كلام أبو زيد كان عكس ذلك.

ج ـ وعي أبو زيد بآلية التكفير بعد تعرضه للمحاكمة، مما جعله يطرح هذه الآلية كعائق مهم وخاصة في كتابه "التفكير زمن التكفير"، ومن بين المسلمات التي يؤكد عليها أنّ سيطرة اتجاه فكري لفترة طويلة من الزمن لا يعني أنّ الاتجاهات الأُخرى "ضالة" أو"كافرة"، بالإضافة إلى وعيه الذي ازداد بتأثير الخطاب النقيض (الخطاب الديني السلفي) المستخدم لآلية التكفير على الخطاب التنويري في مختلف أطوار التاريخ.

قضية أبو زيد تبدأ إذاً عندما عرض أعماله العلمية على اللجنة العلمية بغية الحصول على درجة "الأُستاذية"، وكانت اللجنة تتألف من ثلاثة أعضاء دكاترة هم: علي مكي، عوني عبد الرؤوف، عبد الصبور شاهين، وبعد قراءتها أبدى هذا الأخير ملاحظة فحواها أنه لمس في أعمال المرشح ما يوحي بالكفر والإلحاد. لقد تأثر العضوان الآخران بهذا الحكم، فأقروا جميعهم حرمان أبو زيد من الترقية. أيد مجلس الجامعة قرار اللجنة العلمية، رغم أنّ كلية الآداب عينت لجنة علمية خاصة شملت مجموعة من الدكاترة هم: حسن حنفي، جابر عصفور وآخرون، وكانت نتائج قراءتها للأعمال إيجابية[١٨]، حيث جاء في تقريرها ما يلي: « **"قضية أبو زيد" أصبح هذا العنوان يدل دلالة مباشرة على مشكلة حرمان أُستاذ بجامعة القاهرة من حقه في الحصول على لقب الأُستاذية الكاملة (لا المساعد) وذلك استناداً إلى تقرير ينتهي بتكفير الإنتاج العلمي الذي تقدم به الأُستاذ المذكور**»[١٩]. وقد استند تكفير اللجنة العلمية لإنتاج نصر حامد أبو زيد على المبررات الآتية:

١- العداوة الشديدة لنصوص

القرآن والسنة، وتفضيل أهل الرأي على أهل الحديث، ونقد الشافعي الذي أعطى الأولوية للنص، وجعل القياس مقيداً به، فيما يعرف بالقياس بالنص.

٢- نعت الصحابة والأئمة بما لا يليق بهم.

٣- إنكار المصدر الإلهي للقرآن والقول بتاريخيته.

٤ - نفي كون الله خالق كل شيء.

٥- الدفاع عن الماركسية والعلمانية.

٦- الدفاع عن سلمان رشدي وروايته "آيات شيطانية ".

أمام هذه الادّعاءات اعتبر أبو زيد أنّ عمله كشف عن آليات الخطاب الديني ونقد له، وهو يميز تميزاً واضحاً بين الدين والخطاب الديني المجسد للسلطة التي يضفيها الإنسان على النص من الخارج. هكذا يتهم أبو زيد عبد الصبور شاهين بالمغالطة وتزييف المفاهيم؛ لأنه ليس هناك دعوة للتحرر من النصوص، بل من سلطة النصوص، وهي السلطة التي أضفاها الشافعي والفكر الديني عليها، وقد حدد أبو زيد آليات الخطاب الديني فيما يلي:

١- التوحيد بين الفكر والدين، وبين التراث والدين. مما جعل كلاً من الفكر والتراث دينيين.

٢- تفسير الظواهر كلها بردّها جميعاً إلى مبدأ أو علة أُولى، مما يؤدي إلى تغيّب التفسيرات العلمية.

٣- الاعتماد على سلطة السلف، وسلطة النصوص.

٤ - إطلاقية الأحكام، وغياب النظرة النسبية إلى الحقيقة.

٥- إهمال البعد التاريخي لتشكل الحقائق.

هذه جملة الآليات التي يضبطها في كتابه نقد الخطاب الديني (الطبعة الأُولى). أما في الطبعة الثانية لنفس الكتاب يضيف آلية التكفير قائلاً: «**إن التكفير ـ في الحقيقة ـ يمثل أيضاً إلى جانب "الحاكمية" و"النص" عنصراً أساسياً في بنية الخطاب الديني بشقيه**

المعتدل والتطرف على السواء، غاية الأمر أنه معلن في خطاب المتطرفين، كامن خفي في خطاب المعتدلين»[٢٠].

وقد تم إضافة هذه الآلية تحت ضغط أحكام التكفير الصادرة ضده، مما يعني أنّ هناك ما هو أصيل في فكر أبو زيد، وهناك ما هو مجرد ردّ فعل؛ لأنّ كتابه "التفكير زمن التكفير" لا يحلل تحليلاً علمياً ومنهجياً التكفير بقدر ما هو مجرد تكرار لكتاب "نقد الخطاب الديني" ونقد لوسطية الشافعي، ومجموعة من التبريرات لنفي التهم الموجهة إليه.

لقد دافع أبو زيد عن نفسه من خلال تحديده لثوابت الإيمان الديني المتمثلة في العقائد والعبادات، كالإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت... وتأكيده المستمر أنه مسلم ومؤمن كقوله: «**اتهام كاتب التقرير للباحث بأنه ينكر مفهوم العلة "الأُولى" الذي يعني إنكار الأُلوهية اتهام باطل من أساسه، لكنه الاتهام الذي صوغ مسألة "عداوة النصوص" ويسهل تصديقها من جانب النقلة والأتباع**»[٢١]. وهذا يتناقض مع ما طرحه في كتابه "الخطاب والتأويل" قائلاً: «**فكلنا مسلمون بداهة، وإسلامنا هو الأصل الذي يحتاج لبرهان. ليس مطلوباً من المفكر أو المواطن أن يثبت إسلامه لأحد**»[٢٢]. ويظهر التناقض جلياً في المقال الذي نشره في مجلة "الطريق" تحت عنوان "نداء على الشعب المصري" والذي صرح فيه: «**وإذا كان شعار العالم "أنا أفكر فأنا موجود"، فليكن شعارنا أنا أفكر فأنا مسلم**»[٢٣].

وقد توقف علي حرب عند هذا التصريح في مؤلفه "الاستلاب والارتداد" معتبراً إياه تراجعاً عن منجزات الفكر التنويري، بعد أن كان يهدف إلى إخضاع الخطاب الديني، أي

النص الديني والفهم الديني للنصوص إلى الدرس والتحليل العقلاني لإزاحة الغيبي والأسطوري واستبداله بالإنساني والتاريخي. بعد كل هذا يعود في الأخير ليحتمي بالدين. هذا الموقف الصادر عنه سبق وأن انتقده في كتابه "نقد الخطاب الديني". يقول علي حرب: «**وهكذا انساق أبو زيد، من حيث لم يشأ، تحت تأثير الإرهاب الديني الذي يمارس ضده، إلى تقويض الإنجاز الديكارتي، منقلباً بذلك على عقله التنويري، إذ التنوير هو خروج المرء من قوقعته الدينية ونهوضه من سباته العقائدي**»[٢٤]. وقد تنبه أبو زيد في كتابه (الخطاب والتأويل) إلى إمكانية حصول مثل هذا التراجع قائلاً: «**ومن شأن هذا الموقف الدفاعي السجالي أن يدخل "الجديد" في دهاليز الديماغوجية الوعظية الإنشائية التي تخاطب العوام بلغتهم وعلى قدر أفهامهم. فينخرط المفكر في إنتاج خطاب ركيك سقيم ينطوي على "التراجع" و"الاستسلام"**».

في كتابه "دوائر الخوف" يسجل أبو زيد الاعتراف الآتي: «**لقد كان خوفي ـ الذي ما يزال قائماً ـ من إستراتيجية "البحث عن العفريت" التي لاحظت أنها تسيطر على قراء كتبي مثبطاً شديداً جعلني أحياناً أفقد الثقة في جدوى الكتابة والنشر**»[٢٥]. فأكيد أنه بعد الأحكام التي صدرت في حق أبو زيد أدى إلى جعل قرائه، وخاصة المتشككين في معتقداته، يقرؤون نصوصه بكثير من الحذر والتمعن لإيجاد ما يمكن أن يدينه ويؤكد صدق الأحكام الصادرة ضده. هذا ما يمكن أن يدفعه إلى المزيد من التريث في صياغة أفكاره والتعبير عنها، رغم أنه كان يطرحها من قبل بلغة جسورة غير مراوغة، لغة تقول ما تريد دون لف أو دوران. شعور كثير من المفكرين بخطورة عرض الأفكار دفعة واحدة وبوضوح جعلهم يلجؤون إلى استخدام الحيلة، كما يفعل حسن

حنفي. يقول: «**أن تقال الحقائق إلى المنتصف حتى يتعود عليها الناس، ثم يكمل جيل قادم النصف الآخر خير أن تقال مرة واحدة.. أن تقال الحقائق على نحو متشابه ويترك لجيل قادم أحكامها خير أن تقال محكمة فتقابل بحكم آخر، وتسيل الدماء في عصر التكفير والتخوين المتبادلين**»[٢٦]. وحسن حنفي يعترف قبل ذلك أن

أمثال أبو زيد هم الجيل القادم، فبعد جيل المشاريع الكبرى يأتي جيل جديد يحقق مشروع النهضة على نحو عملي دقيق، جيل يوصف بأنه تكون وتجرّأ وقرأ بين السطور وتجاوز، مثل جيل نصر حامد أبو زيد، وسيد القمني ثم جيل علي مبروك...

ما يميز جيل أبو زيد عن جيل المشاريع هو الجرأة، حيث إنّ أبو زيد أدرك ذلك عشية تكفيره وفي ندائه إلى الشعب المصري اعتبر أن أفكاره وقراءته التي يزعمون أنه ارتد بها عن الإسلام تملأ الأسواق وأرفف المكتبات منذ سنوات طويلة، متسائلاً: لماذا لم يحكموا عليها بنفس الأحكام؟ وهو فعلاً يشعر أنه ينتمي إلى جيل جديد، جيل القراءة العلمية. يقول: «**لكن التفات مفكر في قامة زكي نجيب محمود لمسألة التراث وتطويره وتجديده أوجد تحققه في الجيل الثاني، فانتقل مشروع النهضة من "قناع" التراث إلى "تجديد التراث "مع حسن حنفي ولعله ينتقل من " التجديد " إلى "القراءة العلمية" عند الجيل الثاني من تلاميذ الراحل العظيم**»[٢٧]. والمقصود بقناع التراث عند زكي نجيب محمود هو تحول هذا الأخير من الوضعية المنطقية ومحاولة تجاوزه للميتافيزيقا إلى الاهتمام بالتراث العربي الإسلامي تحت تأثير الهزيمة، وبالتالي إدراكه أنّ الغرب عدو لا يمكن الاعتماد على نظرياته الفلسفية للنهوض بالأمة العربية الإسلامية، فاختفى هكذا وراء قناع

التراث احتماء به.

لقد طرح حسن حنفي من قبل فكرة التعود على الحقائق، وكأنّ الحقيقة لا يجب أن تقال دفعة واحدة؛ لكي لا تصدم القارئ، فيتجنب المفكر رد فعله، إلا أنه بالرغم من القضايا التي طرحها أبو زيد إلا أنها تتكرر عند كثير من المفكرين وخاصة عند أركون، الجابري، برهان غليون، حسن حنفي... وإن كان الفارق بينه وبينهم هو طريقة الطرح، فأبو زيد أكثر جرأة منهم وأكثر وضوحاً في التعبير عن أفكاره، إلا أن تكرار طرح هذه الحقائق لم يحدث ما كان يرغبه حسن حنفي، أي تعود القارئ عليها، والدليل تكفير أبو زيد، دلالة على الرفض المستمر لمثل هذه الأطروحات (العلمانية، التاريخية، العقلانية، الحرية...)، فالتكرار ليس معياراً أكيداً لقبول الحقيقة، وهل يمكن فعلاً أن تقال الحقائق إلى "المنتصف"؟ وهل يمكن التكلم عن نصف حقيقة؟ فالحقيقة إمّا أن تقال أو لا تقال، ويمكن أن تقال لفئة معينة ولا تقال لفئة أخرى، تبعاً للشروط التي وضعها ابن رشد انطلاقاً من فصله بين المعرفة البرهانية

والمعرفة الجدلية والمعرفة الخطابية. هكذا فإنّ وجود عائق التكفير أمّا أنه يؤدي إلى قول الحقيقة إلى المنتصف مما يفقد الحقيقة كل معنى أو مصداقية وفعالية، أو أنه يمنع التعود على الحقائق عندما تقال بوضوح وبطريقة مباشرة.

يستعرض كذلك أبو زيد التكفير كعائق أمام العمل الأكاديمي وأمام البحث العلمي، فهو يطرح في هامش كتابه "الخطاب والتأويل" التأثير المباشر للاغتراب قائلاً: «**ومن الضروري هنا الإشارة على سبيل الاعتذار إلى ذلك الاعتماد على دائرة المعارف الإسلامية من جهة، دون العودة إلى المصادر، وكذلك الاعتذار على استخدام طبعات قديمة جداً لبعض كتب ابن رشد، خاصة كتاب**

التهافت، وبخصوص هذا الكتاب الأخير فالطبعة التي اعتمدت عليها من السوء لدرجة أنها أحوجتني في كثير من الأحوال للعودة إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب ـ والتي سأشير إليها من بعد ـ من أجل التأكد من صحة قراءتي للنص، ولعل القارئ سيسامح كل تلك المحظورات التي أباحتها ضرورة بعدي عن مكتبتي في سياق لا يحتاج لشرح أو إيضاح»[٢٨]. فهل يمكن في مثل هذه الظروف المتمثلة في البعد عن الوطن وبالتالي عن الكتاب تحقيق القراءة العلمية التي كان يصبوا إليها أبو زيد؟

في نفس الإطار يشعر أبو زيد بأنَّ ما حدث له شبيه بما حدث لابن رشد الذي أُحرقت كتبه. هذا كله أثّر على تفكير أبو زيد، مما جعله يجزم بوجود محاكم التفتيش في واقعنا إشارة إلى ما تمارسه مؤسسة الأزهر من مراقبة على منتجات العلوم الإنسانية. يقول: «**فبرغم كل الادعاءات والدعاوي العريضة، والفارغة من الفهم، من عدم وجود سلطة دينية في الإسلام تشبه الكنيسة في المسيحية، فالواقع الفعلي يؤكد وجود هذه السلطة، بل وجود محاكم التفتيش في حياتنا...**»[٢٩]. ويشير محمد عبده إلى أنّ إنشاء محاكم التفتيش في أوروبا كان مصادفاً لظهور الرشدية وانتشار العلم والفلسفة، خصوصاً في جنوب فرنسا وإيطاليا. لقد مارست هذه المحاكم عنفاً على كل المفكرين الذين لم تكن تصوراتهم تتطابق مع أُطروحات الكنيسة. من بين الإحصائيات التي يقدمها محمد عبده أنّه ما بين ١٤٨١ إلى ١٨٠٨م تم الحكم على ثلاثمئة وأربعين ألف، منهم ما يقارب مئتي ألف أُحرقوا بالنار أحياء.

من أهم المحاكمات محاكمة غاليلي غاليليو لأفكاره العلمية والفلكية المساندة لملاحظات كوبرنيكوس حول دوران الأرض. يقول بدوي واصفاً ذلك:

«وتمت محاكمة جاليليو للمرة الثانية بتهمة الهرطقة. وصدر الحكم في ٢٢ يونيو سنة ١٦٣٣، وفي القاعة الكبرى في دير الدومنيكان المسمى دير منيرفا، واضطر جاليليو وهو جاث على ركبتيه، أن يقر بأنه ارتكب خطيئة وفقاً للصيغة التي أعدتها المحكمة ـ حين اعتقد أنّ الأرض متحركة وأنّ الشمس في مركز مجموعة من الكواكب من بينها الأرض. وتعهد بأنه من الآن فصاعداً سيكون مطيعاً لسلطة الكنيسة وعقائدها، وبأنه ينفذ كل العقوبات التي فرضت عليه، ومن بين هذه العقوبات: "السجن الشكلي" لدى الديوان المقدس»[٣٠].

وهذا يدل على الطابع الديني لمحاكم التفتيش، فبالرغم من أنّ أعمال غاليلي كانت متوجهة لدراسة الكون بطريقة علمية، إلا أن نتائج دراسته جعلت المؤسسة الدينية تحكم عليه بالهرطقة؛ لأنه شكك في المعتقدات الدينية، وخاصة أنّ معارف الكنيسة العلمية لم تكتسب بوسائل البحث العلمي، بقدر ما اكتسبت بطرق الإيمان الديني التي لا يمكن في نظرها أن تخطئ.

يمكن إقامة مقاربة بين السلطة المهيمنة في المجتمعات الغربية وبين آلية التكفير المشتركتان في قاعدة المنع، فمشال فوكو مثلاً في دراساته يؤكد على طبيعة السلطة التي تهدف إلى القمع وفرض القانون والخضوع له، وهذا ما يؤكد على وجود أشكال المقاومة المواجهة للسلطة. وبفضل تمفصل نقاط المقاومة، تمتد السلطة إلى مختلف المجالات الاجتماعية. كما أنه لا يمكن الفصل بين الخطاب والمقاومة؛ لأنه في نظر فوكو أفضل ما يقاوم السلطة عن طريق قول الحقيقة بوضوح، وتجنب التحريف. تلجأ السلطة إلى العقاب في حالة عدم الخضوع للقانون، ويختصر فوكو أشكال العقاب في ثلاثة أنواع: **«وثمة طريقة وجيزة لوصف تاريخ**

العلاقات السلطوية والعلاقات الشيئية تقوم على اختصار أشكال العقاب الثلاثة التي وصفها فوكو، أي التعذيب كوسيلة للسلطة الملكية، والإصلاح الإنساوي كحلم للتصور المثالي في العصر الكلاسيكي، وأخيراً السجن والمراقبة الضبطية كتجسيد للتكنولوجيا الحديثة للسلطة التأديبية»[٣١].

والتكفير يخرج عن هذه الأشكال الثلاث من العقاب التي وصفها فوكو، وإن كان يؤدي أحياناً إلى التصفية الجسدية. يقول أبو زيد: «... **ويلي الاتهام بسلاح التكفير ومشتقاته إطلاق الرصاص من جانب الجناح العسكري للاتجاه - أو الاتجاهات - الإسلامي..**»[٣٢]. وما يعادل التكفير في المجتمعات الغربية هو الجنون، فالاتهام بالجنون هو أيضاً آلية للإقصاء. يرى هنري أوكومب في مقاله "التواصل والجنون" أنّ المجنون كضحية يؤدي وظيفة مزدوجة، فهو يطرد العنف من الجماعة، لتمركز العنف على شخص بعينه. هو ثانياً يحقق الإجماع الذي يؤسس التماسك، وبالتالي فإنّ الإصابة بالجنون خطر يتربص بكل من يعيش في الجماعة، ما دام تحمّل الآخر واحترام القانون واجبين إجباريين.

تعرض فوكو من خلال "نظرية القهر" للجنون، من حيث إنّ الجنون ليس مرضاً عقلياً تتم معالجته في المصحات والمستشفيات؛ لأنّ الطبقة البرجوازية في العصر الكلاسيكي كانت تفرض أخلاقياتها وقناعاتها على مختلف طبقات المجتمع، ومن يقاومها يعد شاذاً أو مجنوناً يجب عزله عن الآخرين. هذا مخالف لما هو موجود في الحضارة العربية الإسلامية التي لم تستعمل آلية الجنون للإقصاء، مما جعل المستشفيات التي كانت مخصصة للمجانين أكثر إنسانية وأكثر خضوعاً للمعايير الطبية؛ لأنه لم يكن لها هدف آخر غير العلاج.

يقول عمر مهيبل شارحاً فوكو:

«**يظهر أن العالم العربي عرف منذ مدة مستشفيات حقيقية مخصصة للمجانين فحسب، قد يكون ذلك في فاس ابتداء من القرن السابع وقد يكون في بغداد في نهاية القرن الثاني عشر، وبالتأكيد في القاهرة خلال القرن الثالث عشر، وقد اتُّبع في هذه المستشفيات نوع متميز من العلاج، وهو علاج النفس بواسطة الموسيقى، والرقص، والعروض المسلية، والشعر الرقيق الناعم، وكل ذلك يجري تحت رعاية أطباء متخصصين، يقررون وقف العلاج متى تحسنت حالة المريض**»[٣٣]. عكس المستشفيات الغربية فقد كانت تديرها إدارة مدنية لا علاقة لها بالطب، وفي كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" يقول: «**إنّ المستشفى الرئيسي ليس مؤسسة طبية، هو بالأحرى بنية شبه قضائية، نوع من الهوية الإدارية، التي هي بالإضافة إلى السلطات المشكلة وخارج المحاكم، تقرر، وتحكم وتعدم..**»[٣٤]. صفة الجنون لم تلصق فقط بالمعتوه والأبله والمشرد... بل حتى بالفيلسوف، الذي لم يحاول التخلص منها بقدر ما عمل على جعلها صفة ملازمة له،

فنجد أن نيتشه يقول: «**ولأننا عقول خطيرة، ولنا جسامة الوزن بدل جسامة الرجال، فلا شيء يستطيع أن يحسن إلينا أفضل من قبعة المجنون: إننا في حاجة إليها حاجتنا إلى دواء ضد أنفسنا...**»[٣٥]. أصبح الجنون عند نيتشه يعني أن يكون المرء مرحاً، رافضاً، ساخراً، طفولياً، وجدياً، يستطيع أن يجمع بين المتناقضات، ورافض للأفكار العمومية والمشتركة. هذا ما جعل كذلك ديريدا في كتابه "الكتابة والاختلاف" يرى أنه لا تفلسف إلا في الرعب، رعب الاعتراف بالجنون.

أما فوكو فقد اعتبر أنّ الجنون ملازم للعمل (Lœuvre)، ويظهر الجنون عند اكتمال هذا العمل، حينها يكون العالم في مواجهة هذا العمل المنجز، فيضطر

إلى أن يقيس نفسه باللامعقولية من خلال مجهوداته ونقاشاته، خاصة عندما يتعلق الأمر بأعمال نيتشه أو فون غوغ. هكذا استطاع الفكر الغربي الاعتراف بالجنون مع إعطائه معنىً جديداً غير مناقض للعقل، بل للأفكار الجاهزة. يقول نيتشه: «... **ليست الحقيقة ولا اليقين هما ما يكون الرأي المعاكس لعالم الجنون، بل العمومية والضرورة الاجتماعية لرأي ما...**»[٣٦]. أما في العالم العربي، فقد بقي التكفير دائماً مناقضاً للتفكير، يقول أبو زيد: «.. "**التكفير" هو المنهج الكاشف عن مخاصمة "التفكير" والانقلاب ضده...**»[٣٧].

إنّ الإقرار بوجود محاكم التفتيش التي تمارس رقابة مستمرة على الأفكار يتناقض مع أُطروحات كثير من المفكرين الذين ينفون وجودها، مثل محمد عبده ورشيد رضا، بحجة أنّ الإسلام لم يعرف الكهنوت أو الرئاسة الروحية بتعبير رشيد رضا، بحيث لا يحق لأي أحد من الناس حتى الرسل منهم محاسبة الغير، ولا الإكراه والإجبار، ولا المحاسبة على القلوب أو الأفكار، ولا مغفرة الذنوب والأوزار، ولا الحرمان من الجنة وإدخال النار. بل ذلك كله من اختصاص الله وحده، وهذا ما يميز الخلافة عن "البابوية" أو الرئاسة الروحية. بالعودة إلى الإحصائيات التي قدمها محمد عبده حول الأحكام الصادرة عن محاكم التفتيش، وبالمقارنة مع أحكام التكفير الصادرة في حق المفكرين، فالملاحظ أنّ هناك فرقاً في كثرة المحاكمات في الغرب وقلتها في العالم العربي الإسلامي، وظاهرة التكفير تكاد تنحصر في المشرق فقط. يرجع ذلك في نظر مصطفى المنساوي إلى وجود وحدة مذهبية في المغرب وعدم وجودها في المشرق.

يقول المنساوي: «**لم يعرف المغرب في تاريخه الحديث عمليات "تكفير" مماثلة لتلك التي شهدتها بعض بلدان**

المشرق العربي خلال هذا القرن، وخاصة منها مصر ولبنان، يعود هذا الأمر، من بين ما يعود إليه، إلى الوحدة المذهبية (كل المغاربة مسلمون سنيون، لا يتوزعون بين الديانات والطوائف)، وإلى طغيان الصراع السياسي على الصراع الثقافي وحلوله محله في غالب الأحيان...»[٣٨]. وهذا ما يوضح أنه من بين الآثار السلبية للتكفير جعل المحكوم عليه يصدر أحكاماً مبالغاً فيها.

إنّ عنوان كتاب أبو زيد: "التفكير زمن التكفير"، يدل على ذلك، فقد جعل التكفير ظاهرة عامة، والتفكير ظاهرة خاصة ومحدودة، وبذلك غلّب التكفير على التفكير. بالإضافة إلى أنّ حكمه على خطابات التيارات الإسلامية بنفس الحكم ووضعها كلها في خانة واحدة، لا فرق بين المتطرف منها والمعتدل حكم غير صائب؛ لأنه لا يمكن للتكفير أن يكون مشتركاً بين كل الاتجاهات الإسلامية. إنّ محمد عبده الذي يمثل التيار المعتدل كان له موقف رافض للتكفير، فإذا كان هناك خطاب يحتمل الكفر بنسبة تسعة وتسعون بالمئة ويحتمل الإيمان بنسبة واحد بالمئة فلا بدّ من اعتباره خطاب إيمان لا خطاب كفر، وفق محمد عبده.

هناك إذاً تعقيد واضح في تركيبة "اليمين الديني" كما يستعرض ذلك حسن حنفي: «**والحقيقة أنّ اليمين الديني أكثر تعقيداً، فهناك خطاب المؤسسة الدينية الرسمي الممثل في الأزهر (الطنطاوي)، وهناك خطاب الدولة الرسمي الممثل في أجهزة الإعلام (الشعراوي). وهناك الخطاب الإسلامي الذي يضم بدوره عدة تيارات مختلفة يجمعها جامع ولكن تتمايز فيها الأصوات، ويقترب البعض منها وهو الإسلامي المستنير (كمال أبو المجد، طارق البشري، فهمي هويدي) إلى اليسار الإسلامي، بينما يقترب البعض الآخر (محمد الغزالي، محمد عمارة)**

إلى اليمين الديني..»[٣٩]. وأبو زيد يضع اليمين الديني بكل تفرعاته (خطاب الدولة الرسمي، خطاب المعارضة الدينية، الإسلام المستنير، التيار العلماني الديني، الإسلام المستنير العلمي) في الطرف المناقض لليسار العلماني الذي يمثله هو نفسه.

الاستنتاج

من الآثار السلبية لعائق التكفير أنّ أبو زيد أصبح يمارس على خصومه نوعاً من العنف، فهو أحياناً ومن خلال بعض المصطلحات يصفهم بالأُصولية، والسلفية، والرجعية الظلامية... يمارس هكذا بدوره إقصاء لخصومه من الساحة الفكرية، معتقداً أن مثل هذه المفاهيم ستبعد القارئ عن تلك الأفكار. كقوله مثلاً: «**ومن هنا تكون الدعوة إلى "التحرر من سلطة النصوص" هي في حقيقتها دعوة إلى التحرر من السلطة المطلقة والمرجعية الشاملة للفكر الذي يمارس القمع والهيمنة والسيطرة حين يضفي على النصوص دلالات ومعاني خارج الزمان والمكان والظروف والملابسات**»[٤٠]. ويصف كذلك خصومه بالخداع والتزوير والتضليل. يقول: «**هذا الإقصاء للعلمانية والعلمانيين من حيز "الوطن" و"الوطنية" يعتمد أيضاً على آلية الخداع والتزوير والتضليل، التي توحد بين "العلمانية" و"الكفر" ولا ترى فيها إلا معاداة الأديان**»[٤١].

بالإضافة إلى أنّ مفهوم السلفية الذي يصف به أبو زيد خصومه ليس دقيقاً، فطه عبد الرحمان يعتبر أنّ هذا المفهوم لا يصدق فقط على الاتجاه الإسلامي، بل حتى على الاتجاه التنويري. يقول: «**فليست الطريقة التي يفكر بها السلفي بمختلفة عن الطريقة التي يفكر بها هذا المدعي، فالفكر أياً كان، ولأيّ كان، وفي أيّ مجال كان، يعتمد دائماً وأبداً نماذج "سالفة" يرجع إليها في تحصيل المعرفة وتبليغها**»[٤٢]. فالتنويري في

رجوعه إلى نموذج تراثي غربي يتصور العقلانية كما يتصورها أسلاف الغرب في القرن السابع عشر. تظهر سلفية أبو زيد بالخصوص في رؤيته القريبة من المادية التاريخية في أُصولها الماركسية، والتي تعطي الأسبقية للواقع على ما هو ميتافيزيقي أو روحي، مما أدى بأبو زيد إلى القول بأسبقية الشروط التاريخية وتأثيرها على النص الديني وتشكلهن، وحتى الفعل الإلهي حسبه يجري على سنن التاريخ وقوانينه، وبذلك يقع في تقديس التاريخ، بل تأليهه، كما لو كان سيداً عظيماً يقبض على كل شيء.

أخيراً يمكن النظر إلى هذا الصراع القائم بين التنويريين والسلفيين، الصراع الذي يستخدم فيه كلا الطرفين آليات الإقصاء والنفي. يمكن النظر إليه على أنه طبيعي وضروري في نفس الوقت؛ لأن كلاهما يحمل هم النهوض بالأُمة العربية الإسلامية، وفق ما يراه مناسباً من الوسائل والمشاريع، وبما أنّ القرآن والوحي هو غالباً محور صراعهم من خلال تساؤلهم عن كيفية تدوينه، وكيفية تأويله وتفسيره، وعلاقته بالواقع والتاريخ، وطريقة نزوله، ومدى قدمه أو حدوثه، ونسبة المجاز والحقيقة فيه، وقيمة الأحكام الواردة فيه من حيث نسبيتها وإطلاقيتها، وعلاقته بالعقل والإيمان، وناسخة ومنسوخة، وترتيب النزول والتلاوة... كل هذا يدل على أهميته من حيث كونه نصاً مؤسساً، ونصاً مشرعاً. حسب سبينوزا فإنّ الناس لا تتصارع إلا على ما كان محبوبا عندهم. يقول: «... **بالفعل، أبداً ما كانت الخصومات تولد بسبب موضوع ليس محبوباً؛ لأننا لن نحسّ بأيّ حزن إذا تلاشى، وأيّ حسد إذا امتلك من طرف الغير، وأيّ خشية، أيّ كره، وفي كلمة واحدة أيّ انفعال شديد للروح**»[٤٣].

هذا الانفعال الشديد للروح يظهر في حماس الاتجاه السلفي لتحقيق

نموذج الخلافة والتطابق مع التجربة المحمدية، والمحافظة على الامتياز الذي يحتله النص الديني داخل الثقافة. في نفس الوقت هناك خشية كبيرة من تحقيق العلمنة. أما الانفعال الشديد للروح لدى الاتجاه التنويري فيظهر في الرغبة الملحة في تحقيق الحداثة والتحديث، والخوف من هيمنة رجال الدين وسيطرتهم على العقول، مما أدى إلى انتكاس التنوير حسب نصر حامد أبو زيد.

يمكن في الأخير الاختتام بهذا النص المميز لسبينوزا، والذي يحدد فيه طبيعة العلاقة التي يجب على المفكر إقامتها مع كل العوائق المحيطة به. يقول: «**رغم أنّ قوى فكر وحيد هي بالتأكيد محدودة، وفعله محدود، فإنّ الإنسان الحر يجب عليه العيش بين الجهال، الذين بسبب جهلهم نفسه معرّضين لأخطر الأهواء: إنهم طموحون، غيورون، متكبرون. أفلا يمكن أن يعاني الإنسان الحر من كرههم ومن اضطهادهم؟ أليسوا عائقاً للمحافظة عليها (الحرية)؟ أليس من الأحسن أن يتخلى عن خدماتهم وينسحب في العزلة؟ لا الإنسان الحكيم يعلم أنّ مجتمع الإنسان، حتى وإن كان جاهلاً، هو من أول المنافع من أجل تطور ذاته وعقله، بين ضررين فإنه يعلم كيف يختار أقلهما**»[٤٤]. هذا الإنسان الجاهل أو "العامي" قد ركز عليه أبو زيد، حيث

رأى أن عدم اهتمام المنظومات المعرفية المختلفة به هو الذي أدى إلى تفاقم أحكام الردة والتكفير، فالمتكلمون كالمعتزلة وجهوا اهتمامهم إلى الإنسان العاقل، أما المتصوفة والفلاسفة فركزوا على الإنسان العارف، وأخيراً فإنّ الفقهاء راعوا فقط الإنسان المطيع. فقد تم إقصاء الإنسان الاجتماعي غير العارف أو غير المطيع، حيث يقول: «... فهو الإنسان" المفكر"عند المعتزلة،

"العارف"عند الفلاسفة والمتصوفة، وهو " المكلف"المطيع عند الفقهاء. وفي معظم هذه التحديدات غاب الإنسان" الكائن الاجتماعي" ـ غير العارف أو غير المطيع ـ عن هذا الفكر»[٤٥]

محمد أركون نفسه تنبه إلى الإقصاء الذي تعاني منه الجماهير الشعبية، من طرف المفكرين، بحيث تظل منغلقة داخل الثقافة الشعبية وحدها، رغم أنها تمثل الأغلبية المستهلكة للعقائد الإيمانية، واللاعقائد الخاضعة للبحث العلمي.

إنّ سبب هذا الإقصاء يرجع إلى عقلية القرون الوسطى، حيث كانت النخبة تدعو إلى إبقاء العوام بمنأى عن المناقشات العلمية، في حين أنّ الروابط التي يمكن أن يقيمها المفكر معها هي نافعة له أكثر مما لو عزل نفسه عنها. يؤكد أركون أن كلاً من العنف، التقديس، الحقيقة، هي القوى الرئيسة التي لم يسيطر عليها الإنسان بعد، والتي لا تزال حتى الآن تتحكم بكل أشكال وأنماط الوجود البشري.

الهوامش:

[١] نصر حامد أبو زيد / النص، السلطة، الحقيقة: ١، ط. الأُولى ١٩٩٥م، المركز الثقافي العربي.
[٢] محمد عابد الجابري / التراث والحداثة: ٤٥، ط. الثانية ١٩٩٩م، مركز دراسات الوحدة العربية.
[٣] محمد عابد الجابري / نحن والتراث: ٤٩، ط. السادسة ١٩٩٣م، المركز الثقافي العربي.
[٤] حسن حنفي / التراث والتجديد: ١٣، ط. الرابعة ١٩٩٤م، المركز الثقافي العربي.
[٥] محمد عابد الجابري / نحن والتراث: ١٦٢، مصدر سابق.
[٦] محمد عابد الجابري / مقال: التراث والعمل السياسي ــ مجلة الثقافة ــ وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، العدد ٧٩، ص١٠١.
[٧] نصر حامد أبو زيد / الخطاب والتأويل: ٢٣٩، ط. الأُولى ٢٠٠٠م.
[٨] يورغن هبرماس / الفلسفة الألمانية والتصوف اليهودي، ترجمة: نظير جاهل: ٣٩، ط. الأُولى ١٩٩٥م، المركز الثقافي العربي.
[٩] علي حرب/ الممنوع والممتنع: ٦٣، ط. الأُولى ١٩٩٥م، المركز الثقافي العربي.
[١٠] نصر حامد أبو زيد/ الخطاب والتأويل: ١٩، مصدر سابق.
[١١] نصر حامد أبو زيد/ دوائر الخوف: ٢٧٧، ط. الأُولى ١٩٩٩م، المركز الثقافي العربي.

[١٢] نصر حامد أبو زيد/ النص، السلطة، الحقيقة: ١٥، مصدر سابق.
[١٣] عبد الله العروي/ مقال: قضية التراث والانبعاث الحضاري في الوطن العربي- مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ١٢، مايو/ آيار ١٩٨١، ص ١٨.
[١٤] محمد أركون / الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، ترجمة: هاشم صالح: ١٥٤، ط. الثانية ١٩٩٢م، دار الساقي.
[١٥] نصر حامد أبو زيد / نقد الخطاب الديني: ١٧٤، ط. الثانية ١٩٩٤م، سينا للنشر.
[١٦] حسن حنفي / التراث والتجديد: ١١٠، مصدر سابق.
[١٧] نصر حامد أبو زيد / الخطاب والتأويل: ٧، مصدر سابق.
[١٨] كما صدر عن عدة مجلات ردود فعل ومقالات تؤيد مواقف أبو زيد، من بينها مجلة الطريق، العدد ٤، ١٩٩٥، حيث نجد عنواناً (دفاعاً عن العقل وحق الاجتهاد، دفاعاً عن قضية نصر حامد أبو زيد) تضمن عدة مقالات لمجموعة من المفكرين مثل: سعد الله ونوس (حكم فاجع الدلالة)؛ كريم مروة (قضية نصر حامد أبو زيد والمشروع الجديد للنهضة)؛ وجيه كوثراني (قضية أبو زيد وزوجته: الفتنة داخل ضمير المسلم) ... كما أصدر عدد من الكتاب والمثقفين العرب وأسرة تحرير مجلة "النهج" بياناً دافعوا فيه عن الرسالة التي تقاتل من أجلها المفكر العربي المصري أبو زيد وكان عددهم ٦٩ فرداً. وصدر عن مجلة "القاهرة" العدد ١٥٢ سنة ١٩٩٥، ملفاً كاملاً عن تكفير أبو زيد تضمن "وثائق خطة إعدام مثقف مصري".
[١٩] نصر حامد أبو زيد / نقد الخطاب الديني: ٢١، مصدر سابق.
[٢٠] المصدر السابق: ٧١.
[٢١] المصدر السابق: ٣٥.
[٢٢] نصر حامد أبو زيد / الخطاب والتأويل: ٨٧، مصدر سابق.
[٢٣] نصر حامد أبو زيد / نداء إلى الشعب المصري ـ مجلة الطريق، العدد٤، السنة ٥٥، ١٩٩٦، ص٥.
[٢٤] علي حرب / الاستلاب والارتداد: ١٢، ط. الأُولى ١٩٩٧م، المركز الثقافي العربي.
[٢٥] نصر حامد أبو زيد / الخطاب والتأويل: ٢٠، مصدر سابق.
[٢٦] نصر حامد أبو زيد / دوائر الخوف: ١٣، مصدر سابق.
[٢٧] حسن حنفي / حوار الأجيال: ٥١٢، دار قباء للطباعة والنشر، ١٩٩٨.
[٢٨] نصر حامد أبو زيد / الخطاب والتأويل: ٨٢، مصدر سابق.
[٢٩] المصدر السابق: ٢٣ الهامش.
[٣٠] المصدر السابق: ٢٢٦.
[٣١] عبد الرحمان بدوي / ملحق موسوعة الفلسفة: ٩٥، ط. الأُولى ١٩٩٦م، المركز العربي للدراسات والنشر.
[٣٢] دريفوس أوبير، رابينون بول / فوكو مشال مسيرة فلسفية، ترجمة: جورج أبي صالح، مراجعة: مطاع صفدي: ١٣١، مركز الإنماء القومي.

[٣٣] نصر حامد أبو زيد / مقال: الاستقطاب الفكري، مجلة الطريق، لعدد ٣، السنة ٥٣. مـايس / أيـار ١٩٩٤، ص ٩.
[٣٤] عمر مهيل / البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر: ١٦٨ (الجزائر).
[٣٥] Histoire de la folie – Foucault Michel١٩٦٤-١٨/١٠le monde en .٥٦p –
[٣٦] فريديريك نيتشه / العلم المرح، ترجمة وتقديم: حسان بو رقية، محمد الناجي: ١١٩، إفريقيا الشرق، ٢٠٠٠.
[٣٧] المصدر السابق: ٩٥.
[٣٨] نصر حامد أبو زيد / الخطاب والتأويل: ٢٣٤، مصدر سابق.
[٣٩] مصطفى المنساوي / مقال: أحمد السنوسيفنان من هذا الزمان ـــ مجلـة الحـدث العـربي والـدولي- العدد٤، نوفمبرـ ديسمبر١٩٩٩، ص ٥٠.
[٤٠] حسن حنفي / حوار الأجيال: ٤٦٨ ـ ٤٦٩، مصدر سابق.
[٤١] نصر حامد أبو زيد / التفكير زمن التكفير: ١٣٨، ط. الأُولى ١٩٩٥م، سينا للنشر.
[٤٢] نصر حامد أبو زيد / دوائر الخوف: ١٧٤، مصدر سابق.
[٤٣] طه عبد الرحمان / العمل الديني وتجديد العقل: ٧٠، ط. الثانية ١٩٩٧م، المركز الثقافي العربي.
[٤٤] Spinoza. B- Traité de la réforme de Lentendement –Texte traduction ٨p .١٩٩٤et notes par. A. Koyré – Librairie Philosophique. J. Vrin. Paris-
[٤٥]-eme ٤Brunschvicg Léon –Spinoza et ses contemporains- P. U. F édition. ١٩٥١. ١١١p.
[٤٦] نصر حامد أبو زيد / دوائر الخوف: ١٦٥، مصدر سابق.